

أولاد سَكْبِيَّة
أو
خروج الأقدام الحافية

رواية

منذر بدر حطوم

العسكر في المقبرة

التحف العسكر سفح وادي الجراد الجنوبي صعودا إلى المقابر. بات واضحا أنهم يعتزمون تجميع صفوفهم على الوهدة التي تعلو مقبرة آل مسعود بقليل، وهي أعلى مقابر العائلات، لتكشف تحتها الضيعة بأسطحها وزواربيها. أن يكون لكل عائلة مقبرة، بل لكل فرع من فروع العائلة، كما هو حالنا بيت بومسعود، أمر طيب يضمن عدم تصفية الأموات حساباتهم السابقة التي قضوا دونها.

رأى الراعي علي جاد غبارا يتصاعد من مسالك الوادي، ورأى أرتالا رمادية تتسلق السفح مستترة بأجمات السماق وتخوم الصبار. كان قد تنهى إلى مسامع الأهلين احتلال العسكر للسفح الممتد من (الهبطة) شمالا إلى (جبور) جنوبا، ومن البحر غربا إلى (عين الدقاقة) شرقا، ومع أفول اليوم الرابع لضجيج الجرافات كان علي جاد قد فقد نعجة وحملين ناصعي البياض. في ذلك المساء، عاد علي جاد إلى حظيرته مغموما، ليس لأنه فقد النعجة والحملين، إنما لأن مرآته خذلت، فلم تكشف له السارقين. لم يكن علي جاد قد فقد أيًا من خرافه أو نعاجه قبل ذلك اليوم. حين عاين الشيخ بوعلي حال ابنه وحال القطيع، رجا ابنه وهو العاجز المشلول إخراجهم إلى صحن الدار وهناك تملّى حجارة السور الكلسية الهشة وراح يفتت قطعاً منها برأس عصاه السنديان التي لم تعد تسعفه في الوقوف، وقال: أرى القطيع يذبح يا بني، وليس لبهلول مثلك وعاجز مثلي أن يحميه، وأمّا الله فلست واثقا من أنه يريد. سق الأغنام إلى مرعى آخر يا علي ريثما يحلّها الحلال. أخشى أنك ستضطر إلى الرحيل في يوم قريب، وأمّا أنا فسأبقى للأموت هنا. ومع ذلك، فحالنا يا بني أهون من حال غيرنا بكثير، فليس لدينا إلا النعاج، وأمّا الناس فليدهم نساء وأطفال وأرزاق. نظر علي جاد نظرة مفروعة نحو أبيه، فقد هاله أن يفقدنا نحن الصغار الذين سكنا السفح معه نضع المرايا التي تكشف لنا الخبايا.

في ذلك العصر، أخرج علي جاد نايه ونفخ فيه إيذانا بالرحيل. ومع أنّ الخراف شتّفت آذانها إلاّ أنها لم تستجب للنداء. فقد جاءها صوت الناي أبكر مما اعتادت وجاءها مبحوحا مكبوتا، وجاءها مسفوحا بموجات من وقع الأقدام الثقيلة تهتز لها الأرض وتنفخ غبارها ارتياعا. استجمع علي جاد أنفاسه وملاً صدره هواء ونفخ ثانية في الناي، وكدت أقول في الصور، فاستجاب الكبش ثم النعاج محفوفة بالحملان ثم بقية الخراف، وأما الكلب بازو فكان قد انبطح حاشرا بوزه بين قائمته الأماميتين مكتفيا برفع ذيله وتحريكه يمنا ويسرة كصحن رادار يلتقطذبذبات الخطر. كان بازو كأنما يدرك أن وضعية الانبطاح هي الأضمن للبقاء على قيد الحياة. ومع ذلك فقد اضطر إلى النهوض واللحاق بالقطيع الذي راح يصطف في جورة (الميلكاني)، استعدادا للانسحاب إلى حظيرة الدار المشفوعة برعاية الشيخ. كانت هذه الجورة هي قطعة الأرض الوحيدة التي جناها صاحبها من هجرته إلى أميركا أو (ميلكا)، كما يسمّيها هنا الأهلون. وكان قد عاد من البرازيل بلا شيء، سوى ذكريات عن الخمر والنساء. ولم تكن الجورة تزرع على الرغم مما أودعه فيها قطيع علي جاد من دبال ثمين، فقد انصرف عنها الميلكاني إلى فقره.

ومن خلف جذع بلّوطة عجوز، راح علي جاد يراقب أرتال العسكر وكان قد اطمأن إلى أن خرافه مستترة عن عيونهم بجرف صخري يحدّ جورة الميلكاني عن منحدر السفح. أحصى علي جاد ما يربو على مائتي رأس قبل أن ينقطع ذيل الرتل الأخير من المتسلقين صوب المقابر، جعب الرصاص على صدورهم ورشاشاتهم في أيديهم والرمانات اليدوية تتدلى من الزنابير التي تمنطقوا بها. لطالما أتقن علي جاد إحصاء الرؤوس بسرعة مذهلة، حتى وهي في وضع الحركة، وليس فقط رؤوس الغنم، وهي مهارة أكسبته إياها الحاجة إلى تفقد قطيعه بين الحين والآخر، ومعرفة فيما إذا ضل حمل ما أو شاة ما الطريق أو خرج عن حدود القطيع. ستجد من يرى في طريقة علي جاد في الإحصاء فرصة للهزء منّا نحن أهالي عين الغار جميعا على أساس أن القطيع يقع في جذر إدراكنا للحساب، بل وللرياضيات العالية. ولكن هذا ما لم يكن يشغل بال علي جاد ولا بال الوزير الذي رأى علاقة بين الفيزياء النووية ورعي القطيع وصناعة الساحير فارتأى أنّ أفضل مكان يصرف فيه علمه ابن عمّ علي جاد، علي بن مسعود حائز الدكتوراه في فيزياء الذرة من معهد الفيزياء العالية في موسكو، وكان قبلا من صبيان وادي الجراد الذين نشأوا على مرايا ابن عمّه علي جاد.. أفضل مكان هو ورشة صناعة (ساحير) الخضار في معمل (الخشب المعاكس). إلى هناك، أمر الوزير مقاتله علي بالذهاب بعد عودته من الإيفاد، ولم يعترض الأخير ولم يمتعض، فقد كانت لا تزال ماثلة في ذهنه ذكرى بوتاشنيكوف وغريغوريف اللذين عرفا قيمة النجارة في معسكرات (كاليما). كان الدكتور من جماعة بليخانوف. وأمّا في ذلك اليوم الذي ستدور حوله الرواية فليسبب ما، لم يكن ضمن الفصيل الذي تصدى للعسكر، مع

أنّ ما فيه من الجنون كان يكفيه لفعل ذلك معنا نحن الذين لم تكن تتقصدنا حماقة استسهال فكرة مقاومة العسكر.

كانت هوية العسكر تتعيّن بوقع أقدامهم على قبورنا وليس بالشعار المخاط على قمصلاتهم. لست أدري من أين جاء مترجمو أدب الحرب الروسي بهذه الكلمة التي تعجبني. في الوقت الذي كانت فيه عينا علي جاد الحزینتان تشیعان آخر المتسلقين، كان قائدهم قد بلغ المقبرة واعتلى أحد القبور ومنه راح يتفحص الشارع الرئيس في الضيعة الذي لا يتجاوز عرضه في أوسع مواضعه أربعة أمتار والزواريب المتعرجة المتفرعة عنه، وذلك المكان حيث تلتقي عدّة أزقة وزواريب فيما يسمّى الساحة، حيث تقام الأعراس، وبعض أسطح المنازل حيث ترسم ملامح فتاة هنا وشاب هناك.. راح الضابط يفعل ذلك بانتظار وصول بقية العسكر ليبلغهم بتفاصيل خطته.

كان ذلك يوم الجمعة وكانت المقابر قد نظّفت جيّدا ولما تذبّل الزهور التي أتى بها الأهلون إلى القبور ولما تفقد بعض حبّات البخور، التي لم تحترق، بريقها في الغضارات بعد. قبيل وصول الضابط، يتبعه مساعدوه ثم طلائع المقاتلين، سمع ابن عمّي (تاريخو) ضجيجا مصدره ما وراء التخم المكتظ بأجمات العشم الذي يرسم حدود المقبرة مع وادي الجراد. نبه تاريخو أمّه إلى الأصوات الغريبة المرعبة، وكانت قد أنتت به إلى المقبرة لتبخير قبر والده فور عودتها من زيارة ابنها رامي الدبابة في الشام. أدركت المرأة من دنو الأصوات أن الوقت لديها أقل من أن تفكر فاستجدت بغريزتها. شدّت امرأة عمي ابنها تاريخو مشيرة إليه بضرورة الصمت وأسرعت الخطو إلى جهة الجنوب لتتحدّر عبر السطح الثاني لهضبة الموتى وتلتف عبر طريق حراجي طويل إلى الضيعة. ولكنها، ما إن ابتعدت عشرات الأمتار حتى تماكنت نفسها فتوقّفت والتفتت إلى الخلف ولجأت إلى ثغرة ترى من خلالها شكل الضجيج المتوعد القادم من هناك. وأمّا تاريخو فقد شجّعه تماسك أمّه فتسلل بين الدغل ولطى خلف ظلمة الخضرة حين رأى أحدهم يعتلي قبر الشيخ، ثم رأى آخرين يتكئون على شواهد القبور وآخرين يحتشدون في الفسحة الترابية المعدة للموتى الجدد. لم يكن تاريخو ولا سواه في ضيعتنا قد رأى أحدا يدوس قبر شيخ أو يعبث بشاهدة قبر قبل هذا اليوم الذي لا يشبه سواه، اليوم الذي جاء فيه العسكر. ولم يكن قد قرأ عن ذلك في التاريخ، وليس لأن التاريخ يخلو من أمثلة على ذلك، إنّما لأن ابن عمّي كان قد أطلق النار من بارودة صيد على كتاب التاريخ المدرسي، كان قد وضع الكتاب على (مدميك) من حجارة بيض ربّبت على شكل جدار بعد أن غنى أغنية فيها كثير من السباب والخلط بين الألحان، وجاء ببارودة أبيه الـ (دك) وحشاها بالبارود ثم بالخردق، وأطلق النار، فأصاب كتاب التاريخ المدرسي في مقتل. أطلق تاريخو النار على التاريخ الرسمي. فهو لم يكن يعرف شيئا عن

التاريخ الآخر المعيب الذي تحدّث عنه بلزك. لم تكن ضغطة تاريخو على الزناد إلا تجسيدا لرغبة معلّمنا في تمزيق صفحات التاريخ، المعلّم الذي اقتنيد بعد ذلك، بأمد غير طويل، إلى المعتقل وأمضى فيه قرابة خمس قرن. صفقنا للتصويبة الفاتلة وصحت أنا "يعيش تاريخو" فردها أبناء عمي، فصار اسمه تاريخو. كنا في حفلة قتل التاريخ ثلاثة الأبناء عم إضافة إلى تاريخو. ومعا، نحن الأربعة، قتلنا الجحش فيما بعد: علي خضيرة، وقد لَقَّبته أمّه باسم منادي الضيعة ذي الصوت الجهوري؛ والشيخ وتّوس الذي كَنّته أمّه باسم الشيخ الرائع المجنون يونس ذي الصدر المفتوح العريض، وكانت قد أطلقت عليه الاسم راصدة فيه جذر جنون طيّب، وتاريخو ويعود الفضل إلى بارودة الدك في اسمه؛ وأنا علي جاد الصغير نسبة إلى الراعي فقد كنت أمضى على سفحه في صنع مرايا (بُعديدي) ساعات طوال.

ما إن عاد تاريخو من المقبرة حتى أسرع إليّ بصحبة أختية الشيخ وتّوس. سألتها عن ابن عمنا علي خضيرة فقالا إنّه يلعب كرة القدم في (جورة الأعور) وهي منبسطة من الأرض تتحدّر إليه ثلاث وهاد تفصلها عن أطراف الضيعة الجنوبية الغربية أرض بور تتشمس فيها السحالي وتنتقل فيها النطاطات بين الطيّن والبلآن، وكان فيها شجرة زيتون عتيقة محيط جذعها خمسة عشر ذراعا، اقتلعوها فيما بعد ونصبوا مكانها مربعا من الإسمنت وكتبوا فوقه على قطعة من الصاج "بلدية عين الغار". كنا نختبئ في جذع الزيتون المجوّف وننصت من هناك قاطعين أنفاسنا إلى أكاذيب الرجال المقيّلين في ظلها.

رأينا من الأفضل أن نذهب إلى علي خضيرة من أن يأتي إلينا لنتشاور في أمر العسكر الذين احتلوا المقبرة. كان أكبرنا الشيخ وتّوس على عتبة السابعة عشرة من عمره، وأصغرنا علي خضيرة على أبواب الخامسة عشرة. لم يخطر ببال أحد منا أن العسكر سيرجئون اجتياح شوارع الضيعة حتى حلول الظلام. كان ذلك يعني أنّ لدينا متسعا من الوقت لفعل شيء ما. لم تكن ندري ما نفعل، فلم تصادفنا حالة كهذه من قبل. كنا فيما مضى نتحارب، أبناء الحارة التحتانية ضد أبناء الحارة الفوقانية.

الحارة الفوقانية حارة المشايخ، وأمّا ما نسّميه الحارة التحتانية فهي تجمع من عدة حارات يقطنها العوام. نحن أبناء العم أحفاد سكبيا كنا ننتمي إلى الحارة التحتانية على الرغم من أنّنا من سلالة المشايخ. كان ذلك انتماء إلى الفقر يتجاوز المشيخة. ذهبنا إلى (جورة الأعور) محتضنين أملا بأن ينصرنا فريق (التحتانية) الذي يتدرّب هناك، وهو فريق حارتي (البيدر) و(بيت زريق) المحيطتين بالمدرسة الابتدائية، وبأن يتحمّس للخطة التي لا بد من أن نهتدي إليها عمّا قريب والتي من شأنها أن تطرد المحتلين من المقبرة. وعلى الرغم من أن أحدا من لاعبي الفريق لم يكن يحب أبناء المشايخ ونحن منهم، إلا أنّهم مع ذلك كانوا يحبوننا على نسبنا إلى سكبيا المرأة

المتحدّرة من عائلات العوام، أباً عن جد، والتي ليس لأحد أن يتباهى عليها بفقره وضيق حاله وسذاجته وعيشه على سجيّته.

أجل كان الناس يتباهون بالفقر. فالفقر، هنا، كان يعني الأصالة. وكان أفقرهم أقربهم إلى الناس. ومن سكيبا، كان لدينا ما يجمعنا بفريق الفقراء ويهيئ لرسم خطة مشتركة للدفاع عن الضيعة ضد العسكر الذين احتشدوا استعداداً للهجوم. وهكذا، ما إن تعثرنا بأولى حجارة الأرض البور ورحنا نصيح، حتى قطع صياحنا صوت علي خضيرة منادي الضيعة الحقيقي، وليس ابن عمّي صاحب الصوت المراهق: "يا عالم يا ناس، يا أهالي الضيعة، الحاضر منكم يعلم الغائب، فيه عساكر احتلوا (الكشفة) ومقبرة (بيت بو مسعود).. يا أهالي الضيعة، لمّوا أولادكم من الشوارع وضبوهم ببيوتكم، الله يسترنا ويستركم. يقول لكم المختار بوالعبد والشيخ بوعلي مروان أوغوا أحد يجحش ويغلط بحق العسكر..".

عندما سمعنا ذلك مكرراً ثلاث مرّات بصوت علي خضيرة قذفنا ما تجمّع في حلقنا من سباب، مخلوطاً ببصاق، باتجاه العسكر والشيخ بوعلي مروان المساعد السابق في المخابرات العسكرية والمختار علي بوالعبد والد المساعد الحالي في المخابرات إياها، والذي عُزل من أجل تنصيبه مختاراً، الذي وإن كرهنّا فيه ضعفه أمام زوجته إلاّ أنّه لم يكن بالسوء الذي ينتظره المرء عادة من ذوي العيون الزرق. عزل بأمر من امرأة تأمر فتطاع. كان يمكن تسمية ضيعتنا بـ(كفر المشايخ) مثلاً بدلاً من عين الغار، لكثرة ما فيها منهم. شتمناهم كما يليق بأبناء الشوارع الذين طالما فضّلناهم على أبناء الذوات، وعدنا إلى تدبّر أمر يفسد خطة الكبار.

لم يكن أحد منّا على درجة من حماقة للاعتقاد بإمكانية منع الاجتياح، ومع ذلك كنّا ننتظر في دواخلنا قوّة أسطورية تأتينا من السماء. كان من شأن طير أباييل أن يكون مفيداً في هذه اللحظة وكان يمكن أن يقنعنا بما عجز دونه معلّم التربية الدينية ودروسه المشفوعة بالآيات والحكايات. لم نكن نفهم لماذا انتهى زمن فيالق السماء، فما زال الظالمون يحتلون الأرض ويستبدون بأهلها! ومع أنّنا لم نكن نفهم الاستبداد والظلم كما نفهمهما اليوم، ولم نكن نرى فيهما بعداً يتجاوز حدود أهل ضيعتنا وبساتينهم، إلاّ أن ذلك لم يكن يمنعنا من اختبار علاقة الله بالظالمين.

وبعد صليّات من الشتائم وركل الحجارة، تتادينا للجلوس نحن أحفاد سكيبا وأعضاء فريق التحنانية، وقد تجاوز عدداً الثلاثين، لتدبر خطة للدفاع عن الضيعة أو للانتقام. اقترح الشيخ ونّوس أن يقسم كل منّا بشرف أخته ومن ليس لديه أخت بشرف أمّه على أن لا يفشي بما نتفق عليه لأحد. وافق الجميع، وتحلّقنا لإقرار الخطة اللازمة.

راحت المناقشات كلها تدور حول أفكار مختلفة لقطع طريق العسكر إلى الضيعة. كان واضحاً للجميع أن المجابهة مستحيلة، وأنّ أيّاً منّا لا يملك في بيته أكثر من بضع سكاكين مثلمة، فالسكاكين الحادة شأن علي اللحام والشيوخ، ينحرون بها الذبائح في الأعياد. وكان أكثرنا تسلّحاً يستطيع سرقة حربة من صندوق جدّه، أو بارودة دك عن الساموك.

كان يجب قطع طريق الضيعة عليهم. كان ذلك يعني تدبر حيلة ما في خمسمائة الأمتار التي تفصل المقبرة عن أول بيوت الحارة الفوقانية، ويعني ضمان أن يسلك العسكر الطريق الذي تدبّر الفرنسيون أيام الانتداب أمر تعبيده قبيل رحيلهم. لكن ذلك ما لم يكن لأحد أن يضمّنه. فليست أم تاريخو أكثر فطنة من قائد تشكيل المهاجمين، ومن شأن هذا الأخير أن يفكّر بالانحدار من المقبرة نحو (جورة البلان) ودخول الضيعة من هناك، ويلتف مع شارعها الرئيس عبر تعرجات حارة المشايخ، ثم يقسم تشكيله إلى فصيلين أحدهما ينحدر عبر زقاق (بيت شحود) إلى ساحة (بيت حمدان) ويتابع من هناك إلى ساحة (حسينة)، وآخر يتابع اجتياح الشارع الرئيس نزولاً إلى (الباطوس) ثم ساحة (مسيعود)، ثم قد يلتقي الفصيلان ويعودان إلى الاندماج في باحة المدرسة، فينحدر العسكر من هناك إلى معسكرهم الجديد، أو في (البقجة) فيسلكون الطريق الجديد المؤدي إلى مدخل القصر الذي نصبت خيامهم على مقربة منه. كان ذلك يعني أنّ أيّاً من خططنا لن تتجح ما لم نحدد طريق دخول العسكر إلى الضيعة وطريق خروجهم منها، ليكون كميننا ممكناً في أحد الطريقين.

في البداية، اتفقنا على أنّ من الأفضل لنا أن نوقع بالعسكر أثناء خروجهم من الضيعة فهذا يكسبنا مزيداً من الوقت ومسافة الأمان الفاصلة عنهم. ولكن ذلك كان يعني أن نحدد أي الطريقين سيسلكون؛ طريق الوادي الذي جاؤوا منه لاحتلال المقابر أم طريق الإسفلت الجديد المؤدي إلى القصر. أرسلنا نسيبة وكانت الفتاة الثانية في فريق التحتانية. لم يكن ممكناً لأحد أن يسبقها في الجري. كان ثمة فتاة أولى في الفريق. الأوليّة هنا لا علاقة لها بالمهارات. فلكل منهما مهارتها الخاصة وليس في كرة القدم فقط. إنّما الأوليّة لتاريخ دخول الفريق. أرسلنا نسيبة في مهمّة استطلاع إلى طريق الكاديك التي تتقاطع مع طريق الإسفلت الجديدة المؤدية إلى القصر، لمعرفة ما إذا كان أحد ما من العسكر يربض هناك ويستطيع أن يرانا فيما لو قرّرنا نصب كميننا في ذلك الموقع. وأرسلنا ابن خالتهما القط، وقد سمّي بالقط بفضل من عينيه الزرقاوين الشبيهتين بعيني قط حذر، أرسلناه إلى المقابر في محاولة للتصنّت على العسكر ومعرفة ما ينوون فعله. في الحقيقة، كان من أرسلهما وفكّر بتدبّر أمر الاستطلاع هو مدرّب الفريق شمعون، الذي أجاب حين سئل عن سبب إطلاق أهله هذا الاسم عليه: الفقر!. كان شمعون ينسب إلى أمّه عبلا التي هجرت أباه حين أغلظ لها القول، وكان الصبي لا يزال

صغيرا. ومع أنّها نالت من الضرب ما يثني رجالا أشدّاء عن قراراتهم، إلا أنّها لم تعد إلى مخدعه بعد ذلك اليوم، وهو لم يطلّقها، وربما لم يكن لها قيد على اسمه إلا إذا عدّت فاتحة الشيخ قيّدا، وعاش كأنما نسي وجودها ووجود ابنه شمعون. وفيما هي انصرفت إلى فقرها، استمر هو بسرقة العجول وتربية الثيران. كان يربّيها من أجل تلقيح عجلات الأهليين وبقراتهم. كان ذلك بالنسبة له هواية ومهنة في الوقت ذاته. وأمّا سرقة العجول فأمر كان يعرف به لدرجة أنّهم راحوا يطلقون عليه اسم بوعجول. كان الجميع على يقين من أنّه يفعل ذلك، لكنّ أحدا منهم لم يستطع إدانته بالجرم المشهود يوما. فحتى أصحاب العجول المسروقة كانوا يعجزون عن التعرّف على عجولهم حين تعرض عليهم في الساحة العامة أمام وجوه الضيعة الذين يجتمعون للبت في الخلافات بما يشبه محكمة محلّفين. كان الرجل يختلي بالعجول المسروقة في حظيرته ساعات ويخرج من هناك مبتسما، مطمئنا إلى أنّ أحدا لن يكتشف أمرها بعد طقسه السري معها. الأمر وما فيه أنّه كان يعيد تلوين جلودها. كان يطبخ ألوانه بنفسه، فلم يسبق أن أخبر أحدا عن سر تلك الألوان التي لا يضطر إلى تجديدها إلا في فترات متباعدة. يدخل البلدي الأحمر فيخرج أصفر في حين، مبقعا بالأسود حيننا ثانيا، وبالأبيض، حيننا آخر، ويدخل الدانمركي فيخرج هولنديا أو هجينا من نوع لم يره أحد من قبل. وإذا ما اشتد النقاش وأصر المسروقة عجولهم على أنّ العجل عجلهم على الرغم من كل شيء، سخر منهم بوعجول، قائلا: "مرّه تقولون أحمر، ومرّه أسود، ومرّه بني، ومرّه أصفر فاتح.. فاقع.. والله حيرتموني وحيرتم الأوامد، بالله أنتم مثل قوم موسى! إذا النبي موسى عليه السلام عجز عن إقناعهم ببقرة! فهل أنا المسكين قادر على إقناعكم.. من يعرف فقد تقولون لي بعد دقيقتين ما قالوه له، بعد ألف حجة:" ادع لنا ربك بيّين لنا ما هي، إنّ البقر تشابه علينا". إي والله العظيم تشابه عليكم، يا جماعة، هذا الثور ثوري، وإنشاء الله وبإذن الله سوف يركب بقراتكم عن قريب، بجاه الحبيب!! فينصرف القوم عنه، لاعنين حظهم البائس، معجبين بقوة حجته.

كان الرجل خبيرا بالثيران، ويستطيع من نظرة واحدة أن يخمن أي ثور سيكون هذا العجل الذي تقع عليه عينه. كانت تعنيه الفحولة قبل أي شيء آخر، ولّمّا كان يخطئ. كان (الركوب) طقسا عامّا لا يقتصر حضوره على صاحب العجلة الذي يمسك بها ريثما يحط عليها الثور بثقله الهائل وينفض عنها تاركا فيها ماءه. كان ذلك يتم في دار مهجورة، الدار التي يقتاد إليها بوشمعون ثوره متبخترا، متباهيا بأنّه هو دون سواه من يمسك بالفحولة. بعض أصحاب العجلات، ومع أنّهم كانوا يصلّون من أجل أن (تُعشّر) عجلاتهم، إلا أنّهم كانوا يشعرون بالحرج أمام تباهي الرجل بفحولة ثوره، وكأنما الذكورة لا تعود إلى الثور وكأنما الأنوثة هنا ليست للبقرة. كثيرا ما كانت العجلات تحتاج إلى (ركوب) ثان. لم يكن بوشمعون يتقاضى أجرا بعد المرّة الأولى. كان

لديه خمسة ثيران، ثلاثة منها مسروقة، وكان يريح كلا من ثيرانه يومين قبل أن يقدّم له العجلة. وأمّا إذا ما حرن ثوره وتراءى للرجل أن العجلة أو البقرة لا تعجب الثور، سخر من صاحبها وانصرف بثوره إلى غيره، ملتفتا بعد بضع خطوات إلى الخلف، مطمئنا صاحب العجلة المكسورة الخاطر: " لا تحزن ولا تشغل بالك، عندي ثور مثل بعض الأوامم، المهم عنده أن تكون بقرة! ما لونها؟ كم عمرها؟ غير مهم!".

كانت إحدى ساقي شمعون أطول من الأخرى مما جعله يعرج عرجا خفيفا أثناء المشي. ومع ذلك كان يدرب فريق التحتانية بحماسة عجيبة. كأنه يعدّه ليوم الركوب.

وكمثل عجلة صغيرة على وشك أن تبلغ في عيني ثور خبير، كانت نسيبة في عيني شمعون. وأمّا الآن، وريثما تعود نسيبة ويعود القط من مهمة الاستطلاع، دعوني أخبركم عن مرآة علي جاد الذي نسبتُ إليه، وأمّا شمعون فلنا عودة إليه.

رؤيا علي جاد

يسكن علي جاد عند أطراف أوطأ المقابر، مقبرة الفقراء من شتى العائلات، بما في ذلك عائلات البهاليل من المشايخ، فقبر جدّه وعمّه هنا أيضا. كان بوعلي قد حدّ صخرة منبسطة صلدة عسية على معاول حفّاري القبور، من جهة المقبرة، ببعض الصخور المقتطعة التي نبذها شيخ الدافنين من حيث هي لا تصلح أغطية للحدود، حدّها وجعل منها مكانا يلجأ إليه لتأملاته. فمن هنا ينكشف الوادي الذي خرج منه العسكر إلى المقابر العليا، ومن هنا يمكن تأمل درب الأبييض المفضي إلى العين، ومتابعة النساء يحملن جرارهن صعودا ونزولا، والرعاة يقودون قطعانهم لإروائها وغسل جلودها وفرائها، ومن هنا يمكن رؤية مئات أشجار الغار والخرنوب، وأعشاش الصغار فيها وتحتها يقلّدون الطير حيناً والسحالي حيناً آخر، تاركين حيّات الشمس تغادر ذيولها إلى شرفات الصخر المفتوحة على الشمس. وبعد حين، رفع بوعلي الجدران جاعلا الصخرة موطننا دائما له، تاركا نافذة على القبور وشرفة على الوادي المنفتح على البحر... ثم، وكان أن بسط وهدة صغيرة تدنوها لتكون زريبة لخراف علي، قبيل استغراق الراعي في مراهبه.

كان علي جاد يجلس على بعد خمسين خروفا من مغارة السنونو الساكنة سفح (وادي الجراد) الشمالي، منهمكا بصنع مراهبه تكشف ما وراء البيوت المشرعة أبوابها على "التين والزيتون وطور سنين" وأشياء أخرى، بل ما وراء الجبال. ليس من الرياحين ولا الزعفران كان يصنع مراهبه، إنّما من العيصلان. سأمّ هو العيصلان، إن كنتم لا تعلمون. لماذا هو مربع وصليب في مرآتك يا علي؟ سألتُ الراعي فنظر إليّ مطولا واكتفى بالصمت. مرّع يتوسّطه صليب عموده طويل، هي مرآته: مراهبه بغديدي "بتمري من هون للويدي ويتكشف اللي مخبّا ورا الجبال..." كانوا يظنونهم مجنوناً حين كان يغني للمرأة، وكنا نحن الصغار نلحق به، نتعلّم منه صنع المراهبه، ونحكي له ما نراه من خلالها.

تتفتح نافذة بوعلي على مجموعة من القبور. فهنا دُفن علي ابن المرأة التي كانت تحتسي الخمر مع الرجال في مكان عام في عين الغار دون سواها منهم. تطلب أم عليّ لنفسها كأسا من العرق وأوقية من اللحم المشوي وتجالسهم وتسخر منهم، أعني الرجال السكارى الذين يتجرأون على زوجاتهم في غيابهن. أمّ علي ليست أمّ الراعي ولا أمّ الشرطي، إنّما أمّ عليّ آخر.

هذه الأم علي دبّرت لنا طريقة مضمونة لتمريغ وجه العسكر، كانت اختبرتها على غيرهم من قبل.

رأيت ابنها علي ذاهبا إلى الموت، رأيتَه يفجّر نفسه بالديناميت. رأيتَه يضع كتلة مرصوصة جيدا من الديناميت وسط بطنه وينكّور حولها. رأيتَه يتناثر أشلاء دامية. رأيت الجيران ينشغلون بلّم نطقه من هنا وهناك. كان ذلك بعد شهرين أمضاهما في معسكر للجيش، وكان بو علي سلمى وامرأته قد أنكرا عليه حقّه بعشق ابنتهما ثم بالزواج منها، وكان أن رأى ما أشعل جنونه في البيت، وجعله يوضب أشياءه نحو الموت. جاء في الليل من هناك ممتنع الوجه لكتّه لم يكن قد نوى على الموت بعد، وفي طريقه إلى البيت عرّج على بيت بو علي سلمى ثم دخل دكان برهو، وهناك اشترى إصبعين من الديناميت وكبسولاً وفتيلاً، ومع ذلك لم يكن قد قرر الموت بصورة نهائية. أعدت له أم علي العشاء وصبّت له كأسا من عرق التين. وفي البيت اشتعل غضبا، ثم ندّم، ولكنه في لحظة الندم كان قد اجتاز عتبة الحياة. رجا أمّه بعد أن قبلها أن تتصرف إلى شؤونها وتتركه وحيدا. في غفلة من إصبعي الديناميت المخبأين غفا علي قليلا، ثم أجفل من سباته خشية أن يكون قطار الموت قد فات. في ساعة من ظلام الليل فجّر علي نفسه. رأيت دمه يصرخ: لماذا هنا والآن وليس في غير مكان؟ لم يخطر ببال

علي أن يعود بديناميته إلى المعسكر من حيث جاء نصف منزوع الروح إلى حيث نزع النصف الثاني. كان أحد ما هناك يتناول قطعة اللحم الأخيرة ويستلقي على سريره قرب مسدسه الأسود، أو أن يعود إلى بيت بو علي سلمى، كان الأخير، وقد شرح صدره خروج علي خائبا، يقرأ القرآن بصوت مرتفع، ريثما تجلب له زوجته كأس العرق، وكان قد تفقّد مسدسه الذي يطلق منه النار بعد تلاوة القرآن ودلق الكأس الثالثة في جوفه.

وهنا دفنت في حفرة صغيرة، قدّها بو علي جاد بفأسه في خاصرة صخرة بيضاء، أصابع علي آخر كاد يموت. راح علي يضرب الصاعق الذي خلفه أخوه المنسحب عصر الجمعة إلى معسكره، يضربه بحجر متفحّصاً أثر ضرباته بعينيه السوداوين عن قرب. انفجر الصاعق بين أصابع علي فبترها وأعماه.. جاء أخوه العسكري من تكنته وأشبعه ضربا. كان الشاش المبقع بالدم لا يزال ملفوفا على رأسه ويديه. رأيت علي الذي أعماه البارود يتعلّم تلاوة القرآن والضحك والرقص والغناء، رأيت له قضيبا كبيرا يخافه الصغار ويحسده عليه الكبار. رأيتَه يسبح عارياً ويضحك حين ينبّهونه إلى عيون من حوله: "أنا ما شايفه!" يقول. رأيتَه لا يريد تفجير نفسه في أي مكان ولا يصلح لذلك، ومع ذلك فقد انفجر الصاعق بين يديه.

رأيت لعلي زوجة سمراء بشفتين ممثلّنتين رطبتين وبنهدين نافرين وحلمتين متوفزتين. رأيت لها بستانا يطل على الصخرتين اللتين يسبح بينهما عليّ، تلتجئ فيه إلى الأجمات، حين يهّم

هو نحو الماء. رأيت أهلها يذهلهم أن يتجرأ الأعمى على طلب يدها، ثم يذهلهم أن تقطع على ذهلهم الطريق بموافقتها، ثم رأيت لعليّ ولدين أسمرين ورأيتها تملأ داره حياة ونشاطا. رأيت علي لا يسبح عاريا بعد أن دخل بستانها. لطالما أعانتي مرآة بغديدي على رؤية ما رأيت.

وهنا دفن المقاتل علي. رأيت علي يحترق مع زورقه في البحر. رأيتهم يطلون قطعة صاج بالأخضر ويدونون اسمه عليها ويعلقونها فوق باب مدرسة الضيعة. رأيت المقاتل علي قبل ثلاثة أيام من الحرب، ثم رأيت يتلاشى في النار. رأيت يوقف دراجته النارية عند أطراف الضيعة في منطقة البيضاة حيث نُصب الهاون اليتيم، يوقفها ويدعوني للركوب وراءه. رأيتني أشكره وأعود إلى حرتي ذات الغمد التي عاد بها جدّي من حرب الـ48 وإلى صخرتي الصغيرة البيضاء. رأيتني أصنع منها جنديا مقاتلا استعدادا للحرب القادمة. رأيت عيني المقاتل الحجر حزينتين ووجهه رقيقا لا يشبه وجوه الجنود المضلّعة. ورأيت الزمن يُرتشف والمسافات تطوى، فإذا بي في ساحة النصر ببلينينغراد أحصي على الجدران أيام حصارها التسعمائة وقتلاها التسعمائة ألف، ومن هناك أبتسم لمقاتلي الحجر الذي غادر البيضاة في غفلة مني. ورأيتني أنا علي جاد الصغير أطلق على جنديي اسم علي، رأيتني، قبل أن أطلقه إلى ساحة القتال، أنظر إلى المكان الذي وقفت فيه دراجة المقاتل علي قبل بضعة أيام يدعوني صاحبها إلى الركوب، رأيت امرأة تقف هناك وتخبرني باستشهاد عليّ

- ماذا تفعل عندك يا علي؟ رأيت ابنة الشيخ تسأل علي ابن جارنا العسكري، مستغربة تجرّوه على بيت معلّمه.

- أعلّق صور الرئيس، بُكرة فيه بالضيعة احتفال بمناسبة الحركة التصحيحية..

- رُح علقها على بيوت المجرمين والحرامية.. رأيتها تجيبه مستعدّة للموت

رأيتهم يلصقون الصور بالعجين. رأيت يد العروس خاوية من عجينة تلصقها فوق باب البيت، ورأيت أن كأس الشر ما زالت تكسره كل عروس. رأيت عجينة علي ابن العسكري طرية خلاف عجينة أبيه. أمرته ابنة الشيخ بصرامة أن ينزعها ففعل، وهو يضحك ضحكة بلهاء. رأيت لا يستوعب أن تأمره امرأة الأستاذ بنزع صورة بهذه القداسة. رأيت ابنة الشيخ ترى في العمود أيضاً عمود مرآة، ترى فيه ضلعاً في صليب مقدّس هو طريق إلى السماء.

ثم روى علي جاد الكبير أنّه رأى ابنة الشيخ يكاد نبض قلبها يفتت أضلاعها غضبا وخوفا وعجزا حين راح العسكر يطلقون النار ويفجّرون القنابل ويرعدون في الشوارع والأزقة والدور، ورآها تبحث كمثلنا نحن أبناء العم وفريق التحنانية عن طريقة للانتقام واستعادة هيبة الطين الأبيض المفقودة. ورأيت أمّي تبحث عني، ورأيتها لو علمت بمكان اجتماعنا لانضمت إلينا وأفادتنا بطريقة ما لتلقين هؤلاء العسكر درسا لا ينسى. رأيتني دائما أخاف أن تراني أمّي مقهورا

ولا ترى على وجهي آثار رد القهر عن نفسي. لم تكن تعني لها شيئاً قوة المعتدي. فمجابته بالنسبة لها، كانت على الدوام أهم من نتائجها.

وهنا، وبعد سنين، وعلى بعد قبرين من نافذة بوعلي جاد، دفن نبيل. لم يتقبل علي الكفيف فكرة أن يكون صديقه نبيل قد فجر نفسه بالديناميت. كان قد مضى على انفجار الصاعق في وجه علي سنوات، ولم تكن أمسيات علي تخلو إلا ما ندر من ضحكات نبيل. كان علي يعرف جيداً أن نبيل ليس غاوي موت، بل إن علي يستطيع بألف شكل وشكل أن يؤكد عشق صديقه للحياة.

كان بعض العسكر إلى ذلك الحين قد تغلغل في نسيج الأهلين، وبات بإمكانك أن تختبئ وراء البطانيات العسكرية على أسطح البيوت لمغازلة بنات الجيران، وفتح بعض نوافذ جسدك على الأجساد الصغيرة المتلهفة لكشف المخبوء. حين قتل نبيل كانت عسكرة البلاد قد قطعت أشواطاً بعيدة، وكان علي جاد في هزيعة الأخير يصنع مرايا لأيتام الأيام القادمة. وكنا قد انصرفنا عن قطع علي جاد إلى غيره. لم تعد للقطيع رائحة الأرض والعشب. رائحة الدم طغت على كل شيء. وكان علي خضيرة وتاريخو قد صاروا ضابطين صغيرين في الجيش. في ذلك الليل سمع صوت انفجار ديناميت في الحاكرة ورفعت أشلاء نبيل من هناك. ولكن من أين جاءت تلك الرصاصة التي اجتاحت صداها الحواكير والبساتين إلى شبابيك الأهلين المشرعة على نسائم صيف عليّة في ليل قانظ قبل الانفجار؟ سجّلت في محضر الشرطة حادثة انتحار أخرى وأعلن المشايخ الرحمة في مكان واللجنة في مكان آخر محرّجين، إلا الشيخ بوعلي مروان فبدت أذناه في ذلك اليوم أطول من العادة وبدا لسانه أقصر من أن يتسع لفاتحة.

لم يذهب أحد لضرب المندل أو لتتبع سر مقتل نبيل بطريقة ما سواي والشيخ وتوس وعلي الكفيف، فقد لجأنا إلى عتمة بيت الشيخ بوعلي جاد: نبيل لم ينتحر، فهلا كشفت لنا سر موته يا علي! كان بوعلي قد مات ودفن تحت الشباك. ابتسم علي ابتسامته الجميلة الوادعة تلك، قائلاً: ما عادت مرايا بغديدي تكشف شيئاً، لقد انسدت دونها الآفاق!

عدنا إلى دارنا. اتكأت قبيل الدخول على ذلك العمود الذي طالما تسلّقتّه صعوداً إلى السطح ونزولاً عنه. رأيت عمود بيتنا نظيفاً دائماً، خلاف أعمدة الجيران التي ألصقت عليها صور الرئيس. ورأيت سور دارنا وجدران بيتنا الرمادية خالية من صور الأحياء والأموات. رمادية لأنّه لون الإسمنت. كان أبي مديراً للمدرسة الابتدائية التي يجتمع فيها شباب الثورة وبعثيوها ولجان التطويق في سرايا الدفاع والمخابرات العسكرية. رأيت المعلم في جبل الصنوبر يجهد في حفر كهف يتسع للنساء والأطفال لاجئي الحرب القادمة. رأيت يقرأ الصخر، يقرأ الحرب ويقرأ الكهف، بعد أن كان كفر بقراءة الحرف. رأيت مغارة ترسلان تضيق عن استيعاب أهل الضيعة الهاربين

من بيوتهم في حرب الستة الأيام. رأيت الحروب السابقة كلّها حروبا خاسرة لا تشفي الغليل، والكهوف السابقة كلها كهوفا ضيقة لا تتسع للهاربين. رأى ذلك أبي، ورأيته يجمع النصر مع الهروب. الحرب التي رآها لم تأت. لم يكن ما رآه حرب تشرين. رأيت ابن أخيه يعود منها بثلاث دبابات مدمّرات.. رأيته يغادر الدبابة الثالثة قبل أن تنفجر فيه، يغادر الحرب إلى غير رجعة. رأيته يطلق على يده النار ويصير إلى مقاتلٍ قَلَمٍ في سرايا الدفاع. رأيت كثيرا من الشباب من سرايا الدفاع يملؤون الشوارع ويبد كل منهم آلة تسجيل كبيرة. رأيتهم يشتررون المسجّلات المهرّبة من لبنان وأشرطة لإبراهيم صقر وفؤاد فقرو وصالح رمضان، ورأيتهم في حالات أندر يشتررون لسميرة توفيق وأندر من ذلك لنجاح سلام. ورأيتهم يعرضون عن فيروز. رأيت فيروز، في ضيعتنا، شأنا مدنيا. أسعدني ما رأيت. رأيت المسجلات تلازم هؤلاء المقاتلين إلى درجة أنني ظننتها سلاحهم الفردي.

وقبيل الحرب، رأيت ابنة الشيخ أمي تخلي أرضية الخزانة الوحيدة في بيتنا من ملابس أبي المعلم وملابسها وملابسنا نحن الصغار ومزقنا. رأيت رجالا من الجيش الشعبي يأتون إلى دار المعلم دون أن يلقوا بالا إلى تساؤلات ابنة الشيخ، ويضعون في الخزانة صندوقا من قذائف الهاون، ويسلمون المعلم مسدسا رشاشا (ساموبال). رأيتهم ينقلون إلى الضيعة المدفع الهاون الوحيد وينصبونه بانتظار الإسرائيليين. رأيتهم لا يجدون مكانا أفضل من خزانة ملابس معلم المدرسة لحفظ قذائف الهاون. ربما لحسن ظنّهم بإسرائيل! فلعلّهم فكّروا بأن إسرائيل لن تطلق النار على بيت معلم. لكنها تفعل ما هو أبشع من ذلك بكثير. رأيت هناك في الخزانة مصحفاً كبيراً، رأيتهم في بيت المعلم يضعونه قرب مخدّة المريض منهم قبل أن ينام. رأيتنا نستخدمه للشقيقة وآلام المغص والروماتيزم ونوبات الوجع الناجمة عن التهاب الأضراس ولقفر الدم ونوبات الرمل والبحص وأحيانا للوقاية من شرور الجيران.

رأيت لدى جيراننا مصحفا كبيرا أيضاً، ورأيت جارنا بوعلي سلمى يقرأ القرآن بصوت مرتفع من على شرفة بيته. رأيته يفعل ذلك نكاية بغيره ممن يقرؤون، كأثه يقصفهم بالسور والآيات. رأيت شيئا في قراءته للقرآن يجلب لنا الشر. ورأيتنا ننام أوطأ من قدميه بثلاثة أمتار على الأقل. رأيته يسيطر على طريقنا إلى السماء فيقطع طريق صلوات ابنة الشيخ وابن سكييا لتعود وتهطل على شجرة السرو الوحيدة التي رأيت نفسها في وحدتها غابة فلم تترك للشمس طريقا إلى أرض الدار. رأيت مئات عصافير الدوري تفرّ من شجرة السرو في عتمة المساء. رأيت قطة جارنا تساعد سيدها فتنسلق جذع شجرة السرو خلسة إلى غرفة نوم العصافير، فإذا بريش يتطاير على موجات صوت الرجل المهيم على المكان.

كان علي جاد في ذلك اليوم قد غرز قائمة مرآته التي أنجزها للتو في تراب السفح وغادر مع خرافه في سباق مع الظلام الزاحف من عمق الوادي نحو ضيقتنا التي لم تلح أضواء فوانيسها بعد. أخبرني علي بأنه رأى ريشا كثيرا يتطاير من شجرة السرو، ورأى أنّ أحدا من بيت المعلّم ابن سكيبا لم يخرج لنجدة العصافير، ورأى المعلّم وابنة الشيخ يأمران الصغار بالالتحاف، ورأى المعلّم لا يخرج إلى الخمارة في ذلك المساء، ورآه يصبّ لي جرعة صغيرة من عرق التين ويمد الكأس نحوي مبتسماً. ثم رأنا نشرب وتبادل الصمت ونرسم الابتسامات اليائسة الصفراء، ورأى المعلّم، كثيرا ما رآه، يرسم صورا لكائنات ليس كمثلها على الأرض. ثم رأى صوتا عسكريا يهدر بالعتابا من المسجلة السوداء العملاقة الموجهة صوب شجرة السرو، ثم رآه مع الكأس الثالثة يطلق من مسدسه البراوننج النار بين موال وآخر في الهواء مشيعا رصاصاته بصيحات انتشاء، هو الرجل الخارج من معسكره إلينا نحن الصغار الملتجئين بهيبة المعلّم التي راحت تتبدد عاما بعد عام.

كوفية في الطريق

التمعت عينا نسيبة وراحت صاحبتهما تعلق وتهبط، متقافزة على مشطي قدميها، مصغية إلى المهمة الموكلة إليها

: بسرعة، شوفي إذا كان هناك عسكر أو سيارات أو أي أحد ناظر على الطريق العام من جهة الكاديك أو من جهة الخندق.

انطلقت نسيبة ركضاً قبل سماعها الكلمات الأخيرة. بدا عليها أنها تريد كسب فسحة من الوقت لتنفيذ شيء بينته لنفسها غير الذي كلفت به. كانت دار بوعلي والد نسيبة تبعد عن مكان الاجتماع في جورة الأعور بضع عشرات من الأمتار منحرفة عن خط سير نسيبة المرسوم نحو الشرق، محتجبة وراء ثلاث أشجار توت عملاقة وصنوبرة تظلل الدرب الذي يتسع لحمار بخرج ملآن ورجل وامرأته. وكان يمكن لنسيبة، لو شاءت، اتباع الأخدود الذي حفرته مياه الشتاء خلف الوهدة التي تفصل جورة الأعور عن الضيعة والانحراف نحو البيت دون أن يراها أحد منا نحن المجتمعين في جورة الأعور. اختفت نسيبة وراء الوهدة. وكان القط قبيل انطلاقها قد أرسل في مهمة تنصت. كان عليه قطع مسافة تزيد عن ضعفي المسافة التي على نسيبة قطعها.

قبل انطلاقها، أخذت نسيبة كوفية أحد لاعبي فريق التحتانية وتلثمت بها. كان يكفي في ضيعتنا أن تلثم بالكوفية الفلسطينية كي تشعر بنفسك فدائياً وتتطلق بحثاً عن يهودي احتل أرضك في مكان ما قريب. كان لهذا الشعور حضور قوي خاصة في الصيف، وأما في الشتاء فما أكثر من يدروون البرد عن رؤوسهم ووجوههم بعرفاتكا كما يسميها الروس، نسبة إلى عرفات. كانت نسيبة تتشوق للإيقاع بعدوها في حفرة غضبها الطفولي، ولم تكن تحتاج لكي تغدو فدائية إلى أكثر من بوط، من تلك الأباط القماشية الخضراء التي كان يرتديها الفدائيون في جبل الشيخ خليل وفي موقع ميناء برج إسلام قبل أن يُعجن التراب بدمهم ويجبل مع لحمهم، بعد قصف من طائرات إسرائيلية لم يقاومها أحد سوى عمي صديق، وكان سكران، بإصبع ديناميت ألقاه في الهواء وبرشقة شتائم على الإسرائيليين وعلى آخرين أقرب منهم دما وترابا.

كانت نسيبة تعرف عدوها جيدا. ولكن، لماذا يخبيئ الفدائيون وجوههم؟ وهل تحتاج مواجهة العدو إلى إخفاء الوجه أم إلى الإسفار عن تكشيرة غضب وانتقام؟ حين تلثمت نسيبة قبيل انطلاقها إلى عدوها كانت تخفي وجهها عن عيون الأقربين وليس الأبعدين، خشية أن يحول

الأندال بينها وبين لحظة المواجهة. وأمّا حين تأزف الأخيرة فالوجه يقاتل كما يقاتل الذراع. وما أكثر الوشاة حين يكون العدو قريبا! فهل لرياضيات القرب والبعد معنى هنا، أم أنّ المسألة كلّها في اللفظ، بين أن تكون واشيا، الأمر الذي يحتمل أن تكون بطلا وطنيا، وأن تكون جاسوسا خائنا؟ بما لا يترك مجالا لتأويل أو اجتهاد.

حين يكون العدو هو نفسه الأخ والقريب والصديق، عليك أن تفتش عن واش في كل من يلقي عليك السلام. كل أحد يمكن أن يصير إلى عدو في لحظة ما، وليس بالضرورة لفعلٍ يقوم به، إنما لفعل يقوم به غيره، أو لمعادلة يضعها سواه. في علاقات القربى يمكن للمرء أن يكون عدوا لدودا وابن عم حميم في آن، وفي السياسة التي تقوم على الدم، كل شخص عدو وصديق وفقا للحاجة إلى عداوته أو صداقته. ولسبب ما، تبدو ردود الأفعال دائما مسوغة. فالألعاب كلّها تقوم على لحظة بدء، ثم تتالى سلاسل الأفعال وردود الأفعال. لكن، في رياضيات العداوة، الفعل الأول وحده هو الفعل وكل ما عداه ردود أفعال. الأمر يحتاج إلى لحظة قطع مع زمن ما، مع شيء ما، يحتاج إلى إغماض العين عن تفاصيل وفتحها على تفاصيل أخرى، وإلا يكون القطع مستحيلا. وبعدها ينبجس زمن العداة أو ينساب زمن الود.

مع حضور الأبواب الثقيلة تمحّى التفاصيل وتسقط الرياضيات. يصبح واحد زائد واحد يساوي اثنين رغما عن كل شيء، حتى لو كان الأول بقرة والثاني عمود كهرباء. في العداوة درجة عالية من التجريد، معها يمكن جمع الأشياء كلها، الدابة والشجرة والحجر والمرأة والرجل والطفل. والعسكر كلّهم سواء. ولا قيمة لإقامة الفروق.

الصداقة تحتمل الفروق على أوسع مدى، أمّا العداة فلا. في العداة درجة قصوى من التجريد تجمع الأشياء كلّها والبشر كلّهم في كلمة واحدة. لم تخرج البشرية من سوية التجريد العالي إلى سوية أدنى منها إلا بعد أن ذاقت ويلات الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث كان كل شيء يساوي كل شيء لمجرد أنه يقع في أرض العدو، بل في أرض عدوة. وأمّا حين تصبح الأرض نفسها عدوة فيصبح قتل الأرض وما عليها جائزا. ذلك هو منطق العداوة الرياضي.

عداوة ما بعد الوحشية لا تحتمل إقامة الفروق، فهل تحتمل الوشاية إقامة مثل هذه الفروق، نفسها، كأن يكون أحد الوشاة جيّدا وآخر سيئا؟ الجودة والسوء هنا في نوعية الوشاية ودرجتها! ليس أفضل اللصوص هو ألصّهم، وأفضل القتلة هو أكثرهم قتلا؟!

في زمن السلم يمكن للمرء أن يروّج عن كربه بلعبة التصنيفات هذه، جاعلا لنفسه، وربما من الشخص نفسه، صديقا في مكان ومسامرا في مكان آخر وغريما في ثالث، وأمّا في زمن الحرب فماياكوفسكي وغوركي وسيمونوف أسياد المكان. (من ليس معنا فهو ضدنا)، و(إذا لم يستسلم العدو يسحق)، و(اقتله!). وكل من لا يشي لنا، يشي بنا لغيرنا، وكل من سوانا عدو. بيد أن هذه

المحاكمات كلها كانت تختصرها نسيبة بضرورة إخفاء وجهها وهي في طريقها إلى تنفيذ عمليتها الفدائية الأولى. أليست مقاومة الظلم هنا أساسا لمقاومته هناك!

فيما مضى كانت نسيبة تركض حافية القدمين، تقفز بين حجر ناتي وآخر، بين نبتة شائكة وأخرى، غير أبهة بالحصيات الصغيرة، لكن شمعون مدرّب فريق التحتانية ألزمها بارتداء الحذاء. كان حذاؤها في البداية من مطاط أسود مبطن بطبقة رقيقة من القماش الخشن، وكان لا يصلح إلا للخوض في الروث أو في وحل قنوات الصرف المنفتحة على الزوايب غير المعبّدة. كان الحذاء يعيق نسيبة عن الجري، فخلعته وألقت به بين شجيرات الشوك متبوعا بصلية من الشتائم، قذفتها في وجه الفقر ممثلا بشمعون. أصرت نسيبة على اللعب حافية القدمين إلى أن سحق خنصر قدمها اليمنى لآعب جلف لم ينتبه إلى الطفلة في وجهها الأسمر الصغير. بعد ذلك تدبّر الفريق خطة لجمع النقود تقضي بجمعها من المزارات وبيوت المشايخ الميسورين وبيت صاحب البوسطة الوحيدة التي كانت تشتغل على خط اللاذقية- عين الغار، وبيت صاحب معصرة الزيتون، وأمّا كيف جمعوها فسئرى على الأقل مثلا عن ذلك حدث في بيت المختار، بعد أن نتابع نسيبة التي لبست بوطا صينيا أبيض رسم عليه خطاط الفريق بطلاء أحمر سرقة من معصرة الزيتون علامة فارقة تدلّ على طبيعة الفريق، لبسته وانطلقت ملثّمة إلى غايتها.

كان الطلاء الأحمر يستخدم في المعصرة لتعليم أكياس الزيتون، بأحرف أحيانا ويرمز في أحيان أخرى وبأسماء في ثالثة. كان خطاط المعصرة ومنظم الدور فيها يرسم، مثلا، على أكياس ممرض عين الغار الذي أقران ابنه يلقبونه بـ(بوطياز) تأكيدا على كثرة ما رأى أبوه من مؤخرات، كان الخطاط يرسم على أكياس بوطياز محققا بدلا من كتابة الاسم، وكان يرسم على أكياس بوعلی مروان بالأرقام الهندية ثمانية وثمانين، تتناول فيها كل ثمانية أكثر مما ينبغي لعدد حتى تغدو أشبه بإذن حمار، وأمّا أكياس الهدهد، وستعلمون من هو الهدهد عمّا قريب، فكان يرسم عليها ما يشبه المكنسة، يرسم شكلا إن شئت رأيت فيه مكنسة بذراع طويل، وإن شئت رأيت جذع زيتونة قطع تاجها وشلعت مع جذورها. وكان حين يأتي دور الأكياس للعصر يصيح باسم صاحبها مقهقها، بانتظار أن يسأله أحد ما عن طريقته في الحساب وتحديد المالكين.

رسم خطاط الفريق شكلا يختصر اسم فريق التحتانية ويؤكد طبيعته بما يفيض عن كرة القدم. رسم على بوط نسيبة، كما على غيره من الأبواط، خطا أفقيا ورسم تحته.. ستقولون لي كرة أو دائرة.. لا، إنّما هو رسم شمسا. بدا الرسم أشبه بشمس تحت خط الأفق بانتظار الشروق. وحين سأله شمعون عمّا يقصده من هذا الرسم؟ أجابه: صحيح، نحن فريق التحتانية ولكن أحدا

لا يستطيع أن يتجاهلنا. صمت أعضاء الفريق فيما راحت الأبواب تتزيّن بالرمز الأحمر، وراح كل منهم يقرأ الرمز على طريقته.

في طريقها عرّجت نسيبة على دار أهلها، ولكنها لم تأته من بابه، إنّما النقت من جهة الخلف، ولطت بداية خلف السور الواطئ لتختلس النظر من بين شجيرات الرمان وتتأكد ما إذا كان والداها كعادتهما يزاولان عمليهما تحت أشجار التوت أم لا. رأتهما. كانت أمها تزيل القشر عن كومة من حبات الجوز، وكان أبوها يرفو شبكة الصيد العتيقة التي لديه. لم يكن يستخدم هذه الشبكة إلا لاصطياد السلطاني، وكان ذلك هواية قياسا بصيده للأسماك الأخرى بالديناميت. كان بوعلي، وعلي ولده الثاني من شيوخ عائلة الصيادين بالديناميت، وليس لكبر سنّه إنّما لمهارته. كان يحكى عن أعماق كبيرة يغوص إليها، وأسماك كبيرة يصارعها بعد أن يكون انفجار الديناميت قد دوّخها وأسماك قرش يسابقها إلى الأسماك القليلة وحكايات أخرى لم تكن تخلو من المبالغة. كان جميل هو الابن البكر لهذه العائلة، ولكنّه لفعة مذمومة قام بها، أصرّ أبوه على أن ينسب إلى ابنه الثاني، وهكذا صار من بوجميل إلى بوعلي. كان جميل قد أغوى امرأة عمّه، ومن النسوة من يقول بل هي التي أغوته، وبعد قيل وقال، هرب وإياها إلى مكان ما في الشام أو في لبنان! كان العم من أولئك الرجال الذين يقال فيهم (ولكن!). يتحدثون عن الصحة وقوة البنية فيقولون: ولكنّه آدمي!، وعن الحضور وقوة الشخصية فيقولون: ولكنّه آدمي!، وعن الحيلة وتدبّر أمور الحياة فيقولون: ولكنّه آدمي! ولم يفعل هذا الآدمي شيئا سوى أنّه أودع سحنته الحزينة بيت أخيه الذي صار ينادى ببوعلي، جعلها هناك في كل مكان وكل حين بانتظار أن تفعل السحنة فعلها فإذا بالأخ يتدبر حيلة لإعادة زوجة أخيه. لكن الرجل تبرا من ابنه، ولم يفعل شيئا لأخيه سوى أنّه راح يصطحبه معه إلى الصيد، وهناك يكتر من قول: كان الله في عوني! وحين يلاحظ أن أخيه يصغي إليه، يعدّلها نحو: كان الله في عوننا يا أخي!

كان بوعلي وزوجته منمكين في عملهما ولا يبدو عليهما أن رياح الاجتياح قد أفلقت سكينتهما. كانت أختا نسيبة الصغريان تلعبان بحبات الجوز المقشورة بالقرب منهما، وكانت الأم تكسر لهما بين الحين والآخر جوزة وتلقمهما لّبها الطري اللذيذ. كنت أعتقد فيما مضى أنّ على الكاتب أن يترك للقارئ مسألة أن يكون الشيء الذي يتحدث عنه لذيذا أو لا يكون كذلك، لكنني ما إن راود الجوز ذهني حتى سال لعابي، فما الذي يمنعني من التصريح بحبي له؟ احتمال ألا يحبه الآخرون، وبالتالي محاولة إرضائهم!! كان الاستمتاع بطعم الجوز يبدو واضحا على أصابع أيديهما الممدودة دوما نحو الأم. كان علي يخدم الإلزامية في مكان ما، وكان حين يأتي يشكو لنسيبة سوء تعامل الضباط معه، كان يحكى لها كيف يسرقون لقمته هناك، وكيف يبيعون الإجازات، وكيف أنّه يضطر إلى الهرب حين يقهره الشوق إلى أهله، فليس لديه ما يدفعه لقاء

إجازة قصيرة. وكانت نسيبة تعرف أنّ علياء حبيبته مشمولة بتعبير الأهل، وأنه إنما يأتي شوقاً إليها. لم يكن علي قبل خدمته الإلزامية يكره العسكر.

رأت نسيبة الفرصة مواتية لتتسلل إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تعيش فيها البقرة كحلا قبل فوقها، الغرفة التي يخبئ فيها بوعلي عدة الصيد اليوم. دخلت نسيبة بخفة ودراية وفتحت الصندوق. كان فيه من أصابع الديناميت ما يفي برغبتها. لقت نسيبة أصابع الديناميت التي استلّتها من الصندوق بخرقة عتيقة منشأة بعرق بوعلي الجاف، ويمكننا القول وبعرق بوجميل أيضاً، فالعرق هنا عهد.. وانسلت من الدار كما دخلتها، دون أن يشعر أحد بذلك. وكعادة القرويين، راحت نسيبة تتفحص الحجارة في طريقها إلى الكاديك. لم يعجب نسيبة حذاؤها الرياضي كما أعجبها اليوم، ولم تمتدحه من قبل كما فعلت وهي تسابق أنفاس الضابط إلى أمر الهجوم. وفي طريقها إلى الكاديك، رأت نسيبة حركة مريبة في دار بوعلي مروان، فتوقفت لبرهة ثم حزمت أمرها واتجهت إلى هناك. رأت نسيبة علي بن مروان فحق قلبها فأسكنته، ثم رأت الشيخ الهدهد يتفق معه على أمر ما. بدا لنسيبة أنّ ما يدور هناك يستحق المغامرة. تلفتت حولها ثم ركزت نظرها على المسافة التي تفصلها عن سور البيت، المسافة التي عليها قطعها دون تردد ويلمح البصر إن أمكن. وفيما كانت عينا نسيبة تتفحصان التراب الذي يفصلها عن الدار، سبقتها رجلاها إلى الجدار، وهناك لطت. وهناك أصغت، وتمنت لو أن علي لا يذهب مع الشيخ الهدهد، ثم حين ذهب وإياه شعرت بالقهر ثم بالعجز ثم بالغضب. نظرت نسيبة إلى أصابع الديناميت. لم تكن قد فكرت حين أخذتها بما يمكن أن تفعل بها. لم تكن قد خطت لأي شيء. أخذت الديناميت دون كبسول! كان جو الاجتماع في جورة الأعور قد وضعها في حالة حرب. العسكر، مسلحين بالرشاشات في مقبرة بيت بومسعود، ينتظرون أمر الهجوم، والشباب في جورة الأعور ينبشون ذواكرهم بحثاً عن سكاكين وهراوات، وإذا برائحة الديناميت تملأ أنفها، وإذا بها تتجه إلى غرفة كحلا التي ماتت دون رائحتها، كأنما هي روح تعشقت حجارة الجدران. وفي اللحظة المناسبة، من مكان يبعد عن كحلا مسافة جديدة ریح، انسلت نسيبة من مخبئها ودخلت دار بوعلي مروان يتقدمها ديناميتها بعدة سنتيمترات. في رماد الأثنية طمرت ديناميتها وخرجت مسرعة باتجاه الكاديك. كان بوعلي مروان يجادل المختار بأمر ما لم تلتقطه أذناها الصاخبتان بضربات قلبها الذي راح ينبح كمثّل جرو صغير مستثار. كان رماد الأثنية باردا لا يزال. وأثناء عدوها في الدرب المؤدية إلى الكاديك تنهاى إليها صوت دراجة علي بن مروان عائدة إلى البيت. شعرت بالخوف والقلق. أغمضت عينيها على خوفها وللحظات نسيت لماذا هي هنا. نسيت المهمة الموكلة إليها. إلى أين عليها أن تتجه الآن؟ ولما كان عليها أن تتابع طريقها فإلى أين وإلى متى؟ شعرت كأن شيئاً ما تجهله مسح ذاكرتها.

القلق يمسح الذاكرة والخوف يفعل ذلك! يختبر العلماء تأثيره على الفئران، يختبرونه على حيوانات أخرى، لكنّ أحدا لا يدرس تأثيره فينا، ربما لانعدام إمكانية المقارنة، لأننا لا نعرف حالة سواه، ولا نعرف بغيره! فنحن لا نعرف أنفسنا ولا أحد يعرف كيف نحن نكون بلا خوف أو خارج الخوف. أمّا أن نُقارَنَ بأناس آخرين فأمر لا يلجأ إليه العلماء رافة بنا. كيف نكون بلا خوف؟ سؤال لا يكفي أن ننظر في المرآة للإجابة عنه! راحت نسبية تسأل نفسها عمّا إذا كانت قد رأت أحدا أو رآها أحد في درب الكاديك: لا، لا، لم ألتق بأحد، ولم أر شيئا! قالت نسبية في نفسها، وقفلت راجعة إلى جورة الأعور.

خروج الأقدام الحافية

حين قرّر مدرب فريق التحنانية اقتناء أحذية للاعبيه تصلح للملاعب الوعرة وللتغلب على حراثة المختار المتكررة لأرض الملعب، رأى اللاعبون أن المختار يجب أن يدفع الحصة الأكبر من الثمن، ليس فقط لأنه وكيل الإقطاعيين الجدد في الضيعة بل ولأنه عدو الرياضة الأول. فما كان التحنانيون يسوون أرضاً من الأراضي البور المهجورة وينصبون أخشابهم على طرفيها إلا ويرسل من يحرقها، إن لم يكن في اليوم التالي ففي الأسبوع التالي على أبعد تقدير. كان يخشى أن يحتل هؤلاء الشراشيح-هكذا كان يسميهم نسبة إلى فقر أهلهم وقلة شأنهم- الأرض فلا يخرجون منها، كما يفعل العسكر الذين يرعى أرزاقهم، وكان يقطع لنفسه ما يعلمون وما لا يعلمون من أراضي أملاك الدولة التي يرشدهم إلى وجودها هنا وهناك، ومن عمولات بيع أراضي المعوزين التي يعرفها المختار جيداً ويعرف حاجة أصحابها واضطرارهم إلى بيعها ولو بقروش. رأى التحنانيون أن على المختار أن يدفع أكبر الأثمان الممكنة، ولكنهم لم يقرروا طريقة التحصيل بعد. وأمّا جورة الأعور التي رسا عليها أخيراً الفريق، فكانت لو وزّعت ملكيتها على ورثتها لما نال الواحد منهم أكثر من عشرة الأمتار المربعة، ناهيك بأن عائلة ملاك النتف هؤلاء على عداوة مع عائلة المختار. لذلك غض المختار النظر عن حلول الفريق عليها، دون أن يفوته تهديدهم بين الحين والآخر، هكذا من أجل توكيد سلطته، بطردهم منها. كان الجميع يعلم أنّ سلطة المختار ليست مستمدة من المختارية بحد ذاتها، إنّما من منبع الكلمة الذي صيّره مختاراً. يوماً اتصلت قريبة الرئيس وقالت: "يا خال، حطّوه مختار، الزلمي آدمي وكيس، لا تخلّوني أزعل منكم الله يرضى عليكم"، فصار الرجل مختاراً وعرف كيف يدير شؤون الإقطاعيين الجدد. كان المختار يدرك بغريزته بأنّ هؤلاء الفقراء الشراشيح سيصبحون أعداء له من اليوم الذي يتبوأ فيه منصبه الجديد. ولم تخذله غريزته، فقد بات يرى في عيونهم تحدياً يخيفه واستهزاء بسلطته، خلاف آبائهم الذين كان يكفي نشر خبر اتصال قريبة الرئيس لتبركهم به، وكان يكفي لاستمرار هذا التبرك الأمسيات التي يقضيها بلعب الورق في الفيلات المنصوبة في مزارع الإقطاعيين الجدد، على مقربة من السيارات السود المظلمة وكلاب الحراسة.

وهكذا بات المختار هدفا دسما للشراشيح التحتانيين، الذين كان مدرّبهم شمعون، يدرك، بخلاف المختار مغزى هذه التسمية ويدرك أهمية تأجيج العداء الحقيقي مع أصحاب الأطيان والقصور وحرّاسهم الصغار.

في لحظات من الحماسة التي لا تؤمن بالموت ولا بما بعد الموت، كان يخيل لشمعون أنّه لن يستسلم حتى لعزرائيل، وكان يكره عزرائيل كرها شديدا لطاعته العمياء وقبضه أرواح الفقراء. ولم يكن شمعون يرى سببا للإيمان إلاّ الخوف، فالخوف هو الدافع الوحيد للإيمان. الإنسان يؤمن لأنه يخاف الموت. يقولون له أنت محكوم بالإعدام مع وقف التنفيذ إلى حين، فيدخل المسكين في مساومة خاسرة من أجل إبعاد لحظة تنفيذ الحكم، والتلطف به. كان الخوف عدو شمعون الأول، ولم يكن تحدّي شمعون للخوف، ولم تكن جرّاته التي يببالغ في إظهارها إلا وجهها آخر لخوف متأصل فيه! كانت شجاعة شمعون الظاهرة تنطوي على خوف تأصل فيه جيلا عن جيل، كما كان ينطوي بحثه عن انتصارات صغيرة على انكسار مزمن كبير أمام كل قوي. ولم يكن أعضاء فريقه بعيدين عن هذه الحال. يخيل إليّ أن الهروب من الخوف والتعالى عليه يدفع أحيانا إلى جرأة يائسة، إلى تهوّر مميت. وأمّا وعي الخوف والإقرار به فقد يدفع إلى مواجهة رصينة مديدة معه.

ويا للمفارقة فإن الخوف من الموت يدفع كثيرين إلى استعجاله. فما أكثر من ينتحرون خوفا من الموت، وما أكثر من يفقدون شخصياتهم ويغدون أشبه بجنث حية جرّاء استسلامهم لسلطان الخوف. الاختبار النهائي لمن يمارسون مواجهة مديدة راسخة مع الخوف، الاختبار الذي يجعلهم يحسمون أمرهم في أن يقدموا على خطوة أو يحجموا عنها، أن يقولوا أو يلتزموا الصمت.. هو اختبار الخوف. إذا تبيّن أنّ التردد بفعل أمر ما أو التلكؤ بقول ما يعود إلى الخوف، قالوا وفعلوا. ولطالما حاول شمعون أن يخضع نفسه لهذا الاختبار، وكثيرا ما كان يفشل. وفي فشله كما في نجاحه كان الخوف سيّده وكان يوجّه تصرفاته كما يشاء. فأن نعيّن أنفسنا بالتضاد مع الشيء يعني أن نعيّن أنفسنا به، أن نستسلم له، أن نكونه فلا نكون أنفسنا. ولكن، هل لنا حقاً من الطبيعة شيء خاص بنا دون سوانا، شيء لا يتحدد بطبيعة الأشياء الأخرى!؟

وبخلاف أعضاء فريقه المراهقين، الذين كانت منازل العسكر بالنسبة إليهم لعبة ممتعة، كان شمعون يرى في العسكر وبالا حقيقيا على المجتمع طالما لا ينحصر دورهم في الدفاع عن البلاد. كانوا دائما مصدر رعبه. كان يرى فيهم قوما يتدربون على القتل وكثير منهم يحترفونه، قوما تقوم فكرة وجودهم على العداء القائم والمحتمل، ويرى أن السلاح الذي صنع ليوجّه إلى مكان ما، إن لم يوجه إلى العدو الحقيقي فإنّه سيوجّه إلى عدو وهمي، وإن التخلي عن مواجهة العدو الحقيقي تعني بالضرورة البحث عن عدو آخر أسهل منالا. كان شمعون يرى في نفسه

ورفاقه وجميع الفقراء والمسحوقين ومن يسميهم المختار وأسياهه بالشراشيح، أعداء يندرب العسكر من أجل القضاء عليهم، أمّا أولئك الذين يحتلون الأرض فشان آخر، وليس من أجل مقاومتهم ينتشر العسكر في كل مكان. وظيفة العسكر زرع الخوف هنا وليس هناك! هذا ما أدركه شمعون وهذا ما جعله يرى فيهم حراسا لسلطان الخوف الذي لا يطيق.

كان بيت المختار أشبه بدملة حمراء ذات رؤوس متعددة ناتئة. فعلى الرغم من تعدد أراضيه هنا وهناك، أصر المختار على البقاء في داره القديمة، في حارة أوسع دورها لم يكن يتسع لبقرتين وحمار مع ساكنيه، ولم تكن دار المختار أرحب من سواها. وأمّا ما يميّزها فكان الحجارة الرملية الحمراء التي بنيت منها، خلاف بيوت الجوار التي قدت حجارتها من صخور كلسية بيضاء. شيء آخر جعل لدار المختار حضورا خاصا هو أنّ جدرانها المائلة راحت ترتفع لتحجب الضوء عن الجيران، وغرفة شوهاء تعلو فيها غرفة شوهاء أخرى، كأن أصبعا حشرت فيها من أسفل فمالت بعنقها ألما ولذة، فاغرة فاها نحو الغرب. لسبب ما، أضاف المختار من الجهة الأخرى علية لو وقف فيها قابيل لما اتسعت لتلوحة يده القابضة على الحجر. كانت أشبه بمحرس وكان لها إضافة إلى بابها الضيق المنفتح على جدار، نافذة صغيرة تطل على صحن دار بيت سميرة لاعبة فريق التحتانية الأولى. كان بإمكان المختار أن يرى من نافذة هذه العلية سميرة وأختها وأمها كيفما تحركن. لم تكن رؤية الرجال القاطنين غرفة ينفتح بابها على الشارع مباشرة تعنيه في شيء. في هذه الغرفة كان ينام رب البيت وابنه البكر حين يعود في إجازة من معسكره في سرايا الدفاع، وأمّا الصغير فلم يكن يفارق حضن أمه. كان حتى عهد قريب رضيعا. ومع أنّ حلمتي أمه انغلقتا عن الحليب منذ عام ونيّف إلا أنّه كان يحشر رأسه بحثا عنهما بين حين وآخر فلا تبخل الأم بهما على صغيرها وهو على موعد مع إغفاءة طويلة.

النساء في الضيعة لم يكنّ يخفين أثناءهن أثناء الرضاعة. بعضهن تباها بالخصوبة وبعضهن الآخر استعراضا لأثدائهن الجميلة المكتنزة والبعض الثالث يرخي الكسل أيديهن عن إعادة الثديين إلى مكانهما أو ينصرفن عن ذلك لامبالاة بالعابرين وربّما استفزازا لهم واستهتارا بهم. كانت المرأة التي أدمن المختار التلصص عليها وعلى بناتها قد جمعت الحالات جميعها عبر سنواتها الطويلة مع الإرضاع. لم تكن من أولئك اللواتي يبذلن جهدا لإخفاء أثدائهن أثناء الإرضاع أو قبله وبعده، أو أفخاذهن أثناء الجلوس في صحن الدار وراء طشت الغسيل. وكان ذلك يمتع المختار أيّما إمتاع ويقيده إلى ذلك الشق الذي راح يتسع مرّة بعد مرّة في أخشاب نافذة العلية الصغيرة.

كان ابن المختار قد ضبط أباه في وضعية مخجلة، حين صعد السلم حافيا وفتح باب العلية فجأة. كان قد شمّ رائحة الصابون ورأى دخانا أبيض يتصاعد من دار الجيران، فطوى المسافة

إلى باب العلية بعدة قفزات ودفع الباب ناسيا هشاشة الخفاف الذي يحول دون انفتاحه. يومها حقد الإبن على أبيه. ففي تلك اللحظة اكتشف سبب صغر قضيبيته. كان وارثا لأبيه حتى في هذه الصفة اللعينة التي حالت بينه وبين التعري أمام أفرانه، مما جعلهم يسخرون منه، متوقعين صغر الدودة التي يخفيها في سرواله.

كانت سميرة قد رأت عينين تلمعان في شق تلك النافذة وأخبرت أمها بما رآته، فتظاهرت الأم بالغضب وأطلقت صلية شتائم باتجاه مخبأ العينين ولم تكن غافلة عنهما، فيما لسان حالها يقول (خله يموت فقع!). لم تكن الأم تفكر بالمختار ولم يكن يعنيه في شيء أن يستمني مستحضرا المزيد من عريها أم لا. ما كان يرضيها ويشعرها بشبابها، بل ويثيرها وهي ابنة الخامسة والأربعين أن يرغب فيها شاب في التاسعة عشرة من عمره، أن يشتهيها، ومن أجل ذلك لم تكن تدخر جهدا في إزالة الشعر عن مواضع مختلفة في جسدها وعن الدفع بثدييها نحو الأعلى، وكانت تتفنن في الانكشاف حيناً والاحتجاب حيناً آخر، غير غافلة عن أن العيون تتبدل هناك. لم يكن ينقصها الجنس بل كانت تتهرب بوسائل شتى من تحرّشات زوجها المستمرة بها. كان زوجها يصغرها بأربعة أعوام، ولم يكن عمله كحارس ليلي في معمل الإسمنت يستهلك من طاقته شيئا يذكر. لم يكن عمله يحتاج لأي جهد. فحتى الجولة التي كانت التعليمات الرسمية تقتضي القيام بها في محيط المعمل، كان يمكن الاستغناء عنها. فالسارقون عادة لا يأتون من الخارج ولا يخرجون من المعمل مشيا على الأقدام ولا المخربون يفعلون ذلك، ولذلك فضّل الرجل البقاء في محرسه والاستسلام لتصوراته عن عوالم أخرى غير التي يعيشها على الخروج إلى الظلام. كان العمال الهاربون من خطوط الإنتاج إلى محرسه، وكان كثير منهم فائضا عن الحاجة، كانوا يتحدثون، في استراحتهم المسروقة، عن المواضيع المثيرة في أجساد نسائهم وعن اشتهاهن الدائم لذلك الشيء الذي يتفننون بابتداع أسماء له، وعن عجزهم، هم العمال الذين يهدّهم التعب ويخفقهم الغبار عن إشباعهن، فيما هو يزداد رغبة في امرأته التي عرفت كيف تحافظ على شباب جسدها الأبيض. لم يكن يبخل بالحديث عن مفاتها، وكيف تتلوى وتتأوه حين يضاجعها، مراقبا الرغبة في عيون العمال الهاربين من خطوط الإنتاج إلى كأس المتة في محرسه الصغير. كان يثيره أن يشتهي الآخرون زوجته. ولم يكن واثقا من ردة فعله لو رأى أحدهم يضاجعها، فكثيرا ما رآهم في الحلم يفعلون ذلك. بل كان أحيانا يتخيّل الأكثر شبابا بينهم معها، مستحضرا أمكنة أكثر جمالا وراحة من بيته، متصورا كيف سيأتيها بعد أن يكون ذلك الغريب قد ارتوى منها وكيف سيسبغها حباً ويعيد إليها الرغبة والإثارة من جديد. حكى لها في ذروة إثارة كيف أنّه حدّثهم عن فرجها الرائع وكيف أنّه رأى اللعاب يسيل من أفواههم، وبعد ذلك انهار سد الكلام. راح يحكي لها كيف يتعرّى العمال وكيف يغتسلون واصفا لها قضيبيته هذا وذاك مبالغا في

الأحجام، وكيف أنهم ولا بد حين يمارسون العادة السرية يتصورنها بين أيديهم، وأتته واثق من أنهم يتمنون أثناء غيابه المجيء إليها، وأن ما يمنعهم هو خوفهم من رفضها وإثارة فضيحة. كان يتحدث عن أشياء وأشياء لم ير منها ولم يقل منها شيئاً. كان لا يشبه نفسه في مكان آخر. وفيما كان يثيرها حديثه، كانت تخشى أن يخفي قوله مصيدة لها، ما إن تقع فيها حتى تجد نفسها منبوذة إلى الشارع، فاكتفت بالتصورات، وكأن ما يأتي به إلى سريرها فيلم سينمائي يعرضه لإثارتها، واكتفت بعيني ابن المختار، واستبدلت بعضوه الصغير، الذي لم تره، ما وضعه زوجها لعامل غريب انتظرت أن يأتي يوماً به إلى سريرها فيعدّها من أجله ويداعبها فيما ذاك يشبعها فحولة، هذا ما قال لها إنّه يتمنى لو تقبل به، فيما كان يلعب محيط أذنها. لكن الغريب لم يأت وربما لم يكن له وجود. وأمّا هو، زوجها، فكان يشعر بالخجل والندم بعد كل جماع من هذا القبيل، معاهدا نفسه على الصمت في المرات القادمة. لكن الصمت لم يأت كما لم يأت رجاله المثيرون.

وفي لحظة ألفة، حكّت سميرة ابنة التحتانية لشمعون قصة علية المختار ولمّحت له عمّا تفعله أمّها. لم تكن الفتاة تدين أمّها، إنما هي لم تكن تفهمها. كان شمعون في الثانية والثلاثين من عمره، وكان يعرف كثيراً من حكايات نساء الضيعة، ولم تكن أم سميرة واحدة ممن تدور الحكايات حولهن. كانت أكثرهن شهرة زوجة الشرطي علي، حميروشة كما راح الأهلون يسمونها فيما بعد، نسبة إلى حميروش الذي ستعرفون قصتها معه عمّا قريب. تمنى شمعون لو يزور أم سميرة ويتفحصها عن قرب، وأثناء ذلك راح يتفحص ابنتها التي على مقربة منه، متخيلاً كيف ستكون حين تكتمل أنوثتها. أثناء ذلك قرّبها إليه ولقّها بذراعه وكانت قبلته الأولى على بعد مليمترات من شفيتها. في ذلك المساء أرجأ شمعون النظر في المرأة، ولكنه اليوم مع الحاجة إلى خطة لتحصيل الضريبة من المختار وأمثاله بما يكفي لتمويل ملابس الفريق وأحذيته وأشياء أخرى، لم يفصح عنها شمعون، رأى أن في الحكاية ما يمكن الاستفادة منه، فدعا سميرة إليه، وكان تدبّر الخطة.

كانت خطة شمعون تقتضي بأن تسرق سميرة ما تقع يدها عليه من مال أو ذهب في بيت المختار. وريثما تكون سميرة قد أنهت تفتيش بيت المختار وأخذت ما أخذته، نكون قد تعرّفنا على حميروش، وحكايته مع امرأة الشرطي التي صار اسمها حميروشة، ثم الأرملة الحمراء. فلدينا من الوقت ما يكفي للتعرف عليه قبل أن يُقتل.

صلاة الشكر

ورأيت ابن أخي يضيق عينيه قليلا وينظر على مستوى السور، رأيته يخيل إليه أنها غيمة بيضاء تتسلل خلف سور دارهم، متوارية عن أنظار ساكني الدار. هي عمامات بيضاء راحت تتعطف نحو دار بوعلي سلمى الجديد. كان بوعلي قد صار من مقاتل في الوحدات الخاصة إلى أمر لمحطة وقود عسكرية كبيرة، وكان قد بنى لنفسه دارا كبيرة على تلّ مطل على وادي الغار، ولابنه علي دارا بثلاث شرفات مفتوحة على الأقرع وعلى البحر وعلى لبنان، ورأيت أحد الكبار يأمر بوعلي بتقديم طلب تسريح من الجيش، فقد أن أوان استبدال آخر به، ورأيت بوعلي يكتشف أن الله هو الذي أوحى للرجل الكبير بصرفه من الخدمة في اللحظة المناسبة، رأيته يكتشف أن الرجل كان يمكن أن يراه في منامه نازلا من السماء على هيئة كبش، ورأيته يتحسس عنقه فرحا، شاكرا حامدا، معلنا لزوجته سلمى أن أن أوان تقديم الشكر لله. رأيت سرية من العمامات البيضاء تلحق بها سرية أخرى من الكوفيات السوداء والحمراء، فسرية ثالثة من معتمري البشاكير، رأيتهم إذ يسرون يجنحون معاً مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار كأنهم يجتنبون بركا موحلة في الطريق. ورأيتهم يلتفتون التفتاة رجل واحد في وسط طريقهم إلى أعلى اليمين كأنما يؤدون تحية عسكرية.

تتفيذا لإيعاز أمرهم، انحرف المشايخ بعد أن تلاشت غيمتهم خلف شجيرات الرمان الممتدة على طول شارع لا اسم له، انحرفوا باتجاه (البقجة) حيث كان الدخان الأبيض يتصاعد من تحت لحم الخراف.. ليس الإمام وحده بل وجميع المصلين كانوا يعلمون بأن الصلاة التي يؤدونها صلاة شكر لله لأنه أعمى قلب الدولة عن سرقات بوعلي سلمى. فقد أمضى سنوات كان يبيع فيها ما يلصّه من مخصصات الجيش من الوقود والزيوت المعدنية لحساب أحد ما من الكبار مقتطعا لنفسه حصّة، بدت كافية لبناء عدّة دور وشراء بساتين، دون أن يقع في أيديهم. الهاء والميم هنا لخنازير ما يمثلون الدولة، أو للدولة-الخنزير. كان الله قد أوحى له بضرورة تقديم طلب تسريح قبل أن يجري تفتيش بوقت قصير. ومع أنّ الآخرين تابعوا ما تركهم بوعلي دونه إلى ساعة مجيء التفتيش، فقد كان الله مشغولا بشيء ما عن الإيحاء لهم بضرورة الانسحاب، إلّا أنّهم بفضل من الله الذي سرعان ما عاد إليهم لم ينالوا من العقاب إلّا أقلّه. لم يكن ذلك كافيا لجعلهم يقيمون الصلاة، كمثّل صاحبهم، لمجد الله. عاقبوه على نسيانه لهم في لحظة ضيقهم:

نهر مال جارٍ يا عمّي، إذا امتنعت عنه أنا غرف منه غيري، هو سارح يا عمّي، يعني إذا راح ما له رجعة، وإذا شلنا منه أو تركناه رايح بلا رجعة، والله بارك بكل رجل يهتم بأولاده، يعني وبالأجيال القادمة.. وما همك أنت! لا زوجة ولا أولاد.. لو كان الأمر عليّ أنا ما كنت مددت يدي، ما حاجتي أنا؟ أنا، بصلة ورغيف خبز تكفيني، لكن لا يرضي الله، سبحانه وتعالى، أن نترك أولادنا للفقر ونفترج على نهر مال جارٍ ونتركه لغيرنا!! ردّ بوعلي سلمى بحماسة وخشوع، حين سأله، بحذر، عمّا إذا كان مال الدولة حلالاً أم حراماً، واحد من نقباء وحدته القتالية، واحد لا يغادر ثكنته لسبب بسيط هو أنّه لا مكان لديه يغادر إليه. ولم يكتف بوعلي سلمى بهذا القدر من الإجابة، بل وجدها فرصة لشرح فلسفته للنقيب الأبله الذي يناوب عن رفاقه دون مقابل، هم يغادرون إلى بيوتهم ويتنعمون بملذات الحياة وهو يبقى هنا بين الشوك والغبار والحمير والكلاب الشاردة: يا سيدي، كنّز الله خيرَه وأدام عزّه وأدامه فوق رؤوسنا إلى أبد الأبد، عرف حاجة هذا الشعب الفقير، يا عمّي شبعت الناس بعهدده وحسّت بإنسانيتها، والله لو قدّسناه وصلّينا له ليل نهار فسوف نبقي مقصرين بحقّه، أم أنّي غلطان يا سيادة النقيب. اضطر النقيب إلى الموافقة، لاعتنا الساعة التي طرح فيها سؤاله على المساعد: ثم، يا سيادة النقيب، ممكن لي أن أعرف حضرتك من أين؟ يعني، قصدي، أنا أعرف أنت من أين ومن هذا الشعب الفقير، الذي وحق عزّة لا إله إلا هو، لولا إرادته وشفاعته ورأفته بنا ما كان بعث لنا هذا الرجل العظيم ابن العظيم، الكريم ابن الكريم.. وحتنّ قلبه علينا، ولولا إرادته سبحانه وتعالى ما كانت السعودية كبت علينا كل هذا المال!! من أين عندنا كل هذا المال بسوريا، لولا السعودية والكويت وغيرها، وغيرها؟ لكن ما لهم فضل فيه، الفضل لسيادته، عرف كيف يحلبهم! ومن يا سيدي أحق بمال السعودية، أولادي وأولادك، الله ربّ اجعلني أشوفك متزوجاً وعندك أولاد، والله ما فيه أعز من الأولاد على القلب، لا الأب ولا الأم ولا الأخ، إي يا سيدي! قل لي من أحق أولادي أم أولاد الكلب الأمريكيان؟ بالله عليك أجيني!! أنت معي أم لست معي يا سيادة النقيب؟ ثم، يا سيدي، نحن أعرف بالدولة أم الدولة أعرف بحالها! طيّب، لو كان هذا الخير كلّ الذي تركت الدولة هذا الشعب الفقير يغرف منه، لو كان يؤثّر عليها هل كانت بقيت دولة إلى اليوم أم كانت خربت ونزلت إلى أسفل السافلين!؟ وها هي، الحمد لله بأعلى العليين، ومثلما عينك شايقة، ما فيه أحسن من بلدنا بالعالم، خير كثير، ورخص، وحرّية ومحبة وأمان.. هل قصّرنا، بدمتّك ولا أبيع ذمتك برخص، بحق هاكم الأولاد الكلب الأخوان المسلمين، الذين لولا قضينا عليهم لقضوا على البلد كله، فيه أهم من الأمان يا سيادة النقيب!؟ قل لي، يا سيادة النقيب، فيه مثل سوريا بالعالم كله؟ شعر النقيب برغبة شديدة في التبول، لكنّه خشي أن يقطع حديث المساعد مقدّراً ما يخفيه من تهديد مبطن، فأثر تحمّل ضغط مئانته على المغامرة بالانصراف عن استرسال محدّته المتوعّد

على طريقته: يا سيدي، وبفضل من سيادته وبعون من الله، نحن أقوى من كل العرب! في أحد واقف بوجه أمريكا وإسرائيل غيرنا؟ والله لولانا، ولولا صمودنا وتصدينا لكان الفلسطينيون باعوا قضيتهم بقشرة بصل، ولولا كُنّا مثل الشوكة بعين إسرائيل وجماعتها بالمنطقة من الأردن للسعودية ما كانوا حرّكوا لنا كلابهم الأخوان المسلمين، وتقول لي حرام!! أي حرام يا رجل؟! الحرام هو ألا نكون مثل القلب الواحد، الحرام هو ألا نفدي سيادة الرئيس بدمنا وأرواحنا، أدام الله عزّه أعطانا أكثر ما نستأهل، وكل واحد يخطر بباله ولو للحظة أن يكون ضدّه فهو من كل بد يكون ضد عزّة لا إله إلا هو، ويكون خائنا للوطن وشعب هذا الوطن، بل بالله العليّ القدير العظيم يكون خائنا لأمته ودينه!! أم أنا غلطان يا سيادة النقيب! ثم، يا ابن أخي، اسمح لي أن ناديك بابن أخي، فأنا أكبر منك، ما من أحد يأخذ غير نصيبه، لا تصدّق! وبالله وتالله، من أحقر البشر وأذلهم كل واحد يرفس النعمة، وأحقر منه الذي يخون أولياء نعمته.. يعني سبحانه وتعالى قال: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين! لا تهز رأسك، بالله أنا أعرف إنه قالها عنه عليه السلام، لكن، والله ما جاء، الله مولاي يرفع من شأنه، إلا رحمة لهؤلاء العالمين الفقيرين الجوعانين، من الذين أنت وأنا نكون، وجاءت رحمته معه، وكل الذي يأخذه عمّك يا عين عمّك بوعلي، وأنت تعرف مقدار حصته، إي بالله أنت تعرف، ملعقة صغيرة من بحر الرحمة، بالله وتالله، واحد من تجار الشام الكلاب عنده من المال بقدر كل الذي يمكن أن يجنيه ألف واحد مثلي ليوم الدين.. أوع، إياك! لا تقل الرحمة حرام يا سيادة النقيب، أعزك الله وهداك إلى سواء السبيل، بالله يا ابن أخي، مالهم هو الحرام، مال الغش والنصب والاحتيال.. أما أنا، فيا شحاري وفقر حالي، فمن أغش وعلى من أحتال، إقلع عيني باسم واحد غشيته بعمرى كلّه!! شفت أين الغلط، وأين العقاب الواجب وأين الرحمة والثواب؟! ثم، رُحّ واسأل بضيعتنا كم عائلة فقيرة ينالها من خير الله عن طريق عمّك بوعلي، بالله عليك يا ابن أخي، وأهلا وسهلا بك متى ما حبيت، رُحّ اسأل، والحكي لا يجوز لكن الحالة أجبرتني، يقولون لا يصح أن تعرف يدك اليسرى بما أعطت اليمنى، بالله فيه عائلات، من يوم كنت مساعد بأرزاق الجيش تموينها من برغل وحمص وعدس وزيت وسمن، يصل لها شهريا، وبالله، حتى بعدما نقلوني ما قطعهم شهر واحد، والله وخالتك أم علي حريصة أكثر منّي على هذا الشيء، فهي بالله تشتري من جيبتها تموين العائلات المستورة.. وما لك يمين عليّ، لو حسبت الحصة التي ننفقها على الفقراء لكانت أكبر من الزكاة الواجبة على مالي، يا سيدي بمرّة ونصف في أقل الإيمان، وتقول لي حرام!! الله لا يحب الظلم وأنت ظلمتني يا ابن أخي، لكن الله يسامحك وأنا من عندي قلبي أبيض ولا أحمل غلاً لأحد.. لا تؤاخذني انفعلت، لكن بالله، ابن آدم، يا آدمي، مجرد ما يشوف الغلط لا يحس بحاله إلا دفق كلامه وصار حكيه مثل حكي الشيخ، الله يرزقنا رضى المشايخ والمؤمنين، يا سيدي والمؤمنات

كرمى لعيونك الحزينة، بالله ما فيه أحلى من النسوان، المؤمنات يا سيدي والكافرات.. فما رأيك بكأس مئة على ذكرهن!!

لم يكذب بوعلي سلمى فيما قاله عن مؤونة العائلات، فمذ فُتح باب الرزق أمامه، راح يأتي بشاحنات محملة بأكياس البقول وعلب السمن وأشياء أخرى، وراح يوزع منها على أقربائه وعلى المعوزين، وراح دعاء من سدّ رمقهم الكريم، يتكاثف فوق بيته على هيئة غيمة في المساء وسحابة عند الصباح، وكان ذلك يحدث خاصة في الخريف المتأخر والربيع المبكر، وأكثر من ذلك في الشتاء. كان الدعاء يشملهم ويشمل أولياء نعمته، وكان الله ينال القسط الأكبر من الشكر، فهو الذي فتح أبواب الرزق أمام هذا الفقير إلى الله، العبد المؤمن، بوعلي، وهو أعلم بحالهم وحاله. وكان بو علي قبل ذلك، الحق أقول، من أفقر الناس. "الله العاطي!" راحوا يقولون، بعضهم حاسدا وبعضهم غابطا إياه. وأما من كان تشغله هموم يومه عن الدعاء لمن أعطاه فكان يصحو من غفلته مع سماع أزيز الرصاص المنطلق من على شرفة بيت بوعلي بعد الكأس الثانية أو الثالثة في المساء، ويقول: "بارك الله بك وأدام عزك وأغدق عليك رزقه ووهبك عفوه وحماك من عيون الحساد ومن نوايا أولاد الحرام، وأعلى الله من شأن من لولاه لما وجد الخير طريقه إليك وإلينا ولا كان لنا لسان يحكي ولا عين ترى إلا الحرمان!" ولكن، مهلكم.. مهلكم، فليس الجميع كانوا يفعلون ذلك، فقد كان هناك من يقول، متفحّصا العطية: "لعنك الله ولعن أسيادك الذين لا يتركون لنا لقمة حلال، أسيادك الذين لولاهم ولولا أمثالهم، ما اضطررنا إلى كل هذا الذل.. ولعن الله الفقر.. مولانا قال: لو كان الفقر رجلا لقاتلته وقتلته!! حلو، لكن كان الأحسن له ولنا لو أنه قال: لقاتلت أسبابه، لا بالله، بل كان أحسن وأحسن لو قال: لقاتت عيونهم مثلما فقأوا عيون هذه الدولة..!" وكانوا يقولون مما تمتنع الرواية عن ذكره. أجل، الرواية هي التي تمتنع معاندةً ضغط الواقع، والحق في ذلك معها.

وعلى ذكرهن، راح بوعلي سلمى يحكي لجليسه عن صبايا عين الغار الجميلات، عن ارتيادهن العين وكور بينار عصرا لجلب الماء البارد، وعن العافية التي تنضح من وجوههن وعن رشاقة أجسادهن، وعن الحياء والعفة في نظراتهن: "بالله صبايا ضيعتنا كيّسات وشريفات!!" كان يقول، مختتما حديثه بـ "الله ينعم عليك بواحدة ابنة حلال"، وينصرف بعدها لإعداد المئة الموعودة.

في الطريق إليه

وهكذا رأيت أنا علي جاد، رأيت (حميروش) بن أم علي، علي الذي سبق أن رأيتَه يفجّر نفسه بالديناميت، يقف في ذلك الشريط الأصفر من ضوء الغروب، ضاربا براحتي يديه قضيبه الغاضب، مستعرضا حشد المصلّين المتجهين إلى دار بوعلي سلمى الجديدة، من فوق السور الذي رفعت فوقه، على أشواك (الجربان)، قشور بيضات كان بوحميروش قد شفت محتواها قبل أن يستخدمها لفقئ العيون الحاسدات، رأيت ذلك قبل أن ينقلب عليه الجرّار ويرفعوا صفيحة رأسه بشفرة المعول عن الأرض. هو زوج أم علي، ولسبب ما لم أسمع أحدا يناديه بأبي علي، فما أن ولد حميروش حتى ابتلع اسم علي وابتلع معه اسم أبيه. رأيتَه يحب البيض نيئا. رأيت، حين حاولت استحضار اسم ابنه المدّون في سجلات المختار، أنني لا أعرف اسما آخر غير حميروش ولعلّ أحدا آخر لا يعرفه، أو ربما لا وجود لأي اسم آخر، فحميروش هو حميروش، ولحميروش هذا حكاية لا يعرفها إلا أمّه، أمّ علي، وامرأة الشرطي علي وإياي، بل والشرطي نفسه الذي عرف متأخرا، ثم كان له ما كان؟ سأحكي لكم بعد أن أنتهي من صلاة الشكر حكاية حميروش مع امرأة الشرطي..

وهكذا رأيت بوعلي سلمى ينحر عشرين خروفا اشتراها من بدو رعاة تمّنوا للصلوات التي ستقام على لحمها أبوابا مفتوحة في السماء، وينحر ثورا أحمر باعه بوعجول، أو لنقل بوشمعون احتراماً للأخير، باعه بعد أن عجز عن إرضاء أصحاب العجلات. رأيت ابن أخي يقول: الخروف لا يشعر بالموت حتى عندما تحز السكين عنقه، لا يشعر بأنهم سيقتلونه أمّا الثور فيشعر بذلك بمجرد أن يرى السكين، ولكم أن تتخيلوا الذعر الذي يصيبه في اللحظة التي يلامس فيها النصل عنقه! الثور ينقل ذعره وعدوانيته إلى آكلي لحمه. رأيت بوعلي سلمى ينحر الذبائح، عاقدا العزم على إقامة صلاة في بيته لوجه الله، الله الذي نجاه من شرّ الدولة. فما إن أوحى ذلك الكبير الذي كان بوعلي يعمل لحسابه، ما إن أوحى له بخطر البقاء حتى بات يرى الدولة شرّاً، وخاصة حين يتشمم رائحة النفط التي تفوح من نقوده وبراهمها خيرا حين يتبخر على شرفات عمارته، وأمّا ذهب حماه الذي تتحلى به زوجته وبناته فلم يكن يرى له علاقة بالدولة، إنّما بأشرار كانوا يستهدفونه هو بالذات ويستهدفون أولياء نعمته. كان هناك للأشياء معنى خاصا في رأسه المشغول الآن باستقبال المشايخ وعكّامهم من العوام.

كان حميروش على السطح يجلد قضيبه أمام عيون العاقدين النية على الصلاة فيما كان أبوه الذي لم يكن قد دهسه الجرار بعد يتوارى خلف شجيرات الرمان تجنباً لمواجهة هذا الحشد الكبير بعينيه اللتين هجرتا الله. رأيت بوحميروش يهجر الله على دفعتين. رأيت في الأولى يهوي على رأس ابنه حميروش بعصا سنديان فيفقد القدرة على النطق إلى الأبد، ورأيت أن الذبيحة التي كان يقدمها لله سنويا على اسم حميروش لم تبطل مفعول العصا، ولم تحم الرأس الأشقر، ثم رأيت في الثانية يعلن القطيعة مع الله، حين لم يستطع الكبش الكبير الذي كان ينحره سنويا على اسم ابنه الكبير علي حمايته من الديناميت. رأيت حميروش في صباح الجمعة الذي فقد فيه القدرة على النطق يختلس النظر من ثقب في باب الحمام إلى أخته التي كانت تستحم مشغولة عن عينه المحجوبة بظلام، عرف كيف يصنعه، كما ينبغي لصبيّة أن تستحم حين يكون الحمام مكان عزلتها الوحيد، المكان الوحيد الذي تكتشف فيه جسدها ومواضع اللذة فيه. رأيت حميروش يعلّق جلابب أمّه الأسود على مسمار أعلى من الثقب الذي خلفه شلع القفل القديم واستبدال تراس به. كان قفل الباب قد شلع حين لم تستجب أم علي لنداءات زوجها، ظنّها انتحرت وكان قد أغلظ القول فيها، وما إن شلع قفل الباب حتى وجدها فاقدة الوعي، بعدها فتحت أم علي عينها على كلمات الحمد لله على السلامة وسط وجوه غريبة في المشفى الوطني. رأيت أم علي تتخلى عن جلاببها الأسود الذي كان سقوطها مغشيا عليها يوم ارتدائها الأول له، ورأيتها تعلق الجلابب في الممر المفضي إلى الحمام، ورأيت حميروش يستفيد من الجلابب الأسود حاشرا رأسه فيه كمصوّر أدخل رأسه في جراب الآلة العتيقة، منهمكا بالفلم، ورأيت ثعبانه ينافس عينيه على الخروج من ثقب الباب، ورأيت أباه يهوي على رأسه بالعصا، ورأيت يسقط جثة هامدة على الأرض، ورأيت لا ينطق بعد ذلك اليوم، ثم رأيت يعود إلى عريه الوحشي. رأيت يخرج كل يوم إلى السطح يتقدمه قضيبه الخارج من سرواله، ورأيت أباه يبكي ألما وندما وحسرة ورأيت يجلد ابنته التي كانت سببا في علة أخيها حميروش ورأيت يلعن حواء كل يوم مائة مرّة، ثم رأيت يهجر البيت هربا من رؤية ما صنعت يداه، ورأيت أم علي تبحث عن وسيلة لثقل السروال على الثعبان فلا تجد، ثم رأيتها تبحث عن سرير يغفو عليه ثعبان ابنها بعد خروجه الغاضب ألف مرّة تحت الشمس، ورأيتها تهتدي إلى الفكرة التي غيرت حياة امرأة الشرطي علي وقلبت بطانته. رأيت الإنسان لا يعمل رأساه معا. رأيت بوحميروش يقطع مع الله كلفة حين اهتز الوادي مردداً صدى الانفجار الكبير وقيل له إنّه صوت تفتت جسد ابنه علي. رأيت علي القادم من تكنته عند الظهر، رأيت في تلك الظهيرة يتهرّب من النظر إلى عيني أمّه التي كانت قد أعدت له الطعام وقدمته له على طبق من قش، رأيت يبدأ حديثا معها مغلظا لها القول، مؤنبا إياها على مجالستها الرجال في الخمارة وما يتناقلون من كلام بذيء تقوله هناك. لم يكن بنية علي أن يتحدث في

هذا الموضوع، ولم يكن ليعترض عليه، فهو قد نشأ عليه ويعرف حق المعرفة أنّ الجميع هنا يحترمون أم علي ويكنّون لها محبة خاصة ويقبلون بما تفعله استثناء لها عن غيرها، لكنّ القول اندفع من تلقاء نفسه إلى طرف لسانه في صراع صاحبه مع ما يتفجّر في روحه وبحبسه عن الخروج. رأيت علي يتصيّد هوى ابنة سلمى الكبرى، رأيتَه يستجدي قلبها ورأيتَها تتأبى عليه، ورأيتَه في ذلك المساء يحطّم الأشياء، يضرب بقسوة جلاّد، ينقضّ على أخته وأخيه ويصرخان ويحطّمان معه الأشياء كقطين داهمهما خطر في مكان مغلق، رأيتَه يضبط أخته الصغرى ممسكة بثعبان أخيها، متظاهرة بأنّها تحاول إعادته إلى مخبئه، ورأيتَه يخرج من البيت وكانت العتمة قد أرخت ستائرهما على الوديان، يخرج بعد أن هدأ بعض الوقت وجلس معذرا لأمه عن غلظة القول، رأيتَه كأنّما قرار الموت أتّلع صدره فكف عن الغضب واستسلم إلى أمر لا غضب بعده، حتى إنّهُ ابتسم حين شعر بدبيب نمل في ذلك المكان الذي سينش فيه الفتيل نحو الانفجار، ورأيت صدق جسدته يعود إلى البيت.

ورأيت المشايخ ومن يتبعهم يشيّعون ثعبان حميروش منعطفين إلى بيت بوعلي سلمى. لم يكن بوحميروش، في ذلك اليوم الذي رآهم فيه من خلف أجماته يتجهون إلى دار بوعلي سلمى، قد غادر الله كليّة بعد. كان ما يزال يقدّم ثلاثة الخراف له كل عام. كان قد نذر على اسم كلّ من أبناؤه ذبيحة يقدّمها في عيد التجليّ في السادس من آب، مقابل أن يصون الله من يجري دمها بسببه من الصبيان. كانوا ثلاثة، علي الكبير وضابط صغير لا أهميّة لاسمه أو عمله، رأيت أن لا قيمة للحديث عنه، وحميروش. رأيت بوحميروش لا ينذر الذبائح من أجل حياة ابنتيه. رأيتَه يشتري حملانا صغيرة ويودعها لديّ أنا علي جاد الراعي في أوّل موسم الرعي ثم يستردها ويضعها مسمّنة بين أيادي الشيخ ليرفعها إلى السماء أنّ تجلّى الرب. لمن تجلّى وكيف تجلّى؟ رأيت بوحميروش، كما الشيخ الباسط ذراعيه فوق اللحم الساخن لا يهتم للأمر. ورأيت بوحميروش يسأل الشيخ عمّا إذا كان الله سينقّم ضيق حاله وعجزه عن الإيفاء بنذوره، ورأيت الله على لسان الشيخ لا يقبل عذرا، ثم رأيت بوحميروش يفاوض الشيخ على تحويل الخراف إلى دجاجات، ورأيت الشيخ يستغفر الله عن أن يكون لمثله أن يخلط بين دجاجة وخروف، ثم رأيت بوحميروش لا يجد حرجا في فسخ عقده مع الله من طرف واحد بعد نسف الديناميت لأحشاء ابنه البكر، وبعدما كان الله قد رفض إعادة الصوت إلى لسان حميروش وإعادة ثعبانه إلى سرواله.

ورأيت بوعلي سلمى يكافئ الله على خدمة أسداها إليه، على عمل أنجزه مقابل مجرد دعاء. الأشياء التي لا معادل مادي لها لا تعني بوعلي سلمى في شيء، ورأيت بوحميروش يستنتج أن الله تعجبه بعض القرابين دون بعضها الآخر! رأيتَه غير راض عن أداء الله. ورأيت المشايخ وتابعيهم في دار بوعلي سلمى يتجولون مستحسنين، شاكرين، مادحين وليّ النعم على كرمه

وعلى ما أهدقه على ابن أخيهم الطيب البار بوعلي، ورأيتهم ينظرون بإعجاب إلى صور الرئيس وأبنائه المذهبة التي تنصدر قاعة الاستقبال، الصور التي سيجلس الإمام تحتها بعد قليل، ورأيت رائحة اللحم المسلوقة تشوش المصلين، وتشدهم من السماء إلى القدر المعلقة فوق النار، رأيتهم يسلقون اللحم في دسوت عملاقة على حطب السنديان، ورأيت رهطا من المتسولين يتناوبون مط أعناقهم فوق حديد بوابة الدار المغلقة، ورأيت قطة تموء بعد عصا تلتقتها من أحد الطباخين، ثم رأيت السماء تغادرها زرقتها المريبة إلى غير مكان، ورأيت غيما يأتي من لا مكان يتلبّد فوق سماء الدار، ورأيت مطرا يندلق بعد تسعة وتسعين يوما من الانحباس كأنما انكسرت جرار السماء كلّها دفعة واحدة، ورأيت المصلّين يقطعون صلاتهم ويخرجون، ورأيتهم يباركون الرجل على ما فيه الله: هذه مطرة خصّك بها الله يا بوعلي، تأكيدا من لدنه على رزقك الحلال، ورأيت بوعلي تنهمر من عينيه الدموع معلنا حبّه الشديد لله الكريم: إنّه الحق، أي والله إنه الحق، أي والله حلال، سبحانك يا من تغسل بمائك الظنون! رأيت المطر لا يدوم طويلا، ورأيتهم بعده يأكلون ويشكرون.

رأيت امرأة علي الشرطي تأخذ من كل ذبيحة خصيتها، رأيت أحدا في ضيعتنا لا يذبح الإناث ولا يأكلها. رأيت الشرطي ينكسر على بابها مرّة واثنين وثلاثا، ورأيت يتوعّدها بالموت إذا ما أفشت سرّه لأحد، ثم رأيت يخضع لها أيّما خضوع. ورأيت ينظر إلى ثعبان حميروش مستاء من الله الذي حرّمه هو الشرطي من هكذا سلاح فيما خص به هذا الأهل الذي لا يعرف كيف يستخدمه، ورأيت يحلم بأن تجرى له عملية جراحية يستبدل فيها جراحون أجانب مهرة بحبله المندلّي بين فخذه عصا حميروش، رأيت يتمنى لو ضربه أبوه بعضا حين كان في الخامسة عشرة كما فعل أبو حميروش، رأيت يرى أن الله جعل من العصا التي ضربت الرأس هنا عصا هناك، ويعاتب الله على أنّه لم يوح لأبيه بواحدة مثلها، ورأيت امرأته تبحث عن ألف وسيلة لجعل محرّاثه يشق أرضها النديّة قبل أن تجف، رأيتها تشتري خصي الخراف والعجول، ورأيت علي اللحم يمتنع من أكلها عن بيع خصي ذبائحه لأي كان، ورأيت كل من ينحر من الأهلين كبشا أو ثورا، اتقاء لشر الله أو طمعا بخيره، يخصّها بخصيتين لم تمت فيهما الفحولة بعد، ورأيت الجميع هنا يتبادلون الصمت المتواطئ، تضامنا معها وخشية من الشرطي، ويتمنى الرجال بينهم مساعدتها على طريقته، لكن أسبابا كثيرة تحول بينهم وبين أمنياتهم. ورأيت أم علي، أم حميروش تهتدي بعد الكأس الثانية في أحد مساءات الخمارة إلى حل.

رأيت أم علي تكثر من دعوة زوجة علي الشرطي إلى بيتها، تفعل ذلك في وقت متأخر من الصباح، بعد أن يكون الجميع قد انصرفوا إلى مدارسهم أو أعمالهم، وتكون وحدها وحميروش في البيت، هي في فستانها البني المنقّط وهو في بيجامته المخططة، تدعوها راجية منها أن

تشاغله عن الخروج إلى السطح ريثما تعدّ هي ركوة القهوة. رأيت أم علي تشكو لامرأة علي خشيتها من أن يؤدي هياج ابنها الدائم إلى مصيبة، وتعبّر لها بطريقة وثانية وثالثة عن ثققتها بأن شيئاً لا يعيده إلى عقله إلا امرأة تفتح فخذها لماء جنونه، فإذا بها ترتوي وإذا به يستأنس بها ويألفها فيكفّ عن عرض ذكره أمام الجميع بهذه الصورة المخجلة، ورأيت أم علي تتحسر على أنّ أحدا لا يزوجه ابنته وإلا لزوّجته، وإنما ترى كيف ينظرون إليه ويسيل لعابهن، وإن كثيرات يتقصّدن زيارة ابنتها لرؤيته عن قرب، وإته ما إن تخرج أخته حتى يخرجها، ورأيت أم علي تشير مرّة وثانية وعاشرة إلى نعمة أنّه أخرج، ونعمة أنّه لا يقرب الرجال ولا يخالطهم ولا يأمن جانبهم، وأنّه نعمة لامرأة تعرف كيف تستفيد منه، ورأيت أم علي تغلق الباب عليه وامرأة علي، حين تخرج إلى المطبخ وتطيل المكوث هناك، مؤكّدة وجودها بعيدا بقرعة الطناجر والصحون ورنين الكؤوس والفناجين وصخب الماء، ورأيتها تعتذر لجارتها بصوت مرتفع من بعيد عن أنّها ستجلي وترتب المطبخ قبل إعداد القهوة كي يتمكنّا من شربها بهدوء، راجية منها إبقاء حميروش إلى جانبها والحيلولة دون خروجه إلى السطح، ورأيتها في مرّات أخرى ترجوها البقاء وموانسة حميروش ريثما تقضي هي أمرا ما في أطراف الضيعة أو في البستان قد يمتد لساعة أو أكثر بقليل، مؤكّدة على أن لا حاجة بها إلى فتح باب الدار لأي كان في غيابها، فأحد من أهل البيت لن يأتي الآن. ورأيت الساعة تطول مع كل خروج، ثم رأيتها مع حلول الصيف، مع إغلاق المدرسة أبوابها دون رغبة المرأتين في خروج الفتاتين، رأيتها تصطحب حميروش إلى بيت الشرطي الذي عرفت امرأته كيف تقنعه بالانتقال إلى مركز أبعده، سيكون فيه أكثر وجاهة وسيجني فيه مالا أكثر، مركزا يضطره إلى النوم خارج البيت مرّتين في الأسبوع على الأقل، ورأيت أم علي تأتي لموانسة جارتها في غياب زوجها، ورأيتها لا يطيب لها الجلوس في ركن من أركان بيت الشرطي متعدّرة بحاجتهم إليها هناك، ورأيت امرأة علي تعذرها وترجوها ألا تقلق، فحميروش طيب ويسليها وهو لا يزعجها أبدا، وهي لم تكن تظنّه لطيفا إلى هذه الدرجة، وأنّها تعطف عليه، وأنّ أم علي يمكن أن تتصرف إلى شؤون أسرتها مطمئنة، فعندما ينعس حميروش يعرف كيف يعود وحده إلى البيت، ورأيت أم علي لا تعود إلى بيتها من الباب الذي دخلته، بل تخرج من باب بيت الشرطي الخلفي وتسلق طريق الحواكير المظلم وتدخل دارها من خلف، ورأيت حميروش لا ينعس حتى مطلع الفجر، ورأيتها تطل برأسها من الباب الخلفي مشيعة أم علي، متأكّدة من خلو الطريق، ورأيتها تغلق الباب معاتبته الليل على قصره.

ورأيت علي الشرطي تثير ريبته حيوية امرأته وانبعاث هذا الدفق العارم من الحياة فيها، ورأيتة تلتفت نظره الستائر السميكة الجديدة المسدلة دائما على شباكي غرفة النوم، ورائحة غريبة في أرجاء الغرفة لم تعد تشعر بها المرأة بعد أن سكنت جسدها، ودرب ضيق مرصوف بالخطوات،

ممتد من باب بيته الخلفي عبر الحواكير إلى مكان ما، لم يفت الشرطي أن يتحقق منه، ورأيته يلفت نظره أيضا سخان الماء في الحمام الذي راح يشتغل دون انقطاع، غافلا عن قواعد توفير الكهرباء التي أقرها هو الشرطي والتزمت بها هي امرأته طوال سنوات. ورأيته يفعل ما لم يخطر على المرأة في بال. رأيته يقفل على نفسه باب الحمام، ويرفع مصفاة حفرة تصريف الماء، ويخرج كتلة شعر من هناك، ورأيته يقرب الشعر من اللبة الوحيدة المعلقة فوق مرآة الحمام، ويتفحصه جيدا ثم ينقيه، فيضع الأشقر المحمر القصير الغريب منه في كيس، يحشره في جيبه، ويغلف ما بقي من شعرها البني وشعره الأسود بورق تواليت ويلقي به في السلّة المعدة لذلك تحت المغسلة، ثم رأيته يغسل يديه بماء دافئ وصابون، ويغسل وجهه بماء بارد، وينظر إلى وجهه في المرآة متفنسا الصعداء، حامدا الله على أنه حميروش وليس واحدا آخر، عاقدا النية على ضبطهما معا وتفويت فرصة النكران عليها، متخيلا كيف سيقطع قضيب حميروش بالسكين وكيف سيلقي بصاحبه في الوادي، وكيف سينزف حميروش حتى الموت، دون أن يستطيع الإفصاح عمّن فعل به ذلك، وكيف أنّ أهل حميروش سيحمدون الله على الحادثة التي أراحتهم من عار ابنهم، ورأيته يفكر بأي كراج يأتي من المخفر، ويجلد به كل يوم ذلك المكان منها الذي يخرب حياته ويشعره بالعجز، ورأيته تريحه فكرة أن يشوّهه حتى تمتنع صاحبتة عن التعري أمام أي كان، ثم رأيته يخرج إليها مازحا، متمنيا عليها إعداد العشاء، معربا عن شوقه إلى كأس من العرق يشربها مستمتعا بسحرها الجديد الذي كان مشغولا عنه من قبل، ورأيتها تستشعر أمرا غريبا في مزاجه الجديد، فتجاريه متفحصة كلماته بانتظار أن يفصح بعد الكأس الثالثة عما يخفيه مزاحه، ورأيتها تنتظر إليه بتحد غنج وتصميم شرس حين تتبين معرفته بقصتها مع حميروش، مؤكدة أنّها ليست من حجر كي تصوم عن ذكر مدى العمر، وأن عليه أن يشكر ربّه على أنّ الرجل أخرس، وأنّ عليه هو أيضا أن يخرس، وأنّ أحدا لن يلومها لأن جميع من في الضيعة يعرف لمن تشتري الخصي كل أسبوع، وليتها كانت تفيد! رأيتها تقول في نفسها عاقدة العزم على المواجهة، ورأيتها يتاولان العشاء وينشغلان بشاشة التلفزيون عن حديث منقطع فيه كثير من الإلغاز والتهمك المتبادل، ورأيت ذلك الليل يمضي بأمان، بانتظار ما سيكون.

وفي اليوم التالي، رأيته يعود كي لا يثير شكوكها لبيت في البيت، ورأيتها كعادتها تنتظر بفارغ الصبر يوم غد، يوم مبيته في المخفر، ماسحة بعينها السرير عند كل مرور أمام باب غرفة النوم المفتوح. ورأيت عقله مشغولا بالبحث عن مكان في البيت يصلح لاختبائه ورؤية السرير دون أن يشعر، ورأيته واثقا من أن باب غرفة النوم في حر الصيف سيبقى مفتوحا، ومعه ستبقى مفتوحة نافذة الحمام وشباك المطبخ اللذان لا يكشفان مضجعهما لعين مراقب، ورأيته متأكدًا من أنّ باب الصالون سيغلق فهو يتوسط الطريق بين السرير ونافاذة كبيرة تغطيها ستارة

من شبك الصيادين الناعم علّق عليها أصداف صغيرة ونجوم بحر وقناذ منزوعة الأشواك، ستارة لم يكن الصياد قد أكمل صنعها حين أخذها الشرطي عن صخرة على الشاطئ، مستغلاً خروج الصيادين لجمع شباكهم، ورأيته يفرح لانفتاح الصالون على غرفة الضيوف ذات المدخل المستقل، المدخل نفسه الذي حاجج المعمار يوم بناه بعدم جدواه، وتذمّر من إجباره على دفع ثمن باب إضافي، ورأيته يزيّت مفصلات الباب جيّداً ويفعل الشيء نفسه للقفل، ورأيته يحشر مفتاح الباب في جيبه، ثم رأيته يستغل خروج زوجته فيقطع بشفرة مشرط ثلاثة أضلاع من أحد المربعات المرسومة في الزخرفة التي سبق أن ألصقت على زجاج الباب الداخلي، الزجاج الذي تركه النجار يوماً لتمير الضوء، ورأيت الشرطي يبتسم راضياً عن نفسه بعد أن أتمّ استعداده وتحقق من إمكانية رؤية كل شيء حين يرفع القطعة المقصوفة الأضلاع، ورأيته يعيدها إلى مكانها معتزلاً بمهارة عقله البوليسي، ورأيته يهتدي إلى ضرورة شراء آلة تصوير أو استعارتها من مكان ما فقد يحتاج صورة الولوج لتبرئة نفسه لحظة يقف في القفص، ثم رأيته يخرج مسدّسه، يقلّبه بين يده وأخرى، متنقلاً في أرجاء غرفة النوم، متخيلاً الطريقة التي سيطلق بها رصاصته على رأس حميروش ثم في قلبها هي، باحثاً عن وضعية تمكّنه من فعل ذلك دون أن تخرب رصاصاته خشب السرير الثمين أو الخزانة أو تصيب المرأة أو حتى الأغذية البيضاء، ورأيته يعيد المسدس إلى خاصرته، فيما تبدو على شاربيه علامات الاهتداء إلى حل، ورأيته يخرج هذه المرّة من باب غرفة الضيوف بانتظار ليل بعد غد. ورأيته يفوته أمر مفتاح الباب الفاصل بينه وبين السرير.

ومع اكتمال ظلام ذلك الليل المرتقب، ليلة اجتياح العسكر للضيعة الذي تأخر إلى ما بعد برنامج (صوت القوات المسلّحة) الإذاعي بساعتين على الأقل، وكانت الجدّات قد حكين حكاياتهن للصغار ولجأ هؤلاء إلى النوم، رأيت علي يتسلل إلى بيته عبر الكروم، ومن مخبئه في الظلمة وراء شجيرات الرمان رأيته يتحسس مسدّسه شاعراً بالرضا حين رأى حميروش يدخل بيته من باب الخلفي، ويشكر الله على أن كل شيء يسير على خير ما يرام، ورأيت أم علي، وكانت قد همّت بالذهاب إلى جورة الأعور، رأيتها ترتّب أمر خروج حميروش من البيت دون أن يلفت ذلك نظر أحد من ساكنيه، موحية لجارتها امرأة الشرطي بأن شيئاً لا يثير شكوكها، ورأيت علي الشرطي يتلقت حوله خشية أن يسمع أحد نبض قلبه الذي راح يصخب. لم تكن أم علي تدري أن ذلك سيكون آخر خروج لحميروش. كان خطر المقابر المتوعّد قد طغى على غريزة الأمومة لديها وجعلها تستنفر كل غرائز البقاء لديها لمواجهة العسكر. لم تكن أم علي على عداة مع العسكر، إنّما شيء ما أقرب إلى الغريزة قال لها بأن الأمور ستتقلب هنا إلى غير رجعة، وأن العوالم التي أحببتها والبشر الذين عايشتهم مخمورة وصاحية سينقلبون على أنفسهم فإذا بها لا تعرفهم ولا

يعرفونها. وأما بعد مقتل حميروش فصار العداء للعسكر موجة السنوات القليلة التي أنفقتها في طريقها إلى القبر. وقد أيقظ ذلك ذاكرة الموت لديها، ذاكرة علي ابنها الذي أودى به تكبر بوعلي سلمى وزوجته المتبرجة بذهب أحمر جيء به من وراء الجبال. فلو أنهم وافقوا هواه لسهلت عليه بقية الأشياء.

جنى المزارات

كل حادثة تقع على مرأى منا تنتشظى إلى ألف حادثة صغيرة، كل منها تسكن مسكنا خاصا منا، بعضها يكاد لا يغفو حتى يستفيق، وبعضها الآخر قد يستفيق من غفوته الأولى مرّة واحدة في الحياة وقد لا يفعل. ليس هناك معنى واحدا للشيء نفسه حتى بالنسبة للشخص نفسه وفي اللحظة ذاتها. معنى الشيء الثابت ادعاء باطل!! فنحن نستقبل الحدث نفسه مشظى إلى ألف قطعة، ونحن أنفسنا ننشظى معه لحظة استقباله، ويمضي الزمان، وتحدث أشياء أخرى وأخرى ونستفيق على ما جرى لنا، على معاني الحوادث والأشياء فينا، استفاقات متعددة متتالية لا تشبه إحداها الأخرى، فإذا بزمننا الشخصي ينتشظى أيضا، ومعه زمننا العضوي، وإذا بنا وبحياتنا أشبه بملاط يجمع حوادث وأشياء لا يمكن أن تلتقي إلا بنا وفينا. وأمّا تلك الأشياء التي يراد إيصال معنى قسري منها فكثيرا ما يصلنا منها معنى مضاد لما يراد له أن يصل.

ما الذي يجعل حجرا يختلف عن حجر مثله؟ أهي القصة في الكربون الذي يجعله ألماساً أو يجعله حوّاراً؟ أيكون ثمّة كربون إلهي وكربون بشري وكربون شيطاني، وكربون للملائكة الموهومين بتفوّقهم وللملائكة الواقعيين؟ أم أنّ المسألة وما فيها فعلا كيمياء بكيمياء؟ حبّنا كيمياء وشهواتنا كيمياء ووقاؤنا وخياناتنا كيمياء وخوفنا كيمياء وشجاعتنا كيمياء وإيماننا وكفرنا كيمياء والشعر الذي يقوله شعراؤنا والروايات التي يكتبها روائيونا والموسيقا التي نسمعها في الحافلات وفي قاعات الاصغاء وقاعات الرقص كيمياء بكيمياء، فيكون إله يعبده بشر هنا وإله يعبده بشر هناك وثالث في غير مكان مجرد كيمياء وكمثلهم تكون طرائق مناجاتهم وطرق الوصول إليهم. أم أنّنا نحن من يخلق الكيمياء كما خلقنا آدم وحواء من قبل خارج جسديهما، وفطرنا معاني الحجارة فإذا بها حوّار وإذا بها غرانيت وإذا بها صوّان وألماس، وإذا بها لا معنى لقساوتها بعيدا عن جلدنا. أجل، نحن نخترع وسائل للإيمان ولمعايرة الإيمان ومقايسته والمفاضلة بين نوع منه وآخر، وكذلك نفعل مع الكره والحب، وكلّما ابتعدنا عن حقيقة أنفسنا وعن جلدنا اخترعنا وسائل أكثر تعقيدا ومعايير أكثر نكاء لتقويم علاقتنا بالأشياء.. وقد لا يكون لسؤال: أيّهما أولا كيمياء الدافع أم كيمياء الرغبة أم كيمياء الفعل معنى، ذلك أنّ المعنى هنا يتأتّى عن النتائج وليس عن الأسباب. نحن محكومون بالنتائج وليس بالأسباب. وأمّا الوصول إلى النتائج فمسألة على علاقة

بالاقتصاد أكثر مما هي على علاقة بالأشياء الأخرى، باقتصاد النبض والتنفس واللمس والشم..
والزمن والجهد والموارد والطاقات واللغة والرموز والأدوات.

يوم استوقفتني أبو محمد كان قد غسل الحجر وأعدّه لمثل هذا اللقاء، ويوم استوقفته مريم كانت قد غسلت قلبها وأعدته لمثل هذا اليوم، ويوم خبأت سميرة لؤلؤتها، فعلت ذلك تاركة للؤلؤة أن تختار يوم الخروج. هؤلاء أيضا من عين الغار وفيها ذاكرة يعيشون. القول للأقوى وقد يكون الفعل كيميائيا وبردا وسلاما أو نارا تصطلي على غير رغبة من اللحم. هل أبو محمد حين رأيته فجنحت إليه. على هذا الحجر - قال - حفر والدك تاريخه بنصل حاد، كان ذلك قبل أن يحتل اليهود فلسطين بعام. لم يفكر أبو محمد بأن فلسطين احتلت قبل إعلان دولة إسرائيل بأمد طويل وبأنها ما زالت تحتل كل نهار، وتخرج من الجغرافيا إلى اللحم كل مساء، وأنها ما زالت تحتل هنا وهناك، ولم يعد لجغرافيا فلسطين معنى خارج جغرافيا أرواحنا. ما علاقة هذا الكلام بجباية أموال المزارات؟ لا علاقة له سوى أنه من لحم ذاكرتي أكون به كما تكون الأحداث التي أرويها.. هذا الذي تضوأت أمامي حين رأيت الحجر الذي تركه أبي يوما على تخم كرم أبيه الشيخ الدركي، إلى أن عثر عليه أبو محمد وغسله ونصبه إلى جانب شمعدان عتيق في أوضته الواطئة بانتظار أن يراني. ومع ذلك فالمزارات ازدادت بهاء بعد اغتصاب فلسطين. راحت تلبس ثوبا أخضر جديدا كلما ازداد العسكر سطوة وازدادت هزائمهم، وراحت حصالاتها تمتلئ أبكر من ذي قبل. كم معنى، عند الله، ليد مبسوطه لدعاء وصلاة لا يبدو فيها إلا عروقها وربما قطرات عرقها؟

الله لا يحب الأيدي الخاوية، والشحاذون يستجدون ضحاياهم: من مال الله! ومن أحق من فريق التحتانية بمال الله. أم أن الله على تضاد مع فقراء عين الغار، أيضا، كما كان في أفغانستان؟ عرف شمعون كيف يحول الإيمان إلى نقود، إيمانه الخاص وإيمان الآخرين. وفي حين كان نادرا ما يستسلم لعناء الإيمان، عرف كيف يدفع المبتهلين إلى عماء إيمانهم فإذا بهم يفرغون ما في جيوبهم في حصالات حمراء من الداخل خضراء من الخارج. الماء، الماء.. للماء علاقة بالكفر وبالإيمان، وثمة ماء للذيلة وماء للطهارة، وأما هنا فتندمج المعاني. الماء الذي يُرقى به المرضى والممسوسون لا يحتاج إلى تقوية من الشوارد، والكهرباء التي يخترنها أقوى من كهرباء المدخرات، هي تشعل ضوءاً في مكان وتغلق على العتم في مكان، فإذا بخزنة العتم يشعرون.

تفكر شمعون بوحدة الصخر والخرنوب الذي يأذن، باسم الماء، بالنزير، وحدد الأماكن التي سيأذن للماء فيها بالخروج، وراح يفكر بدعاية لترويج الماء قبل أن تبديد دولة الفقراء على تخوم الدعاية الممنوعة: الماء.. الماء! - قالت أم علي - إنه ينز من بين صخرة المزار وقرمة الخرنوب، وإنه أعاد العقل إلى حميروش فما عاد يستعرض ذكره أمام العابرين: الماء الماء! الماء

الماء! - قالت امرأة علي الشرطي - بفضلته لم نعد بحاجة إلى بيض العجول.. الماء، الماء - قالت أم علي سلمى - جعل ابنتي تحبل بعد خمس سنوات، ووقت يشربه بوعلي لا أعرف كيف أخلص نفسي من بين يديه.

لم يوكل شمعون لأحد أمر آنية الفخار التي جبلها وسواها وشواها وجعل لها فما مفتوحا على ماء يأتي كل ليل عبر فالق صغير، وجعل للنزير مكانا يتسع ويضيق بعود من ريحان متدثر بحجر مرقي، ثم خبأها في مهدٍ قده بين الجذع وصخرة في الجدار راحت تقطر مع الرجاء. كان شمعون يحب الصلصال ويحب كمنثله الخرنوب زهرا وثمرها وظلا ونسائما وحفيفا. كان ذلك عملا منظمًا عرف شمعون كيف يرثيه ويديره، كان أمرا لا يطيق أن يدري به كثيرون. بل إن شمعون حين تفكر بخطته مستعرضا أعضاء فريقه لم يركن قلبه إلى أي منهم. فمن شأن حتى أقربهم إليه وأصلبهم عودا أن تغريه لذة تحدي أبيه بالبوح بسر الماء المقدس الذي لا ينضب على الرغم من أن قطرات منه تكفي لعلاج كل سقيم ذي يقين يفغر فاه إلى المزيد من كيمياء الرحمة فيه. كان ثمّة رجل واحد اضطر شمعون لاطلاعه على سر الماء ثم للاتفاق معه على أدق التفاصيل، وقريبا ستعرفون من هو هذا الرجل. كان الأوفر حظا بين المنتظرين، مبتهلين إلى إله الفالق الرطب الصغير قطرة ماء، يتكلل ماء الرحمة الآتي إليه بقطرات من زيت الزيتون حيناً، وزيت الريحان والزعفران والشربين والعفص والعرعر في غير أحابين. لم يبخل شمعون بماء الورد وماء كل نبات ذي أريج على مريدين يبدلون من مالهم من أجل شياطينه الصغار. ذات فجر رأت زنوب شمعون، ولم تكن تغادر المصطبة أمام دكان زوجها إلا لقضاء حاجة، أو لخدمة ابنها علي بن زنوب الطريح الفراش.. بل وكانت تقوم بنفسها ببيع البخور لطالبيه متوسلة بركة من سعيها إلى الرف وعودتها إلى حجر المصطبة الذي يتسع لثلاث نسوة أخريات، بينما كان زوجها السكرير يبيع الأشياء الأخرى. هنا كانت تتجمع أخبار عين الغار، ومن هنا تأخذها المراسلات إلى كل مكان. رأت زنوب شمعون في المزار. كان قد جاء يضيف روح النبات الأخضر إلى الماء. كان شريكه مريضا في ذلك الفجر، وكان عليه قبل ذلك تنظيف المزار ورششة محيطه بالماء وتطيبه برائحة البخور قبل مجيء أول الزائرين إليه. حين سمع وقع خطواتها كان لتوه قد انتهى من معايرة قضيب الريحان في أسفل بطن الصلصال. فشمس الجمعة ستشرق عمّا قريب، وما أكثر من سيقصدون هذا المكان. رأت العجوز ظل رجل ملاصق لجدار المزار فسرى دبيب نمل في جسدها، وراحت ترشش اسم الله واسم الخضر واسم العجمي من حولها، محاولة رد الشبح الأسود الذي راح يتحرّك صوبها:

- لا تخافي يا خالتي، أنا شمعون بن عبلا..

- شمعون بن عبالا !! الله يخزي الشيطان ويلعن أولاد الحرام - خيّل لشمعون أنّها تعنيه
بالعبارة الأخيرة- يقولون إنّك شلوعي وكافر ولا بتخاف الله.. لسبب ما كثيرون في الضيعة
يقولون شلوعي بدلا من شيوعي!

- وتصدقنيهم يا خالتي أم علي!

- والله يا بني لولا أنني شفّتك بعيني تتبارك بالمزار ما كنت صدّقت خادم المزار. بالله، هو
يحكي عنك كل خير، ويقول إنك ابن حلال ومظلوم ومؤمن، وإنك تزور المقام، وتركّي من
تعبك وعرق جبينك ما فيه النصيب. إن شاء الله، حنّ عليك العجمي ونزل لك دمة الرحمة
المباركة، يا شمعون يا بن عبالا حماك المولى بشفاعه هذا الولي الأولى والذي وجهه للشر
ما ولى!

- أي والله، الحمد لله يا خالتي أم علي، دهنت وجهي وصدري حتى يشفيني الله ويبين لي
طريق الصح من الغلط ويشرح لي صدري. والله يا خالتي من اليوم الذي جنّت فيه إلى هنا،
ودهنت جسمي بدمعة الرحمة المباركة، على قولك، عشت وعاش أصلك وفرعك على هذا
القول الحكيم الطيب يا خالتي أم علي، من يومها ما شكيت من علة. كنت لا أنام الليل من
وجع رأسي، ووجع صدري.

- الله يبارك فيك يا بني ويظلم كل من يظلمك.. قال شلوعي! قال!!

- لكن، الله يشفيك علي، يا خالتي، أرجوك لا تحكي لأحد إنك شفّتي بالمزار..

- لاه يا بني لاه!! خجلان، لا سمح الله، من زيارة المقام المبارك؟!

- لا يا أم علي، الله يسامحك.. وأنت سيدة العارفين، سر الإيمان والعبادة بالصدر وليس
بالتباهي فيها بين الناس والدور.. والثواب أكبر إذا ما الواحد صلّى بينه وبين حاله لربه.

- والله معك حق. ابن حلال يا بني يا شمعون. الله يظلم من ظلمك.

كان ذلك كافيا لينتشر في كل أرجاء المنطقة خبر ثبوت معجزة الماء المبارك. فحتى هذا
الذي يقولون عنه (شلوعي كافر!)، الذي لم يكن يخاف الله من قبل، يأتي في السر للتبرك بماء
المزار المقدّس. ولما كان الناس يكذبون تلقائيا نصف ما تقوله زنّوب، ويغربلون المتبقي، تاركين
ما يعجبهم وما لهم مصلحة فيه، لجأ أكثرهم شكّا إلى الشيخ خادم المزار، مستفسرين عن صحة
الشائعة التي تقول بلجوء الشيوعيين إلى المزار حتى يحميهم الله من ملاحقة المخابرات ويشفيهم
من عللهم. أكد الخادم أنّه لا يعرف من هم الشيوعيون في هذه الضيعة وكيف يكونون، وأنّه لا
يظن أنّ هناك شيوعيين في هذه الضيعة المؤمنة، ولكنهم إذا كانوا يعنون بسؤالهم المسكين
شمعون، فإنّه كثيرا ما يأتي إلى المزار، ويسأله هو الشيخ البهلول في أمور الدين والإيمان، وأنّه،
أي شمعون بن عبالا، لا يريد لأحد أن يعرف ذلك خوفا من الناس الذين يعجبهم أن يكون كافرا

ولن يرحموه لو عرفوا بإيمانه وسيفضحونه لو عرفوا بقصة مجيئه إلى المزار. وأن هذا المسكين الفقير لا يقبل، على الرغم من ضيق حاله، إلا أن يترك ما فيه الخير في صندوق المزار.

وأما سميرة المكلفة بمهمة خاصة فعرفت كيف تستغل اضطرار المختار للسفر إلى المدينة لعلاج زوجته، وانتشغال ابنه بالفرجة المشرعة على عينيه وراء بخار غسيل أمها، عرفت كيف تستغل الفرصة لتسلب من بيته ما كان فريق التحنانية بأمس الحاجة إليه. فلم يكن حصاد المزار قد أعطى أكله بعد. وأما بعد ذلك فلم تنقص الفطنة شمعون لمعرفة ما له من المال وما لغيره. قلادة ذهبية احتفظت بها سميرة لنفسها، ولم تعترف لأحد بها، بل حشرتها في شق في سور بيتهم وطبنتها في غفلة من أهلها، وأما الأساور، التي تعرف نساء الضيعة عددها فكانت المرأة قد تزينت بها في طريقها إلى الطبيب. ستمائة وثلاث عشرة ليرة ليست مبلغا عظيما، ولكنها أجدى من تنكة الزيت التي خرجت بها القرباطية من بيت الشيخ بوعلي مروان. لم تحتج سميرة لتهديد المختار أو ابنه بفضيحة كما فعلت القرباطية. كان الشيخ قد ترك على سروال الأخيرة ملايين من الأعراس الباحثة عن جاميطات تواقّة للقاء. لا أحد يدري كم مليوننا من ذوات الذيل النحيل والرأس الكبير في السننتر المكعب الواحد من ماء الشيخ. وحين ذهبوا لضرب المنديل عند الشيخ البهلول خادم المزار، فلم يكن المختار ليلجأ إلى بوعلي مروان والمشايخ الآخرين الذين يعرف ماضيهم وحاضرهم معرفة اليقين، هو اختار خادم المزار لأنه أكثرهم بهللة وأقربهم إلى الله، قال لهم الخادم: سارق المال والذهب منكم وفيكم! وبين أن من الخير لهم أن يتستروا على الفضيحة.. ووعدهم بأن لا يخبر أحدا عما رآه. وفي ذلك المساء أكل كل من شمعون والخادم دجاجة دون أن يلتقيا، وشربا من عرق التين ما تيسر لهما. وفي مساء ذلك اليوم نادى المختار ابنه، طالبا منه، ويمكن القول راجيا إياه، إخراج الروث من الحظيرة وتنظيف مؤخرات البقرات الثلاث. كان بيت الدواب غرفة واطئة ملحقة بالبيت، وكان فيها إضافة إلى البقرات الثلاث، عجلتان وحمار شاب وأتان. وما إن توسط الشاب الغرفة المظلمة حتى أدار أبوه المفتاح في قفل الباب، تاركا إياه في عتمة ذات رائحة نفاذة.

رصاصة وعلبة السردين

في الأوضة الصغيرة من بيت أهله، راح ابن عمّي رامي الدبابة يفكّ اللفافة البيضاء المبقّعة بالدم عن يده اليسرى. لم يكن قد مضى وقت طويل على انتهائه من رسم صورة بالفحم لرضيوان. كان وجه رضيوان مستطيلا يسهل رسمه. لم يكن رضيوان قد تطوّع في سرايا الدفاع بعد.. كان ابن عمّي قد تدرّب كثيرا على رسم صورة الرئيس، وبدا له أنّ من السهل رسم صورة لرضيوان. كانت الرصاصة قد اخترقت راحة يده بعناية. عرفت الرصاصة كيف تمرّ بين عظام المشط. في الحقيقة هو عرف كيف يوجّه تلك الرصاصة. كان أخوه الأصغر الذي يكبرني بعامين، قد أفلح في فتح علبة سردين، وتقطيع بصلتين، وأميرتين، يعني ثمرتي بندورة، من صنف أميرة، وكان زوج خالة رامي الدبابة يغالب لعبه على حافة السرير بانتظار أن يدعوه أحد ما لينقضّ على طبق السردين الذي ملأت رائحته فضاء الغرفة. كان قد اعتاد الجلوس على حافة السرير العسكري، كما يفعل جميع العسكر حين يشربون المنة ويلعبون الورق. فلم يكن في بيته - الغرفة الوحيدة في برزة- حين زرناه في دمشق، من الكراسي ما يكفي لدعوتنا للجلوس، نحن: ابن عمّي الذي هو ابن أخت زوجته وأنا ابن عمّ هذا القريب. للكلام طاقة عجيبة. كم أشعر بقوة هذه ال(نحن)! وكم أشعر بالنشوة حين أكون أنا وحدي مساويا للنحن! كنت أمضي ساعات في بيت المختار، أساعده في كتابة الوثائق من أجل هذه النحن: نحن مختار قرية عين الغار... أكتبُ مركّزا على ال نحن ساكبا في حروفها من الحبر ما يكفي لثلاث كلمات. كان المختار قبل أن تأمر قرية الرئيس بتغييره جدا لابن عمي رامي الدبابة، وكان ابن المختار، أي خال ابن عمّي، هو نفسه رجل المخابرات العسكرية الذي تسبب بتمزّق أريطة ركبة ابن أخته. المسألة وما فيها أنّ حمارا نهق بصورة مفاجئة، فيما كانا يقطفان قرون فول في أرض غريبة، من وراء الدغل فارتاع الخال وفرّ هاربا ولمّا رأى ابن عمّي خاله المتحصّن بهيبة المخابرات ومسدسها يهرب بهذه الطريقة ظنّ قطيعا من الوحوش ينقض عليهم فلحق بخاله وتعثّر بالتخم وسقط، فتمزّقت أريطة ركبته. كان ابن عمّي قبل أن تتمزّق أريطة ركبته يجيد الغناء، واستمر يغنّي وهو في الجيش. هي حالة نادرة تحتاج إلى دراسة! لدينا كثير من العسكر الذين يغنون. لحسن الحظ، لم يعق تمزّق الأريطة ثعبانه من الاندفاع نحو كل فائق يشتم رائحته، ولم يعقه هو عن أن يصبح ضابطا في الجيش فيما بعد. الضباط في الجيش الروسي أيضا يغنون. لكن كثيرا

من الحرب في أغانيهم. وأما أغانيها فعن أي شيء يخطر ببالك عدا الحرب. لا مكان للحرب في مشاعر العسكر، لا مكان لها في ذاكرتهم...لم يغنّ أحد لمرارة هزيمة عسكرنا في حرب حزيران، ولا تقول لنا أغانيهم شيئاً عن المشاعر التي انتابتهم في حرب تشرين.

كنا، ابن عمّي وأنا، نتعجّل الذهاب إلى القابون. كان خمسة جنود قد احتلوا صفّاً من الغرف هناك. واحد منهم كان من ضيعتنا، هو ابن خالة رضويان صاحب الصورة التي رسمها رامي الدبابة. كان رامي الدبابة قد أجلس المقاتل رضويان على كرسي من خشب التوت فوق ركام سقف مهدم. جلس المقاتل دون حراك كما أمره رامي الدبابة، محاولاً نسيان الروائح الكريهة المنبعثة من التراب المحيط به. القطط تطمر برازها بالتراب. لم يكن في بيت عمّي مرحاض. كنت أتناوب وأولاد عمّي على إخراج جدتنا المقعدة إلى أرض الأوضة المهذومة.

في القابون، كان لدى ابن خالة رضويان مسجّلة. لست متأكّداً من أنّه كان واحداً من مقاتلي سرايا الدفاع. كان لديه أغانٍ خاصّة بالمقاتلين. كانت تأوهات مها عبد الوهاب تفعل في المقاتلين ما يعجز عنه أقوى الجنرالات. وكما في طقس صلاة سرّي، جلسنا مجموعة مقاتلين ومدنيين اثنين لم يبلغا سن العسكر بعد، ابن عمّي ضابط المستقبل وأنا، على بساط عتيق، نصغي، حابسين أنفاسنا حيناً، زافرين حيناً آخر، إلى أغنية، تخاطب ما في السراويل. لم تكن تلك الأغنية إلا بداية الطقس...فبعدها نهض أحد المقاتلين وحشر في الصندوق العجيب شريطاً آخر، ومن هناك جاءت تلك العبارات البذيئة التي اكتشفت فيما بعد أنّ الرجال لا يستخدمونها عادة حين يجامعون نساءهم الشرعيات، ولا النساء يستخدمنها حين يجامعن رجالهن الشرعيون. لكنني كنت اكتشفت قبل ذلك، في غرفة العسكر، أنّ للبذاءة إثارة خاصّة، يصعب تحت إغوائها إمساك اللسان. كان من الواضح أنّها أقلّ حياءً منه. كان صوته منخفضاً، خجولاً، بينما كانت تقول عباراتها ضاحكة، بلهجة لبنانية. راحت التأوهات اللبنانية تفعل فعلها في العسكر الممسك كلُّ منهم بلجام ثعبانه.

ذات مرّة، قبل مجيء المشايخ إلى بيته بسنوات، جلس بو علي سلمى على حافة السرير في أوضة بيت عمي، إحدى عينيه على الثقب الدامي في يد رامي الدبابة والعين الأخرى على طبق السردين. وفيما انصرفت امرأة عمّي وأختها أم علي سلمى إلى مكان نجهله، رحنا ننتظر أن ينتهي ابن عمّي الجريح من تبديل الشاش. كان يقفن في عصر الثقب الذي أحدثته الرصاصات إلى أن ينزّ الدم. المزيد من الدم يعني المزيد من الراحة بعيداً عن السلاح، ويضحك قائلاً: مرملا.. لماذا مرملا؟ لست أدري. رحنا ننتظر أن ينتهي المقاتل من مرملاده ويطلق إيعاز: باشر طعام. كان زوج خالته بو علي أقدم رتبة منه، لكنّه لم يكن الأمر هنا. الأمر هنا هو رامي الدبابة في سرايا الدفاع، الرامي الذي قرّر فجأة اختبار سلاحه الفردي. كُنّا في ذلك العصر

ملتقىين حول علبتي سردين وصحن فاصولياء خضراء مطبوخة بالزيت. لو توقف قليلا عند " والعصر، إنَّ الإنسان لفي خسر!" لما فعل.. لكن ابن عمي أخرج مسدسه، فيما نحن ننظر إليه متسائلين عن حاجته إلى المسدس في وجبة الغذاء المتأخر، أخرجته وراح بفوهة سبطانته يتحسس مشط يده، ثم... ثم دوت طلقة. لم يصرخ رامي الدبابة. نحن الذين صرخنا، وركضنا لإحضار خرقة نسد بها الثقب الذي أحدثته الرصاصة في يده. أعطيناها الخرقة فأمرنا مقهقها: كلوا يا أولاد الكلب. عدنا إلى السردين والفاصولياء، تاركين له تدبر أمر الدم المتفجر من يده.

انحرف المشايخ، بعد أن تلاشت غيبتهم خلف شجيرات الرمان الممتدة على طول شارع لا اسم له، انحرفوا باتجاه (البقجة) حيث كان الدخان الأبيض يتصاعد من تحت لحم الخراف.. في هذا الوقت كان رضويان الذي تبين أن الصورة لا تشبهه في شيء ومع ذلك أحبها، كان قد تحوّل إلى بطل ومن بطل إلى فار من الجيش. وكان قد خرج من السجن المدني الذي حوّل إليه من سجن تدمر العسكري. كان في غاية السرور حين حوّلوه إلى سجن اللاذقية المدني.

لماذا لا يطلقون أسماء شهداء على السجن؟! كان بودي أن أقول: حوّلوه إلى سجن الشهيد فلان، أي شهيد كان. جدوا لي شهيدا يقبل أن يطلق اسمه على السجن. ليست المشكلة في أن هناك تناقرا عجيبا بين الشهادة والسجن، وليست في أن الشهداء لا يُسألون رأيهم حين تطلق أسماءهم على الأشياء.. إنما في شيء آخر يدركه من يطلق الأسماء بالحدس دون أن يضطر لهذه المحاكمات المنطقية. الشهادة ممكنة مع كل شيء إلا السجن. لم يرد رضويان أن يصبح شهيدا فصار سجيناً.. لم يكن لأحد أن يبعده عن نوافذ قاعات المدرسة الابتدائية. ليس هو العِلم ما كان يجذبه إلى شبّك غرفة الصف، إنّما التواجد قربهن. هنّ تلميذات الصف السادس. حين خرج رضويان من السجن أحضر قلبا من الخرز الصغير صنعها في سجنه لمعشوقاته الصغيرات وصديقاتهن، قلبا كتب على كل منها اسم واحدة منهن. كان حكم المؤبد قد خفّض إلى خمسة وعشرين عاما، قضى منها في السجن سبعا، انتهت بسرعة عجيبة. كان رضويان يعشق الفتيات أنفسهن اللواتي وقع في غرامهن معلّم الصف السادس، وحتى درجات التفضيل بينهن كانت واحدة لدى رضويان والمعلّم. بين الفينة والأخرى حين كانوا يستحضرون جرأتهم لتهديده، كان يحلو لرضويان أن يرفع ثلاثة من المعلّمين على ذراعيه وكتفيه ورأسه ويدور بهم متباهيا بقوته، ثم ينزلهم برفق إلى الأرض ضاحكا: أهلا بالأساتذة!! أهلا! هذه العضلات نفسها التي كانت ترفع الأساتذة وتنزلهم، رفعت رضويان من مقاتل في سرايا الدفاع إلى بطل للمصارعة في غمضة عين. كان هناك قد ألقى أرضا بأحد المتجبرين، فإذا بهم يأمرونه بمصارعة أبطال الجيش وإذا به يصرعهم جميعا، دون أن يقتلهم.

حين دارت حرب تشرين، كان رضويان يلعب الورق في مقهى برهو. كان العسكر جميعا قد استجابوا للرموز التي نودوا بها عبر المذياع، إلآه. فقد أصر على إجابة من يسأله عن سبب جلوسه في المقهى والحرب مشتتة هناك: ما عندي رمز، لا أعرف إلى أين أروح!.. أنا مصارع، بعمرى ما قوّصت رصاصة.. آه لو يعلق في يدي إسرائيلي، أنتم جهلة، سفلة، كلاب، خونة الخبز والملح وعرق التين وسمك السكمبري والسردين، لعنكم أبو بريص ومصطفى لطفي المنفلوطي.. تسخرون من ابن ضيعتكم! رضويان!! يا أولاد القحبة، أنا رضوان، المصارع البطل النمرود الشمشون الشّمّام الهزير أبو زير المقدم قاهر القوات المسلّحة على جميع الجبهات يا صراصير! ثم يقهقه رضويان. وحين جاءت الشرطة العسكرية لتقبض عليه بصفته فاراً من الجيش، لوّح لنا بيديه المقيدتين: لا يهكمم، راجع يا شباب. فرحنا حين نادانا ب(يا شباب). كانت عضلاته تعني لنا الكثير. في الفترة التي أمضاها في المقهى، وكان النبأ عن اختراق سعسع قد بلغ الجميع، كان رضويان يتمنى لو يأتي الإسرائيليون إليه، إلى هنا، إلى مقهى الضيعة، ليُري أبناء ضييعته، كيف سيطرح الغزاة أرضاً، ويجلس على صدورهم ويدخّن سيجارة شرق. كان قبل أن يُتوّج بطلا للجيش يدخّن ناعورة. تحسّر رضويان كثيرا على أنّ الإسرائيليين لم يأتوا إلى ضييعتنا، ولم تتح له فرصة مغالبتهم. كان يرى الحرب مصارعة حرّة لا مكان فيها لسلاح أبيض أو أحمر. كان كلّما حلّق طيران إسرائيلي فوق الضيعة يخرج من المقهى فرحا، فلا بد أن يهبط هنا مظليّون، ولا بد أن يمسك بهم. لكنهم لم يأتوا. جاءت سيّارة الشرطة العسكرية، جلس مديرا وجهه إلى الخلف مودعا إيانا، وعند أطراف الضيعة كان مجموعة من الشباب يركضون صوب البساتين بيد كل منهم بارودة بولونية ذات خمس طلاقات، يركضون للإمساك بطيّار تراءى لهم أنّ طائرته أسقطت هنا. لم يكن أحد منهم يجيد تمييز الطائرة السورية عن الطائرة الإسرائيلية. لم يروا الطيار الإسرائيلي في أي مكان. بين الراكضين صوب البساتين كان ابن معلمنا عاشق التلميذات الصغيرات. ابنه البكر الذي يعاني رهاب المرتفعات. يصعد سلّم بيتهم إلى الطابق الثاني دّباً، وينزله بطريقة عجيبة، كسيارة تسير على أربع قوائم دون دواليب، وجهه نحو السماء ومؤخرته تكاد ترتطم بالأرض. في الواقع يصعب وصف طريقة نزوله بكلمات. هي من ذلك النوع الذي يحتاج إلى كتالوغ، إلى دفتر إرشادات لتعلّم أدائها. فيما بعد، بعد أن سافرت إلى لينينغراد، وبدأت أصادق العناكب هناك اكتشفت، في الكتب طبعا، أن هناك عنكبوتا يمشي بطريقة ابن المعلم. كان الشاب يركض ممسكا ببارودته البولونية بيديه الشقراوين النحيلتين، كلّ همّه أن لا يضطر إلى القفز فوق خندق أو حفرة أو مجرى ماء. أصابني غمّ حين رأيته، خشيت أن يقفز في وجهه الطيار الإسرائيلي. لحسن حظّ أمّه أنّ أحدا لم يكن هناك.

واحد في كثيرين

أُطلق اسمي على كثيرين، لكنّ واحدا منهم يعنيني هو حفيد سكيبا، ويعينيه تكون رؤيائي كما تكون بعيني. سيأتي وقت يروي فيه ما رآه، وسيكون ذلك ما رأيته أنا أو ما لم أره وما لم يره، لكنّه سيكون مني كما سيكون منه. لماذا يعينهم اسمي أنا علي جاد الراعي الفقير؟ رأيت القوم يتجهون إلى الاستخفاف ببسطاء الناس واحتقارهم، رأيت المدارس تُعلّم احترام الحبر والاستهانة باللسان، رأيت الرجال تصنعهم الملابس وأمّا ملابسي فالطين على أذيالها والرقع في كل مكان، رأيت الناس يميلون إلى من يخالطهم ويسليهم ويلجأ إليهم وأمّا أنا فألجأ إلى خرافي، رأيتهم يكتفون بما يعرفون وينعمون بالظلام، يسمّون الضار نافعا على ما يرون فيه من نفع لا يدركون سواه، ويسمّون النافع ضارا على ضرر لا يعرفون ما قبله وما بعده وما يكون معه وبه، رأيتهم يضحكون كثيرا ويبكون كثيرا ويخافون الموت كثيرا، ورأيت نفسي على بعد غيمة بيضاء منهم تسكن المسافة التي تفصلني عنهم حيثما ذهبت وأنى حللت، ومع ذلك فما أن مت حتى كبر اسمي ونظفت رثائتي وصحبت وحدتي وعزلتي ونفّعت عيصالني الضار. أنا لست مفوّها ولم أقل شيئا مما كتبه وارثي وابن أخي علي جاد الصغير. لكنّها أشياء رأيتها وفكرت بها ونقلتها له بطريقة ما، رأيت لكل شيء طبيعة غير اللغة، رأيت كل ما رأيت فوق اللغة وتحتها ورأيت شيئا من اللغة، ورأيت ابن أخي يحولها إلى لغة لأنه لا يريدني أن أموت ولا يريد لنفسه كذلك الموت. رأيت نفسي أقول ما لم أقله وأرى ما لم أره، ورأيت نفسي يعجبني أنني رأيت ما لم أره وقلت ما لم أقله. أنا لست نبيا ولا قديسا. أم أكونهما دون أن أدري؟ رأيت أنني فعلت كثيرا مما فعلتم وتفعلون لكنكم لا تعلمون. تلصقت على النساء المغتسلات على ضفة الساقية ومارست العادة السرية وراء الدفلى والزرد والريحان، وتميّت لو ينفق شعر عاناتهن لأرى بوضوح أكبر نبع الحياة، رأيت نفسي لا أطيق الشّعري في كل مكان من الجسد وخاصّة في ذلك المكان، ورأيت واحدة قادمة من الشام صفحتا كتابها بيضاوان يفرحان الماء. بماء موضعها رأيت نفسي أغتسل قبل أن أعود إلى كتف الوادي وأغفو حاشرا رأسي بخاصرة واحدة من نعاجي. تلك القادمة من الشام رأيتها تتهل من مائي ورأيتني منساقا إلى ما وراء الأجمات. ورأيت أن إحداهن رأنتي مرّة فكادت تصيح إلى أن رأت ما لديّ فتظاهرت بعدم رؤيتي، فرأيت نفسي أفعل ما تفعلون، ثم رأيتها تأتي إليّ بدلوها طلبا للحليب. من أجلها اغتسلت بانتظام مرّة في الأسبوع قرابة عامين. لو علمت

النساء قيمة صمتي لأتى إليّ كثير منهن. لكنهن لا يعلمن فيحسبن الرجال سواء. ورأيت نفسي أحزن كثيرا لسفرها مع زوجها إلى مكان بعيد، فأهجر الساقية والأجمات وأعود إلى نعاجي، ورأيت نفسي مغمض العينين أستحضرها كل حين. ورأيت نفسي أعشق كما تعشقون، لكنني أداري عشقي وأصمت فيما تبوحون وتثرثرون. ومع ذلك كثيرون سُموا باسمي، لكنهم لم يُسموا باسمي كلّ بل ببعض منه. رأيت الناس يأخذون ما يعجبهم وما يطابق أذواقهم وميولهم وأهواءهم ويهملون الباقي، لكنني رأيت المهمل لا يني يعيش ويفعل فعله، مواجهها حيناً، موارباً حيناً آخر، مقلوباً في حين ثالث، كأنما هو بالضبط ما أردناه لكننا ما عرفناه. رأيت الناس يغمضون أعينهم عمّا لا يريدون فإذا بما لا يريدون يكن، يضمرون من الاسم شيئاً فإذا بالاسم يأتي بحمولته كلّها، وإذا بما فيه ينمو بطريقة هنا وبطريقة أخرى هناك، فيكون في مكان غير ما يكون في مكان آخر، ورأيت أن كلاً منا مكان.

رأيت للاسم الأوّل طبيعة اللحم والدم، أمّا الاسم الثاني فرأيته يأتي من الرماد. ورأيت الأهلين ينفخون في الرماد فإذا به ألف طين بألف لون وألف طيف وألف وجه، ثم رأيتهم يهربون عائدين إلى اللحم والدم. رأيتهم يسمّونه باسمي حين لم يكن يجيد إطلاق النار بعد ولم يكن يعرف من حماه إلا الجبن البلدي الذي كان يرسله لأبيه واحد ما من أصحابه هناك. علي جاد العسكري هذا رأيته يروي باسمي ما رأى وما جنى لسانه، رأيت يديه رقيقتين ناعمتين كيدي عازف كمان ووجهه كأنما فُدّ من الزهرة كوكب الصبح المنير، وصفيحته رأيت المشايخ يبتهلون بالعشرات مئين لأن تكون بيضاء، ورأيتهم يباركون القلم وما سطر غافلين عمّا يسطرون. ورأيت امرأة قتل أبوها ابنه المشلول تسمّي ابنها باسمي. رأيت المشلول في الثلاثين من عمره على شفا السقوط الأخير تمسك عيناه بذيل رداء أبيه الغاضب من السماء. رأيت الشيخ يدفع بابنه عنه دفعا قاتلاً، رأيت العاجز يتدحرج على صخرات السلم صخرة، فصخرة ثم يسكن في بركة ماء، وجهه إلى السماء. رأيت الشيخ يمزق السماء رافعا لعناته من قلب مفعم بالإيمان، لعنة مقابل كل صلاة لم تستجب لها القبة الزرقاء. رأيت الله لا يرسل له كبشا، كما أرسل من قبله لإبراهيم، رأيته غير أبه بنظرات المؤمنين يقول: ليس عدلاً أن تؤخذ روح بجرائر روح أخرى.. كنت أتمنى لو أن الإسلام أخذ أمثلة المسيح بالتضحية بالنفس وليس بالآخرين. رأيته يتوجس شراً من فكرة التضحية بالآخرين، ثم رأيت غضبه العارم من الظلم ينقذف من يديه إلى صدر ابنه فيريده. ثم رأيت ابنته تقول لحفيده كُن علي جاد فكان، ثم رأيت المسمّى ما أن يسمع شخير أمّه حتى يحشر يده في سروال أخته متظاهراً بالنوم، ورأيت أمّه تعضّه من تلك اليد وتبكي وتلعنني أنا، ثم رأيت أباه يعزله في غرفة الدواب، ثم رأيته في الليالي يتسلل عبر الحدود يشتري هناك ويبيع هنا، ثم رأيت له رفاقاً في سيارات ونظارات سود، ثم خمس رصاصات في الفخذ والذراع، ورأيت أخته تمسح جراحه

وتداويه، ثم رأيتَه أعرجَ يعود إلى الرجال السود، ورأيت جراحه تُسكن أخته هناك وزوجا لها يُقتل بعد حين. ثم ورأيت فتى آخرَ سمّته أخته الصغرى باسمي، طويلا نحिला حليق الرأس، في جلباب أبيض وسروال كمثلَه نظيف، يحمل عصا ويحرس عين الماء، يمنع عنها البشر ويبسّر ارتواء الدواب، ورأيت أحدا لا يلقي إلى ممانعته بالا، بل يتغامزون عليه مع أنهم يخاطبونه محبة بعلّوش، ورأيت أخت علّوش تكبر وترسم الشجر والطير والجان بانتظار أن تفتح نافذتها حمامة بيضاء، ورأيت ظل علي جاد العسكري يخيم فوق فسحة الدار مانعا عنها الشمس والهواء، فإذا بالألوان تجفّ وإذا بالجدران تتصدّع عن عيون تمتص الضوء ولا تطلقه كمثل عيون الأحياء، ورأيتها يعجبها أن تعجبه ويخيفها هواه، ثم رأيتها تنتظر الله أن يردم الهوة بينها وبين نفسها، فإذا بألوانها يعود إليها النسغ، ورأيت أخاها التوأم ينام على طريقة ويستيقظ على أخرى لفقء العيون ومنازلة العسكري المدجج بالسلاح. ورأيت وارثي علي جاد الصغير، وأقول ابن أخي لكي لا يختلط بغيره من العليين الذين يعنون لي ما يعنونه لأنفسهم، وليس لأن النفس أمارة بالسوء، رأيتَه يقع في هواها ورأيت قلبها يخفق لهواه، فسعدت لذلك أيّما سعادة وصنعت لكل ركن من حجرتها مرآة، وجعلت في كل عود من العيصلان حبة قمح، لا يأتيها سوس ولا يداخل جنينها عنكبوت. ورأيتها تحت شجرة خرنوب، قطف قرونها صانعو الدبس، حزينين ينظران إلى الأفق، ورأيتها لا تقول شيئا ورأيتَه لا يستطيع أن يقول. ورأيت علي بن سلمى يقدّم لأمّه هدية على طبق من ذهب، بريقه أضوا من ذهب حماه الملتف حول رسغ بناتها: افرحي يا أمّي! ضببطهما، جرّسيهما يا أمّي. وراح يصف لها كيف تعفّر جسدهما المحمومين بالتراب، ويسمعها فحيح ذلك العناق الذي ما تم، ليس لأنهما لم يبغياه أو قاوماه، بل لأنّه لم يتيسر لهما في أرضٍ تطل عليها عينا ابن سلمى وعيون علي جاد العسكري. رأيت سلمى تفرح وتشكر الله على عظمته وكرمه: الله كبير يا بني، الله كبير وعادل، انتقم لأخواتك، سبحانه هو المنتقم الجبار! ورأيت سلمى لا تأل جهدا في تجريس ابن أخي وأخت علّوش، ورأيت المعلم علي بن جميلة يمتلئ غضبا، فيمسك كعادته في فرحه وغضبه بدلو الطلاء ويعلو الجدار ضاربا بفرشاته البيضاء كل أثر لشائبة فيه، ثم رأيت بوعلي سلمى يمر من تحته ملقيا عليه التحية مقهقها: "أعجبك ابن صاحبك؟! أولاد أساتذة محترمين!"، ورأيت دلو الطلاء يندلق كما لو من تلقاء نفسه على رأس المقاتل الصاحب، ثم رأيت (السييا) تتقلب بالمعلم، ورأيت الناس يخرجون مولولين، ورأيت ابن أخي يحول دون خروج أمّه ابنة الشيخ، فيما هي تصيح باحثة عن سلمى: "وحوش سود، دهان سوريا كلّه عاجز عن تبييض وجوهكم المسخّمة"، ورأيت كتف المعلم يكسر وأضلاعه ترفس ورأيتَه يغيب عن المدرسة بعض عام، ثم يعود إليها فيطلي جدران غرفة صفّه بالأبيض، قبل أن يتوقف قلبه ويدفن في لحد قُطع من صخرة بيضاء على كتف التل المطل على جبل الصنوبر.

ورأيت حبيبة ابن أخي تنصب مراياي حراساً على زوايا محشرها المحاصر بالعيون، ورأيت علي جاد العسكري يرسم لإيقاعها في حفرة لا تخرج منها إلا مكسورة الاسم، رأيتته يفكر بطريقة لجلب ابن أخي الصغير وحبسه في قبو سابع لديه. رأيت ذلك هيئنا عليه، ثم رأيت أمه تهاتفه راجية إياه أن (ينتبه إلى حاله)، ورأيتها، أمام إصراره على معرفة سبب قلقها المفاجئ عليه، تحكي له عن منامها الذي تكررت رؤيتها له ثلاث مرّات هذا الأسبوع. جاءها في المنام فارداً رجليه على سطح طاولة مكتبه السنديان، مسنداً رأسه إلى الخلف، مغمضاً عينيه على حلم، يقضم تقاحة فإذا بها بصلة عيصلان تسدّ حلقة وتكويه، يحاول إخراجها فتغوص أعمق، ثم تسمع أصوات خبط على بابها، تفتح فتري سيارته السوداء ولا تراه. "خوفي عليك يا عين أمك أن يكون بوعلي جاد كتب لك (كُتبية)، كُتبيته لا تخيب، خوِّفتني شغلة العيصلان، يا علي، يا حبيبي انتبه لحالك، يا عين أمك..!". رأيتها تقول له، راجية إياه ألا يستهين بالمنام، ورأيتته يربط بين العيصلان ومراياي وابن أخي، ورأيتته يرجئ ما نوى عليه إلى أجل آخر. ثم رأيت أم علي جاد العسكري تلجأ في غبش الفجر إلى الشيخ العجوز أبي: "يا شيخ، اسمعني يا بوعلي، خلّ ابنك يكف بلاه عن ابني، الله يطوّل عمرك. ابنك ناو على شر لابني، حرام عليه.. حرام..!". ورأيت أبي المشلول من شدّة ذهوله يكاد يمشي خلفها. نادها: يا سبحان الله، يا سبحان الله. ثم رأيت رجالاً غرباء يأتون بثلاثة عجول حمراء ذات قرون وبأحد عشر خروفاً غسل فروها جيداً قبل الذبح، فلا يصح في هديّة أن تقدّم متسخة، وخمسة جداء تدلّت آذانها كأجراسٍ سرق لصوص الكنائس ألسنتها فما عادت ترن، ورأيت علي اللحم، وهو علي دون جاد، ينحرها أمام بيتنا ثم ينقلها رجال آخرون إلى دار أم علي جاد العسكري ليقيموا حول لحمها الصلاة، ورأيت أن اللحم يوزّع على صواني قش كبيرة إلى جميع الدور ورأيت اللحم لا يدخل دارنا، ثم رأيت يد أبي تشير إلىّ بذبح الكبش كبير الخراف، ورأيت عينيه تقطعان على لساني طريق الاعتراض، ثم رأيت دم كبشي يغسل دمها، ثم رأيت صوت أبي واثقا يعلو كتلة اللحم الدافئ: اطعمه للكلاب!

في جورة الأعرور

بعد أن اطمانت أم علي إلى انغلاق باب بيت الشرطي الخلفي على حميروش، انحدرت باتجاه جورة الأعرور. كانت قد مسحت بعينها الشارع المفضي إلى باحة المدرسة والزاروبين المتفرعين عنه، وأطلت برأسها إلى الباحة من باب المدرسة الحديد، وألقت نظرة على حواكير التين، ولما تبين لها أن أحدا من الأولاد ليس هنا أو هناك، اتجهت إلى الجورة متأكدة من أنها سترانا هناك. أم علي صديقة شياطين التحتانية الصغار وصديقة جميع أشقياء الضيعة. كانت أم علي تكره أولئك المنضبطين، المرتبين دوما، النظيفين دوما، الحليقين دوما، الذين يطأطئون رؤوسهم حين يلقون التحية وينصرفون دون أن يلتفتوا إلى اليمين أو اليسار، الجادين الذين يظنون الجد في قتل المزاح، الذين لا يلعنون ولا يشتمون ولا يخرجون عن أطوارهم أبدا، الذين لم يكسروا نافذة ولم يخلعوا بابا ولم يقفوا عن سور المدرسة يوما ولم يسخروا من آبائهم ومعلميهم ومشايخهم، وكانت تكره الكذابين والجنباء، الذين يهربون من النار والريح والمطر في أجسادهم وفي الطبيعة. ومع أن أمي كانت على خلافها تحب الأولاد المرتبين المهذبين المنضبطين إلا أنها كانت تكنّ لأم علي تقديرا كبيرا. كان ذلك يعود إلى أنّ أمي ابنة شيخ فقير تعرّض للظلم، تأمر بعثو الضيعة مع الحبيشي الذي كان جدي قد شجّر معظم أراضيه بأشجار الزيتون وشملها بعنايته إلى أن أتت أكلها. أسرّ البعثيون للإقطاعي بأن قانونا سيصدر بين عشية وضحاها يعطي الشيخ حقا بتملك الأرض التي يعمل بها، وما عليه هو إلا أن يطرده بأقصى سرعة قبل فوات الأوان، وقبيل مجيء لجنة الإصلاح الزراعي بساعات أفتعوا الحبيشي بالتنازل لهم عن بعض أملاكه مقابل تسترهم على أراضيه التي لم تشملها قيود المساحة بعد، فما وجد صديقهم اللدود مفرا من الانصياع. لم تكن أمي ترى في المظهر اللائق والسلوك الحسن ما يعيق روح التمرد في شيء. كانت أمي ترى أن على المرء أن يكون كبيرا في كل شيء، وفي الدفاع عن كرامته والثأر لكبريائه وفي حماية عرضه وماله وأهله على وجه الخصوص، ولذلك فقد كانت حليفة لأم علي، على الرغم من أنّ أمي " لو طبقت السماء على الأرض"، وهو تعبير لها، لم تكن لتدخل الخمارة التي تقضي فيها أم علي ساعات بين الرجال "حتى لو كانت المكان الوحيد الذي يوهب فيه ماء الحياة". كانت أمي تكره الرجال الذين لا يليقون بالرجولة. كانت تكره معظم

رجال الضيعة وترى أن النساء أقوى منهم، ومن غير العدل أن يحكم الرجال نساءهم فيما النساء يصنعن الحياة، محاطين حتى عتبة الاختناق برغوة ادعاءات الرجولة الفارغة.

حين أرسل جدي الشيخ ابنته إلى المدرسة التفت إليه القوم بريبة وقلق، خائفين من أن يكون قد أصابه مسّ من جنون: أيعقل أن ترسل ابنتك يا شيخنا إلى مدرسة كلّها صبيان! كانت ابنة الشيخ قد تجاوزت الثامنة من عمرها وكانت تعلّمت فك الحرف على يد أبيها. حاول الشيخ البحث في حارة المشايخ عن صغيرة كمثّل ابنته تكاتفها على مقعد الدرس، فلم يرض أحد بإرسال ابنته. وأمّا في حارة العوام فقد وجدوها فرصة للسخرية من الشيخ الذي لم يردعه إيمانه عن وضع ابنته على أول طريق الشيطان. هم أدركوا بغريزتهم أنّ الشيطان أبو المعرفة فاجتنبوها لأنّها منه. فكل من يسأل خارج مظلة اليقين يفتح صدره للريبة والريبة بيت الشيطان. يخيل إليّ الآن لو أن الشيخ قصد حارة العوام لأقنع غير واحدة بمرافقة ابنته إلى حيث، على جدار موغل في السواد، تولد الكلمات بيضاء. وفي أواسط الأسبوع الثالث من الفصل الدراسي الثاني فشل المعلم رغم قوة حجته وحذاقته في إقناع الشيخ بالإبقاء على ابنته التي تجاوزت أقرانها في امتلاك الحرف. الفقر لم يكن قد ضيق الخناق على بيت جدي بعد. كان لا يزال لديهم ما يقرون به عابر سبيل وما يولمون به لضيف. لكن الفقر جاء بعدها، أسود جاء. كثيرا ما استحضرّت أمّي ذلك المساء حين عرّج غرباء للمبيت في بيت جدي وبكت جدتي ضيقا فلا طحين في بيتها وضاق صدر جدي ونظر إلى الله بعتب فلم تبق دمعة عرق واحدة في أي من الدمجانات الثلاث. حينها لجأت جدتي راجية الله ألا يكسر بخاطرها إلى وردغان العجوز التي كانت، على خلاف زوجها الذي كثيرا ما كان يقذف البنيّة بما يقع تحت يده من أشياء صلبه، تبتسم لشيطنة ابنتها التي كانت تلقّب على الرغم من أنّها لم تكن قد تزوّجت بعد بأم علي. تولّت أم علي حمل الدمجانة ورافقت جدتي إلى البيت، وهناك باركها الشيخ بدعائه وصلواته، كما بارك أمّها وردغان التي فرّجت كربه. لم تسأل وردغان زوجة الشيخ ما لا مقابل العرق. كانت (الكلكة) تعمل في بيت وردغان دون انقطاع، ولم يكن البائعون قد يئسوا من قدرة الشيخ على تسديد ديونه بعد. منذ ذلك الحين احتلت أم علي الصبية حاملة ماء الوجه مكانة خاصة في بيت جدي، وبقيت لها هذه المكانة بعد أن تزوّجت وكانت وردغان قد سقطت وكسر حوضها وماتت قبل أن تتمكن من النهوض ثانية.

حين اجتازت يمين أبي عتبة الدار راسمة على التراب عزمه على طلب يد الصغيرة ابنة الشيخ، باركت أم علي خطوته، ووعدته بأن ترقص في عرسهما حتى مطلع الفجر، وأن يكون كل ما يشرب في العرس هديّة من خمارة أبيها وكانت الخمارة لا تزال تعمل بعد على الرغم من موت العجوز وردغان. انشغلت أم علي بترتيب مأدبة العرس فيما انشغلت جدتي بترتيب شؤون

العروس. ومع أن أهالي الضيعة وكلّهم دعي إلى العرس استغربوا اهتمام أم علي الخاص بالعرس على الرغم من أن أية علاقة قرابة لا تربطها بالعروسين، لكن أحدا لم يسألها عن سر اهتمامها، خشية لسانها السليط. وبعد العرس بأسابيع راحت جميع طرق أم علي تتحو بها نحو دار المعلم وابنة الشيخ، راحت تبحث عن اصفرار على وجه العروس، تسأل عن دوخة، عن إقياء، وإذا بها تزغرد حين أنبتت بالحمل وتدلّق في جوفها ما يرضي باخوس وعشتار معا.

وحين قطعت أم علي، وهي أم علي أخرى، أم علي (الداية)، حبل سرّي وربطته ربطا غير محكم ما زال يذكّر بنفسه، لكأن الحبل عاكس صرخة رفضي الأولى فخرج من الرحم مؤكدا أن لا مفر من ذلك، فسواه يعني الموت! حين فعلت ذلك، وبكت جدتي نادبة صغر حجمي، منتظرة أن يُلقى بي بعد ساعات في حفرة صغيرة ويهال على وجهي التراب، حينها مسحت أم علي جسدي الصغير بنبيد أحمر، فزاد حمرة على حمرة وأعلنت أنني سأعيش، قائلة اتركوه لي وسترون أي شيطان سيخرج من هذا الجني الصغير! وبعدها بأيام مرّت غجربة بالديار فغافلت جدتي زوجها الشيخ ورجتها أن تقرأ طالعي، فنظرت الغجربة إلى عيني العجوز الطيبتين وكشفت، طامعة بعطاء سخي، نبوءة ترفعني إلى مصاف العظماء إن بقيت على قيد الحياة.

يومها نذرت جدتي، كي يبقيني الله على قيد الحياة، عجلا أحمر سمينا يُشترى من أول راتب أتلقاه من الدولة في حياتي. وكم كانت مفاجئتي وضحكتي كبيرتين حين اكتشفت أن ثلاثة عجول نذرت من راتبي الأول، هي عجل جدتي وعجل خالتي الذي لم تحدد مواصفاته، خالتي نفسها التي أخرجت بعد نذرها بعشرين سنة أعمال لينين وماركس وانجلز من مكتبي وأحرقتها في غفلة مني حين سمعت بحملة اعتقالات. كان ذلك إجراء احترازيا. كان العسكر قد علّموا الجميع كيف يحرقون الكتب. وأمّا العجل الثالث فكان نذر أمّي. ولم أف بأي من النذور، إلا إذا كان جحش بارود الذي ذبحته فيما بعد يعوّض عنها جميعا، فقد تبين أن راتبي لا يشتري نصف عجل. تذكّرت شايوك تاجر البندقية. ليست المسألة في كميّة اللحم، بل المسألة في أنّ الضحية يجب أن تُقرأ عليها الفاتحة قبل الذبح، يجب أن تعلم من أجل من تؤخذ روحها الآثمة. فهل يمكن ذبح نصف العجل وإبقاء نصفه الآخر حيّا. فذبحنا جحش بارود كما سترون، ونسبنا أن نقرأ الفاتحة على الروح الحمار فيه. لم يكن نبيل النصراني حاضرا بيننا، فلعلّه كان سيقف بيننا وبين الحمار الضحية. تتلمذ نبيل على أبي. لم يكن في ضيعتنا نصارى سوى العائلة التي استقر منها نبيل في صفنا. كان نبيل يصغي إلى دروس التربية الدينية الإسلامية وإلى ما يدفعنا أبي المعلم إلى قراءته من آيات، وكنا نصغي إلى شروح الديانة المسيحية التي تتخلل درسنا من أجل نبيل. رقد الإنجيل والقرآن في غرفة صفنا على طاولة واحدة، وكثيرا ما كان أبي يتنقل بينهما متوقفا عند قول هنا، مقتبسا شاهدا من هناك. أحببنا مريم على حب القرآن لها، وقدّسنا عيسى

على ما فيه من روح الإله. لكن موقفنا من الحمار أضحية إسحق بقي مشوشا. بعضنا أحب في الحمار طاعته وخضوعه، الصفتان اللتان حباه الله بهما دون جميع الكائنات وبفضل منهما حُصَّ ليكون شاهدا على ولادة المسيح ورفيقا له في رحلة دخوله إلى أورشليم، وبعضنا الآخر كان أكثر ما نقره في الحمار قبوله بأن يركب ويجر ويضرب ويتقل عليه بالأحمال دون اعتراض أو امتعاض، وحتى حين أسقط أم علي عن ظهره ففجَّ رأسها، لم يحدث ذلك تمردا منه، بل حدث ذلك بسبب من ذبابة خيل استقرت تحت ذيله وليس بسبب من رفضه أن يُركب. وأمّا آية ركوعه التي جعلت اليهودي العنيد يعتنق المسيحية مع نفر من صحبه على يد القديس أنطون فلم تعجبنا، كنا نريد منه أن يرفس أقرباء يهوذا أولاء. كرهننا يهوذا بمقدار حبنا لابن مريم، وتمنينا لو يبعث يهوذا من جديد كي ننتقم منه. لكننا كنا نريد للانتقام أن يحصل بحضور عيسى بن مريم، كنا نريد أن نجلسه على كرسي، باحثين عن الرضى في عينيه، فيما نحن نعذب الواشي اللعين. كنا نتوسل لدى ابن مريم قبولاً بانتقامنا: الله هو من ينتقم، هو المنتقم الجبار! قال لنا أبي المعلم. لم يعجبنا ذلك. فلماذا يحرمننا متعة القصاص، ورؤية الندم في عيون المذنبين، تاركا لنفسه ذلك حيث لا ينفع الندم. كنا نريد للندم أن ينفع، ونبحث عن دليل نقيمه هنا: حلقة الانتقام الشيطاني لا تنتهي، بل هي تتوالد ذاتيا وتتسارع كلما بدا لنا أنها تخبو وتتباطأ نحو التلاشي. قال المعلم. لم يعجبنا ذلك.

بعد قرابة خمس عشرة سنة من ذلك اليوم الذي مسحت فيه أم علي جسدي بروح الكرمة الحمراء، قبيل أن فعلت جدتي بزيت الزيتون، تناولت المرأة واحدة من تلك الزجاجات المسكوبة من بللور سندسي وأفرغت في جوفها ما يكفي لاتخاذ القرارات الحاسمة، وريثما انكشفت جورة الأعور أمام فستانها الأبيض المنثورة عليه أزهار الربيع، كانت يد باخوس قد مسحت شرابينها وصولا إلى أطراف أصابع قدميها ويديها. حينها جاءها الوحي من أصابع يمينها التي ما خابت مذ فعلت أول مرة. تلك الرائحة كريهة، لكنها رائحة الحقيقة! فكّرت أم علي، ثم سرعان ما قرّرت. كانت أم علي في طريقها إلى جورة الأعور قد سمعت بالاجتماع الذي دعا إليه الشيخ بوعلي مروان في منزله المكّم بتخوم السماق على أطراف الضيعة من جهة الكاديك. لم تكن أم علي بحاجة إلى استراق السمع إلى ما يدور هناك، فقد كانت على معرفة كافية بجميع من تتادوا إلى هناك، وبالندالات التي يمكن أن يجتمعوا عليها. نسيت أم علي في طريقها إلى جورة الأعور أمر العسكر فقد احتل مساحة العداء في روحها هؤلاء المجتمعون على مرمى حجر من هنا. لم تتردد أم علي بقول ما يجب فعله. واضحا رأيها كان، وطريقة التنفيذ كانت واضحة أيضا، ولكنها قالت له لواحد أحد وليس للجميع. قالت له (مَش)، وإياه ستعرفون.

تثبيت رأس الثعبان

لم تكن صدفة أن بنى بوعلي مروان بيته في هذا المكان بالذات. فلو مشى إلى أطراف بستانه المظلم لأمكن له أن يطلّ على درب المهريين الحراجي الضيق الذي تضارس مع السفح صعودا ونزولا انتهاء بخليج جبّور الذي ترسو فيه مراكبهم القادمة تارة من تركيا وطورا من قبرص وفي أحايين ثالثة من لبنان، وفي أكثر الحالات من بواخر ترسو بعيدا عن الشاطئ محمّلة بأنواع مختلفة من البضاعة المطلوبة هنا أو المعدّة للعبور إلى أرض أخرى. ومن هنا، على بعد خطوات من تخم السّمّاق الجنوبي الغربي يمرّ المتعبّدون إلى (خضر) الكاديك، وعلى بعد كرمين منه تقع صخرة عظيمة تتوسط دغلا عهيدا مظلما من الغار والسنديان والخرنوب، ينز من خاصرتها الماء في موضع وثن وخامس، كانت قبل مجيء بوعلي مروان موثلا للعشاق، يرتادون ظلالها، ويرتشفون خضرة غارها وينهلون من مائها ويتأهلون. وكما ينبغي لطقسي يجيد الولاء ويعرف أين تكون خطوط المقدّس الحمراء وكيف تكون، ويعرف كيف يرضي أولياء نعمته، نحر بوعلي مروان خروفا في جورة كل عمود من العواميد التي سيقوم عليها بيته المبارك وجعل دم الضحايا يروي ترابها قبل نصب الحديد فيها. وكما يليق بعارف بسرّ الدم، فقد جاء بوعلي مروان بشيخ لم يكن من رفاقه السابقين في المخابرات ولا من مساعدي الجيش وضباطه الصغار الذين رأوا في المشيخة تعويضا عمّا تحسّروا عليه هناك، وصرفوا من الخدمة دون الارتواء منه. فهو نفسه لم يكن مؤمنا بأيّ منهم. كما لم يكن الشيخ الذي جاء به بوعلي مروان من المتعبّدين الذين لا يبخلون بالوشايات، فقد كان يعلم كم يسخر أسياده من هؤلاء، إنما جاء به من المشايخ البهاليل الذين ينفرون من كل ما له علاقة بالدولة، من الدولة كلّها كما عرفوها موثلا للفساد ولتخريب الضمائر والعقول وحاضنة لصغائر البشر ولغرائزهم، تتميها حتى تفيض عمّن هي فيهم إلى غيرهم من الأقربين إلى الأبعدين من أجل مجد الشر وخلوده، كما يفيض الحقد والصغار والوحشية من دواخل البشر إلى كل ما ومن حولهم. الدولة كلّها شر، فمن يقول إنّه لا بد منه، إذا كان المستضعفون قد رأوا جوهرها الحقيقي في تجلّياتها الدموية المستبدة الظالمة على مدى حكم الحاكمين الذين جعلوا منها بناء على شاكلة ما بناه الشر فيهم. فانكفأ البهاليل عنها وتبهل كل من أراد لنفسه خلاصا، وكل من لم ينس أنّ لنفسه عليه حقا، وانطوى كلّ على ذرات روحه الراضية ألف انطواء من أجل ألا تكنسها الريح الوحشية. وليس للبهللة هنا علاقة مباشرة بجنّات

عدن ولا بخلص النفس إلى الله، إنما هي عبادة تنطوي على انتظار هنا والآن للذي يجب أن يتجلى في هذا المكان بالذات وليس في أي مكان آخر، عبادة تقول بخلص هنا في الأرض ووعده على الأرض، تاركة لله ما له. لكنّها عبادة المهزومين.

قصد بوعلی مروان شیخا من البهاليل لا يوقن بأي شيء سوى بأن الشر سيد هذا المكان وأنّ الله توارى خلف سبعة أبواب مشيحا بيده الجلييلة عن هذه الأرض المبتلاة. قصده بوعلی مروان متظاهرا بالندم عما فعله بوصفه عبداً مأموراً للقامة عيشه تأتي من طاعة الأوامر، وأن أولئك الذين رُدّت مصائرهم إليه ممن قضوا في السجون سنوات ومن ما زالوا فيها من أبناء ضيعته وجوارها ومن اختفى من الغرياء (والسموات السبع!) ليس هو السبب في أقدارهم البائسة.. خطرت فكرة الاعتذار ببال بوعلی مروان لأن العامل الذي حفر له أساس البناء ضحك ساخرا حين أخبره مكتريه بالذبايح التي ينوي إرواء جور الأعمدة بدمها، قائلاً له: ما رأيك لو تشوي لحمها بنار التقارير التي قضيت فيها على الناس يا مروان، نارها أقوى من نار الحطب بكثير!! لم يخاطبه باسم ابنه، فالمخاطبة بالابن تعني هنا الاحترام.

تعلم الشيخ بالمرض، مشيحا بوعلی مروان بابتسامة ذابلة دامعة، فلجأ الأخير إلى آخر تربط زوجته به علاقة قري، فاعتذر، بدوره، بلطف أسفا على أنه ليس في ذاكرته ما يقرأ منه على العواميد، وليس في الحكمة التي ورثها عن جدّه ما يفيد أخاه مروان في شيء: ...فيك وبجذك وبحكمته!! قال في نفسه، متظاهرا بقبول الاعتذار عن طيب خاطر. وهكذا، فما كان من بوعلی مروان إلا أن لجأ إلى المشايخ المحترفين. لكنّه، خلاف بوعلی سلمى الذي جاء بكوكبة منهم على رؤوس الأعيان والملّك أصحاب الأطيان، اختار لنفسه أكثرهم رثاثة. كان شيخا صغير القد، أحمر اللحية، أشعثها، وكان رأسه أشبه بمغزل مدور من أعلى، مدبب من أسفل. كان بطريقة ما يشبه طائر الهدهد. ولعل شبهه بالهدهد كان الشيء الوحيد المثير للرهبة فيه. أليس الهدهد طائرا ملعونا في مكان مقدّس في آخر! أطلق اسم الهدهد على الشيخ الضئيل القد، ليس بسبب من شبهه بالطائر المحير، إنما بسبب من احترافه اصطياده والتهامه مع كأس من عرق التين قبيل صلاة العشاء. ولعلّ الشيخ أدمن اصطياد الهدهد والتهامه نكاية بشريعة موسى التي حرّمته مع النعام وأنواع الباز والصقور وغيرها من الطيور الجارحة، وجعلت من يلمس جثته نجسا إلى مغيب الشمس حتى لو غسل ثيابه واغتسل، فكيف بمن يأكل لحمه. كانت زوجة الشيخ الهدهد تنتف ريش الطائر وتشويه لزوجها الذي كان حجم ما تريده منه على غير وفاق مع حجم صاحبه. كان شعور الامتلاء به لا يفارقها، ولم تكن تبخل بالحديث عنه لجاراتها اللواتي لم يكنّ يزدن إيمانا به ولا رغبة فيه على أية حال. كان الهدهد قد أليف بناء أعشاشه بالقرب من مرجة صغيرة تتوسطها الطريق المؤدية إلى مزار الكاديك. يبني الهدهد أعشاشه بالقرب من

الدروب المطروقة هربا من أبناء أوى والضباع. لم يفلح أي هدهد وقع في يد الشيخ بالإفلات، ولم يتمكن أي من هذه الطيور الجميلة من نقل مورثة الخوف من المشايخ ذوي اللحي الحمراء إلى من سيأتي بعده. استمرت طيور الهدهد في الوقوع بشبكة الشيخ.

لبى الشيخ الهدهد الدعوة شاكرا ابن أخيه بوعلی مروان -دعاه متوددا بابن أخيه- على اختياره له، وراح يكرر مباركاته لعمارته مع كل لفة من لفات عمامته البيضاء الطويلة. وفي هذه الأثناء ساعده بوعلی مروان في ضبط ذيلها فتمنى له رضى الله والوالدين عنه، وقال مازحا: " ها..ها، والله أنت ماهر وجاهر للمشيخة، ما رأيك لو تصير مئا يا بوعلی، لكن وأنت سيد العارفين اسم مروان عندنا ملعون ولا بد من تغييره، ما رأيك بلقمان بدلا من مروان.. إي والله اسم شيخ جليل بوعلی لقمان!؟. ولم يكن بوعلی مروان يحتاج إلى أكثر من هذه المازحة، فحين لجأ إلى الشيخ الهدهد خائبا ممن سبق أن طرق بابهم، راودته فكرة الاستغناء عن المشايخ، وابتسم لفكرة أن يصير شيئا نكايه بهم: سوف يحترموني غصبا عنهم، وسوف أؤمهم! وسيبقى اسمي مروان.. الشيخ مروان نكايه بهم!! الشيء الوحيد الذي كان يخشاه رؤية السخرية في عيني أبيه العجوز. كان واقفا من أن الرجل سيقطع الطريق عليه ولن يقبل، هذا الرجل الذي من ظهره خرج، بصلواته حتى تقبل بها السماء. وكعادة المرتابين كان يخشى أن يفلح ابنه الأثم الملوّث بدماء الأبرياء وأموالهم وأعراضهم في إقناع الله بتوبته، وهو التوّاب الرحيم، فيعفو عنه ويضعه على رأس صفحة جديدة من الآثام. ليست المشكلة في الله، المشكلة في البشر المساكين الذين سيدفعون ثمن الرحمة! يجب أن أصلي من أجل ألا تشمل الرحمة أمثاله. فكّر العجوز غير مرّة حين راحت عجوزه تولول فيما أصابع يديها المزرقّة العروق تفصل الزيون عن حبات القمح، شاكية ظلم ابنها وعقوقه. تبع بوعلی مروان الشيخ الهدهد متظاهرا بالخشوع، لينجر له خازوقا من السنديان وليدلّه على ذلك المكان حيث رأس الثعبان الممسك بقدره وقدر أرضه وساكنيها ومن في مائه يرتسمون، فيقوم هو بوعلی مروان بدق الخازوق وتثبيت رأس الأفعوان ومنع الشر والفوضى عند داره وأهلها. وكما ينبغي لبيت رفع من أجل أن تتدفق الحياة فيه جيء بالقرايين ليجري دمها في أساسه فإذا بأرواحها تحرس روحه، وإذا به يتقمصها دون حاجة إلى قرنين. جرى تقديم الذبائح في ساعة مبكرة من الصباح. وفي مساء ذلك اليوم خرجت أم علي مع مجموعة من صويحاتها كعادتهن إلى الحواكير، وكان القمر في يومه العاشر إلى أربعة أيام من ازدياد قبل أن يبدأ قرصه بالتراجع، ومع ازدياده كل شيء يزداد. يتمنى المرضى أن يكون مرضهم مع نقصانه، ويسألون بخشية متوجسين خاشعين في أي يوم قمري هم حين يعتلون، ويتمنى الكسّابون أن يعقدوا صفقاتهم مع ازدياده ليكثر مالهم، ويخرج المعوزون القروش الفضيّة اللون من قيعان جيوبهم إذا صادف أن نظروا إلى السماء يوم ولادة الهلال ورأوه، يعرضون عليه قرشهم

مستمحين وجهه الفضي عذرا على طلبهم الدنيوي، متوسلين مضاعفة فضتهم فضة، وفي أيام النقصان يسألونه التلطف بهم وتخفيف بؤسهم، فما أهونَ على من يحسر أمواه البحار أن يحسر بؤسهم وعوزهم إلى قيعان التتين وشواطئ الضد.

- مال الضد، يا بني، مال الضد! قال الشيخ الهدهد لي ولابن عمي تاريخو حين رأيناه يستحث أتانه الرمادية العجوز على الإسراع. كان قد اقتلع غرستي زيتون، قاطعا رأسيهما، تاركا جذعيهما ينتصبان في فتحتي خرج الحمامة فيما جذورهما المشلوعة تنقي في حزن الخرج الريح الجافة بانتظار أن تودع التراب من جديد.. كان قد اقتلعهما من أحد بساتين الغرياء وعانقهما على ظهر الحمامة وراح يركل خاصرتيها بقدميه الصغيرتين. لم يفتن الشيخ حماما ذكرا خشية أن يتسلل ظلّ غرموله إلى عقول البنات الصغيرات فيبطل صلوات العفة جاعلا في مسرح الجان مكانا للشيطان يديره كيف يشاء، فيما هو يسعى أن تدير تاليا جانها وحدها ريثما تكون قد أينعت الأعناب وأن القطر. لم يكن الشيخ يكشف بصلواته الشياطين عن جنائن الغريبات. للغريبات جنائن خلقها الله من أجل أن يستمتع بها المؤمنون وإلى ذلك الحين لا بأس في أن يرشرش الملعونون منابت الفتنة فيها، فإذا ما أَرَجَت انجذب إليها الذين خصّوا بملذاتها من لدنه. للغريبات والغرياء حظّ وافر من خيال الشيخ وبواطن صلواته.

لسبب ما هناك تشابه مريب بين غريب وغراب. كان أبي يتشاءم حين يرى زوجا من الغريان، خاصة إذا نعبا أثناء طيرانهما في أفق نظره، ولم يكن تشاؤمه يبلغ تلك الذرى حين يرى غرابا واحدا، خاصة إذا حافظ على صمته أثناء مرور أبي. وما ذنب غريان ضيعتنا إذا كان الغراب الذي أرسله نوح ليرى فيما إذا كان الطوفان قد بدأ بالانحسار أم لا، لم يعد، فاستحال ريشه من أبيض إلى أسود قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي تسود فيه وجوه وتبيض وجوه. أم أن المشكلة في اللون الأسود بالذات وما يعنيه الظلام وفي التهام هذا الكائن الشرس لعيون الموتى وأمخاهم، والموتى هنا للبشر وسواهم، على الرغم مما يعنيه الفرق بين الميت والمتوفى والقتيل والمقتول والنافق، فيصبح تحلل الجثث كمثل تحلل الأخلاق ويجتمع الشر كله في كائن واحد يمثل الشيطان هو الغراب. وتجعل الرهبة أبي يرى في الغراب أقنومه اليهودي، صارفاً النظر وهو معلّم المسيحية عن أن الغراب المسكين جاء للناسكين الزاهدين بافل وأنطون العظيم بالخبز إلى الصحراء التي اعتزلا فيها مبعدا عنهما شبح الموت جوعا، فصارا يعرفان به وصار رمزا لهما وللزهد. ومع أن أبي كان متقشفاً يعيش على عتبة الزهد إلا أنه لم يكن يرى في الغراب ما يمكن أن يرتاح إليه. كان السواد يصخب لديه برائحة جوف التتين مبتلع الشمس، كان لون الفجيعة والموت، ولم يكن لأبي أن يحبه حتى لو جاء القديس فنسنت يقنعه بذلك. كان أبي يردد بصمت صلواته السرية أثناء سيره على دروب البساتين وفي مسالك الجبال والوديان، وكان من شأن

نعيب يقطع انسجامه أن يعني له عدم قبول أبواب الملكوت لصواته ودعائه. تخيلت نفسي على أهبة أن أفتح بريدي الإلكتروني فإذا بأيقونة تقول (هناك خطأ في اسم المستخدم أو كلمة السر، تحقق من ذلك وأعد المحاولة). كان أبي واثقا من معرفته بكلمة السر التي تفتح أبواب النعيم، وكان يكررها ألف مرّة في اليوم ومع ذلك فلم يفتح النعيم له الأبواب في حياته، ولم يعد من هناك كما لم تعد أمّي ليخبرني أي منهما عمّا إذا كانت بوابات النعيم قد انفتحت لهما في غير مكان أم لا.

كان الفقر يستدعي مزيدا من لذة الإيمان والرجاء والخشوع. لكن الأمر لم يكن يقتصر على ذلك، فالغراب كان غرابا سواء صلى أبي أم لم يصل. كانت صلاة أبي من ذلك النوع الذي لا يستدعي الركوع، بل كان يمكن النظر إلى قمم الأشجار وذرى الجبال وعناق الغيم الريح ومداعبات العصافير أثناء تلاوتها، من أجل أن تخرج من النفس إلى النفس دون صوت مسموع. إنّه الله فيك ويسمع أخفض النامات وكل النغمات ولا حاجة بك إلى الصراخ. في الصراخ استعراض لإيمان أجوف تنطق به مكبرات الصوت، من بيوت أعدت لكل شيء إلا له. ولم تكن صلاة أبي من تلك الصلوات التي يمكن أداؤها بين غرباء. إنهم اليوم يريدون توحيد الصلاة، ويبنون من أجل ذلك بيوتا من الحجارة للركوع. مريب هذا الربط بين سد الطريق إلى السماء بجدران وأسقف كتيمة وبين الركوع والخشوع!

ومن أجل صلاة الجماعة كان يؤتى بمنقوع زبيب الدوالي التي تتغلغل جذورها في بياض الأرض وتناول قصباتها زرقة السماء، فاتحة أوراقها للندى والضوء. ولكن ليس في حضرة غرباء ولا من أجلهم. أيستدعي الغريب النفور الذي يستدعيه الغراب!

كان من المستحيل إخفاء تينك الغرستين المسروقتين اللتين استقرت جذورهما في عينيّ خرج أتان الشيخ الهدهد. لم نفهم في البداية أي ضد يقصد، ثم، حين حدّدتنا الجهة التي جاء منها، أدركنا أن الأراضي التي هناك لعائلات جاءت بزيتونها معها من وراء الجبال التي أرسى الله قبيل أن جعل حوض الأرض العظيم مسكنا لأمواهه ونثر فيه الملح والدلافين والحيتان. لو كان ذلك المراهق النحيل إياي الآن لقال للهدهد:

- ولكنهم مثلنا يؤمنون بالتين والزيتون

- أي تين وأي زيتون، هل رأيتم يوما يدعون واحدا من مشايخك للصلاة في بيوتهم!! لا يدعوننا حتى للصلاة على موتاهم. هل لحست عمرك قطرة من زيتهم؟

- أنا نعم أكلت من زيتهم ومن لحم ذبائحهم. ثم، هل دعوتهم أنت للصلاة في بيتك؟ ويضحك الشيخ الهدهد ساخرا

- هذا مستحيل! أنت لم تتعلم العقيدة بعد. عندما تتعلم تفهم لماذا هذا لا يجوز.

- وأنت تريد هم أن يقبلوا بك دون أن تقبل بهم، تريد هم أن يعدوك صديقاً فيما أنت تعاملهم كأعداء!

- ما أنا يا بني ما أنا، هم، هم الذين يعدوننا كفارا! فحتى لو أفسمنا مع كل طلوع شمس أننا نؤمن بالله ورسوله وملائكته لا يقتعون.

قال الهدهد شيئاً شبيهاً بما أسلفت آنذاك مسوغاً اقتلاع الغرستين، وفيما رحلت صامتاً أحطم فرع تين يابس نخره الدود، رأيت شراً يلتمع في عيني تاريخو. شدني تاريخو إلى تلك الجهة التي أقبل منها الهدهد بعصبية واضحة، وهكذا قطعنا ستمائة الأمتار التي تفصلنا عن تخم أول بساتين الخضار العائدة لهم متعثرين بالحجارة مقتلعين في طريقنا الأشواك. وهناك راخ تاريخو يقتلع ويدوس ويهرس البصل الأخضر النابت في تلك البقعة من الأرض. حاولت إيقافه، راح ينظر إليّ نظرة غضب ويعيرني بالجبن، صرخت في وجهه

- أنت تخرب الزرع مثل الخنزير البري

- أرني كيف تفعل أنت!

وجدتني أنحني وأبدأ باقتلاع النباتات الخضراوات، اقتلاعها واحدة تلو الأخرى كأنني أنقم منها لضعفي، اقتلعها نكاية بشيء لا أعرفه، حتى أتيت على صفين متجاورين منها. حينئذ صقق لي تاريخو:

- طريقتك بالفعل أحسن، وراح يبحث عن شيء يربط به رزمتين من البصل الذي اقتلعت وألقيت في نهاية الأرض

- لن نأخذها!! قلت محتجاً وكان هياجي قد هدأ

- بل سنأخذها! قال بهدوء، داعياً إياي لعقد طرف حزمة من النجيل حولها إلى أداة ربط.

لم يكن عسكر القصر قد احتلوا تلك الأراضي بعد. وأمّا بعد أن احتل القصر تلك الهكتارات الكثيرة من البساتين المحيطة به فقد صار لسرقة محاصيلها معنى آخر. هنا دخل بعض من فريق التحتانية، بدأت أملاك القصر تفيض عن حاجة نفقات الفريق. احتاج التحتانيون في تحالفهم مع الحراس إلى المزيد من الحيلة، اضطروا إلى السياسة. كان لا بد من الاتفاق مع بعض العسكر لتيسير السرقة وتقاسم المنفعة. يؤسفني أن يكون زيت الزيتون قد لعب دوراً في تغلغل العسكر في قلب فريق الشياطين الصغار أولاد التحتانية. عرف العسكر كيف يستخدمون الزيت المقدس من أجل تليين العقول. ولكن، إذا كانت البدايات تحتاج إلى الزيت فليس به النهايات تحكم. ويمكنكم أن تخمنوا بأنفسكم إلى أية نهايات يودي طريق العسكر والتواطؤ معهم على منفعة مشتركة، وتخمنوا أي طريق سلك تاريخو والشيخ وتوس وعلي خضيرة وشمعون

واللاعبون الآخرون في فريق التحتانية، حين لم يعد من السهل وضع اليد على الحد الفاصل بين العسكر وبيننا في حضرة المال السائل والجاف وحضرة النار وأسبابها، ولست أدري إن كانت هذه الدنا) تتسع لأحد اليوم. وليست العلة في الزيت، فما زال يشفي من سبعين علة فلا تلوومه.

وكان الزيت أعراس خايبات على أمه لا يزال حين خرجت النسوة بصحبة أم علي في ساعة متأخرة من ذلك المساء، وكان القمر إلى ازدياد يضيء أرض الكروم البيضاء. تذكّرت أم علي جورَ العواميد. كان كل منها يتسع لامرأة وافرة الردفين في وضع قرفصاء، ولم يكن فيها من التراب ما تحتاجه القطط لردم غائطها. كان الكدّان قريبا من السطح، وعلى بياضه أراد بوعلي مروان تأسيس نشوئه شيئا على جذع ساموك ثخين يتسع لألف أرقية وألف زجاجة معلقة على ألف من الجنّيات التابعات اللواتي أخرج بعضهن من السنة رجال نطقوا بمحظور لا يجرؤ عليه عقّال، وبعضهن الآخر من عيون نساء رأين ما لا تراه موثوقة إلى سرّة زوجها وسرر أطفالها، فإذا بسرّتها مفتوحة على جدار. كانت رائحة دم القرابين لا تزال تفوح من جور العواميد. لكن ذلك لم يعق أم علي وصويحاتها من مباركة أعمدة الشيخ على طريقتهن.

عودة القط

وفيما لفت نسبية تحت نافذة الشيخ بوعلي مروان، مصغية إلى ما يتم الاتفاق عليه هناك، وقف القط يلهث أمام قوس لاعبي التحتانية المقرفين، محاولا استعادة انفاسه. حدّق شمعون في عينيه محاولا استقراءهما قولاً إلى اليمين أو إلى الشمال. بدأ القط حديثاً متقطعا ثم سلس لسانه. قال القط إن قائد العسكر بعد أن ورّعهم على مجموعات وحدد لكل مجموعة الطريق الذي ستمر فيه، وبدأ بإعطائهم التعليمات، سمع صوت دراجة نارية قادمة من جهة الضيعة فتوقّف عن إصدار الأوامر والتفت إلى الجهة الصوت، ومعه التفت الجميع. تبين أن سائق الدراجة هو علي بن مروان وقد أقلّ خلفه الشيخ الهدهد. بعد أن أوقف علي دراجته وأطفأ محركها ترجّل الهدهد عنها وكان أول ما فعله، حتى قبل إلقاء السلام على كبير العسكر، أن ابتسم ومسد لحيته الحمراء التي كان الهواء قد شطرها إلى نصفين. ألقى الشيخ الهدهد التحية على الضابط مبالغا في الابتسامة والانحناء، مقرباً وجهه من يد الأخير كأنما هو يريد تقبيلها، كما يفعل العوام حين يصادفون يد شيخ كبير، منتظرين منه أن يسحب يده مستغفرا الله، قبل أن تدركها شفاهم، ومنتظرا منهم أن يصروا على تقبيلها. لم يكن الضابط ممن يعرفون هذه اللعبة المتفق عليها بين الشيوخ وتابعيهم ممن هم أقل مرتبة منهم، أو هو يعرفها ولكنها لا تعنيه في شيء، خاصة في هذا المقام. المراتب هنا يحددها وزن العائلات، وهذه التراتبية تشمل حتى عائلات المشايخ نفسها.

في البداية تجهم الضابط من رؤية الشيخ وتابعه الشاب الوسيم ذا النظرة المحيرة. لنقل إنّه ظنه تابعه. كان علي شابا وسيما ومحبويا في الضيعة على خلاف أبيه. وبعد السلام وبعد أن اتضح أنّ الشيخ إنّما جاء ممثلا لوجهاء الضيعة المجتمعين في بيت بوعلي مروان لدعوة السادة الضباط ومن يرونه مناسبا إلى العشاء بعد الانتهاء من واجبهم العسكري، وإن كان الوجهاء يرجون السيد الكبير هنا تأجيل شغله لبعض الوقت كي يتاح لهم إعداد الوليمة اللائقة والمناسبة لمقامه ومقام ضباطه الرفيع.

ابتسم القائد شاكر الدعوة معتذرا عن قبولها، منتظرا من الشيخ التشديد أكثر على الدعوة والإلحاح على المجيء، ولا بأس ببعض الأيمان القاطعة هنا. وهذا ما حصل. بل إن الشيخ لم يفلت يد القائد قبل أن يحصل منه على وعد أكيد بقبول الدعوة، وليكن بعد العاشرة ليلا ليتسنى

له هو شيخ الذبّاحين ذبح الخراف وسلق بعضها ولكي يتسنى للصبايا تحضير اللحم وتتبيله للشوي وإعداد المقبلات اللازمة.

- ضيعتنا مشهورة بتقطير العرق، وأنتم سيّد العارفين، أكثره تين وأقلّه عنب، أدام الله عزّك، وحق الذي خلق هذه النعمة، وجعلها تزيل الكرب والغم، وجعل البشر بسببها تجتمع على الفرح وتلتئم، وأعمى قلوب الضد وخلاهم يظنون إنها سم، وضوّ الديار التي فيها كاس يا ابن الناس، وجعل الصبايا بفضلها يزيد معها سحرهن، وجعل الشباب، وأنت زينهم يعرفون قدرهن...وأكمل الهدهد مقامه أقرب إلى الوشوشة، سبيلا إلى الإقناع.

- شغل، وشرب لا يجوز يا شيخ! أراد الضابط أن يمازح الشيخ فيقول: شيخ وشرب لا يجوز، لكنّه أجلّ ذلك إلى مقام يكونان فيه بعيدين عن أحد الضابطين الأصغر منه رتبة. الضابط الذي لا يريده أن يعرف أن مشايخ قومه يشربون الخمر، وراح في هذه الأثناء يتدبر في ذهنه حجة لعدم اصطحاب مرؤوسه إلى حفل العشاء. بدأ الهدهد يروق للضابط.

- ومعزّتك عندي، ولا أرخص بحلفاني بمعزّتكم، وعزّة لا إله إلا هو، باسط الأرض وفاطر السماء، وخالق اللسان الذي يتواصل فيه كل ابن آدم مع كل إنسان، خلّونا نفرح فيكم اليوم، ولكم عندنا لكل إذن كلمة طيبة ولكل لسان لقمة طيبة، بإذن الله الذي على كل شيء قدير.

- أدام الله عزّكم يا شيخ - ولما كان الضابط يريد التأكد قبل أن يتخذ قراره بتأجيل تعميم الضيعة من وجود صبايا حقا في السهرة المنتظرة، أكمل - ولكن، لا تعدّبو الصبايا وتشغلوا وقتهن، عندهن جامعات و...

- أي عذاب!! - قاطعه الهدهد - هن بناتنا، ولا واحدة منهن غريبة، والواحدة منهن، ما شاء الله، سبحان الله، مثل المهرة لا تتعب ولا تكل، تركض من الصباح للمسا وتظل مثل الفل، وبسهرة الأحبة مثل البدر ضوها لما تطل، الله، مولاي يرفع عنك كل غل، يا من بيده ويدكم الربط والحل...

- استغفر الله يا شيخ، أين نحن من قدرته العظيمة.. طيّب، أمرك يا سيدي الشيخ، إنشاء الله بعد العشرة. قاطعه الضابط، ولسان حاله يقول: يا لك من نصّاب صغير! سنرى ما ينتظرنا.. وفي جميع الأحوال هي بداية طيبة، تاركا لخياله أن يكمل صورة ما سيرى وسيكون، وأية أفراس سيستعرض وأيّهن سيروّض. ألم يوح له الشيخ بأن الساحة بانتظاره هو الخيال!؟

- بانتظاركم، بإذن الواحد الأحد، الفرد الصمد، في بيت أخيكم بوعلي مروان - وبدا فرحا كأنما يريد القفز وهو يخبط على كتف علي مدللا على أنه مصدر اسم صاحب البيت الذي سيقصدونه - أسألوا أي إنسان عنه، كل الناس تعرفه، كريم وابن أصل.

وما كاد شخير الدراجة النارية يعلو حتى سرح كبير العسكر بنظره إلى جهة ما لا مرئية، مبتسماً، ممرراً لسانه على شفتيه. وبعد برهة قصيرة طلب ضباطه لاجتماع، أمراً العسكر بالاصطفاف في أول منحدر الطريق النازل إلى الضيعة، والبقاء في وضعية الاستعداد إلى حين صدور أوامر أخرى. وفي الحال اتجه إلى جدار القبة الذي يبعد عن مكان اصطفاف العسكر حوالي ثلاثين خطوة، واستند إليه، فتبعه ضباطه، واتكأ كل منهم على قبر من القبور الثلاثة المجاورة. كان ثالثهم ملازماً مجتداً في بداية عامه الثاني من الخدمة الإلزامية وكان له أقرباء في الضيعة من جهة الأم، لكنه لم يصرح بذلك لأحد، ولم يبد على وجهه أي تساؤل أو استغراب أو اعتراض. فيما كان الآخران ملازمين أوليين عاملين، أحدهما بدوي. وكان قائدهم برتبة رائد فحسب. وما إن مثل ضباطه أمامه حتى بادروهم القائد بقوله:

- يبدو أننا لن نشعر بالملل في هذه الضيعة، فإذا كان الشيوخ طرفاء ولطفاء هكذا فما بال الشباب! ابتسم الملازم الأول المقرب إليه، ففهم الرائد من ابتسامته أنه يغمز إلى أن سيده يعني الشباب.

- وهل أفهم أنكم يا سيدي ستعدلون الخطة وتلغون حفلة تعميد الضيعة؟! توقّف الملازم الأول البدوي عن التساؤل حين رأى التكبيرة على وجه سيده.

- ما شاء الله، ما أفهمك! لا تقاطعني، يا ملازم أول، مفهوموم؟! بل أعني أننا سنجعل حفلة التعميد أشد وأسخن، لن نترك زاروبا في الضيعة إلا ونلقي عليه تحيتنا الخاصة، أنتم تقهمون ماذا أعني، هذه المنطقة منطقة زيتون والزيتون كلما عصرته أكثر حصلت على زيت أكثر.

كان ما يدور في رأس الرائد وما اتفق عليه مع ضباطه قبلاً، هو أن ينزل العسكر إلى الشوارع، ويطلقوا النار بغزارة في الهواء وفوق الأسطحة، ويفجّروا القنابل الصوتية، ويصرخوا ويرعدوا ويهدروا، كلُّ كما يستطيع، ومع التأكيد القاطع بمنعهم من دخول أي دار، مهما كان السبب. فإذا ما اعتدى أحد عليهم يقرر القائد كيفية الرد والعقاب، في حينه. فالمطلوب أن يتذكر الجميع هذا اليوم إلى الأبد. يجب أن تسكن أصوات الرصاص والانفجارات جدران بيوت هؤلاء إلى مئة سنة، يجب أن يعرفوا قيمة الجيش وكيف يحترمون العسكر... في البداية فكّر الرائد بإنزال العسكر في أرتال منتظمة، مع صيحات راعدة (أممممممه... عربيبيبية... والاحده... ذاللات... رسالاله... خالدة) على أن يفرغوا أمشاط الرشاشات مع كل صيحة، مصحوبة بانفجارات القنابل الصوتية، لكنه سرعان ما عدل عن فكرته، فمن شأن هذا الانتظام والترتيب أن يجعل السكان يظنون أن العسكر جاءوا ليحتفلوا معهم، وقد يخرج الناس إلى الأسطحة فيصفقوا ويهتقوا معهم. لذلك اختار فوضى النزول

وإطلاق النار بغير انتظام والصراخ العشوائي.. هذه الأشياء التي من شأنها أن تبتث الرعب في النفوس، وتجعل الأهليين يحسبون ألف حساب قبل المساس بأي شيء له علاقة بالجيش والقصر.

- لم يسألني أحد منكم عن ساعة الصفر! أنا أقول لكم متى نبدأ. نبدأ في التاسعة والرابع ونستمر لمدة ثلاثة أرباع الساعة. ثلاثة أرباع الساعة تكفي لمسح هذه الضيعة الصغيرة مرتين. ندخل الضيعة وعندما نصل إلى أطرافها، نلتف ونعود مرة ثانية إلى هنا، تعود كل مجموعة من الطريق الذي انحدرت منه، وفي النهاية نجتمع هنا في المقبرة. في طريق العودة تتولى أنت القيادة - أشار الرائد إلى الملازم الأول البدوي- وتعود مع العساكر إلى المعسكر عبر طريق الوادي الذي جئنا منه. مفهوم. أي سؤال؟

- نعم سيدي!- بدأ الملازم المجدد كلامه مضطربا محاولا إخفاء قلقه تحت قناع من البرود واللامبالاة- ولكن إذا خرج أحد إلى الشارع، أو ظهر أحد على الأسطحة فماذا نفعل؟ وقبل أن يجيب الرائد عن سؤاله، وكانت العتمة قد أسدلت ستائر الرماذية وبدأت أولى ومضات الفوانيس تلوح من نافذة هنا ونافذة هناك، فرّ طائر من طرف المقبرة البعيد، حيث شجرة سرو كبيرة تحدد تخم الموتى مع الأحياء، وما إن علا الطائر حتى تبين أنه بومة خفقت بجناحيها وهمت بالانحدار صوب الضيعة لتغافل الفئران التي خرجت من أوجارها مبكرا. في طريقها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي نعبت البومة، على غير عاداتها مصدرة أصواتا غير منتظمة، كأنما هي تسأل الجنود عن سبب وجودهم هنا، فنظر الرائد إلى الملازم المجدد وأشار إليه بأن يناوله الكلاشينكوف. ولعلعت أولى صليات الرصاص في هذا المساء. لم تصب أي من الطلقات الثلاثين التي أطلقها الرائد البومة. انقضت البومة باتجاه السفح الشمالي لوادي الجراد القريب واختفت في ظلمة الأدغال هناك، لتعود بعد قليل إلى نعيها الرتيب. صدرت ضحكة مكتومة من جهة العسكر. كان واضحا أن أحدهم راح يسخر من مهارة قائده في التصويب. صاح الرائد

- اخرس يا حيوان!- ثم توجه إلى الملازم- الآن نجيبك يا سيادة الملازم العظيم، إذا خرج أحد إلى الشارع يكون حمارا ابن حمار. ما من جحش في هذه الضيعة يفكر بهذه الطريقة ويطلع إلى الشارع أو السطح. عموما اطلقوا النار بالهواء، واقتلوا كل الكلاب والقطط في طريقكم.. مفهوم!

- وإذا طلع حمار؟! جاء صوت خافت من جهة العسكر. كان العسكري كأنما يسأل نفسه، بعد أن بلغه صوت الرائد المنفعل في رده على الملازم. كان العسكر يحبّون الملازم المجدد، على خلاف الرائد المتعجرف.

- إذا طلع حمار، يطلع على أمك، مفهوم يا بغل!!!

بدا بيّناً أن كبير العسكر غاضب وسيمعن في تخويف الأهلين وإهانتهم، وليس فقط لأن الاجتماع أدى إلى احتدامه.. بل ولسبب آخر، فطالما أن الأسياد بمجرد تناهي خبر وصول العسكر راحوا يقدّمون أنفسهم وبناتهم بهذه الطريقة، فمن المغربي النظر إليهم حين يرون كيف يكون الرعب الحقيقي. معظمهم لم يخض معركة، وربما جميعهم، وأما اليوم فالمعركة ستأتي إليهم بنفسها، ببارودها ودوي انفجاراتها ولعلعة رصاصها، وسنرى كيف سيكونون بعدها. لم يخطر بباله أن أحداً آخر ليس من أسياد القوم، على افتراض أن يكون أولئك المجتمعون في بيت بوعلي مروان أسيادا بالفعل، أن أحداً آخر يعدّ عدته لمقاومة العسكر الذين احتلوا المنبسط الممتد من قاعدة الجبال إلى البحر وسدّوا منافذ البحر ومنعوا الأهلين من إتيان الماء والملح والزيد.. لم يخطر بباله أن إقامته هنا لن تكون طيبة أبداً، وأن يوماً سيأتي سيحسب فيه وعسكره ألف حساب قبل دخول هذه الضيعة التي هم على وشك تمزيق هوائها بالبارود والرصاص. لم يخطر ببال الضابط ذلك، فهو لم يقرأ ولم يسمع بأن خنوع الآباء لا يؤدي بالضرورة إلى خنوع الأبناء، وأن تحكم الناس بالعنف يعني أن تضع نفسك تحت رحمة عنفهم المضاد. وأن أحاديث الأهلين المقهورين في البيوت، الأهلين الذين حيل بينهم وبين الوصول إلى بساتينهم ووديانهم ومائهم وزرّودهم وبطمهم وقطلبهم وخرنوبهم وريحانهم وبلانهم وطيونهم.. أن القهر الذي يعبرون عنه بين الجدران سينمو في قلوب الصغار ويتحوّل إلى رغبة في الانتقام، وأن عقول الصغار المحاصرين بالممنوع لن تقيم فرقا بين جيش وجيش. فحين تصبح الضيعة وطنا محاصرا بالرصاص، يصبح للرصاص معنى آخر وتطبق الحدود التي هنا الخناق كمثّل الحدود التي هناك. لم يخطر ببال قائد العسكر أن الاستهتار بقدرة الصغار حماقة كبرى، وأن العقول الفتية قادرة على رسم خطط يعجز عنها الجنرالات الذين علّموه أن الأعداء دائما أغبياء وجبناء. وأما هؤلاء العسكر الأوباش الذين يسخرون منه الآن فسيعرف كيف ينتقم منهم ويجعلهم عبرة للآخرين فور عودته إلى المعسكر. لن يمضي ليل اليوم حتى يخبره النشطاء بأسماء الذين سمحوا لأنفسهم بالهزء من مقامه. وفيما راح يفكر بذلك ومض في ذهنه سؤال الملازم، فكّر بما يمكن أن يحصل، فعلا، إذا ما قُتل أحد ما عن طريق الصدفة أو الخطأ في الضيعة، لكنّه لم يتوقف كثيرا عند هذا الاحتمال، فالهدف من العملية ترويع سكان عين الغار المطلّة على القصر حتى لا يجرؤ أحد منهم منذ اللحظة على النظر في عيني عسكري من عساكر الحرس فكيف بالضباط أو بمن يجرسون. كان المطلوب أن يفهم الجميع أن أية ذبابة تطير من الضيعة إلى ذلك المكان الذي يعسكرون حوله ويحرسونه سوف تطلق عليها ألف رصاصة، وأن الذباب والقطط والكلاب والعصافير والحمير والخنازير والبشر هنا سواء بسواء. فعلى الجميع أن يعرفوا كيف يصونون حيواتهم. يجب أن يعلم الناس لماذا تبدأ العملية بالمقبرة ولماذا تنتهي بها، وإذا

كان لأحد أن يتباهى بقبور أجداده وبإطالة هؤلاء الأجداد من مملكة الموتى على بيوت أبنائهم وحيواتهم وأثناء نساءهم وضروع مواشيهم، فيجب أن يعلم أن الطريق إلى قبور الأجداد مفتوح باتجاه واحد، وأن وصاية القامات والمقامات والهلمات والقرب لا محل لها هنا. على الجميع أن يدركوا منذ اللحظة الأولى أن ثمة شيئاً واحداً مهم، وأن ثمة أمراً واحداً تكون الحياة بكلمة منه ويكون الموت.

- لا، لن يجرؤ أحد على الخروج من بيته، خاصة بعد أن أوصل المختار رسالتنا إليهم. فكر الرائد وارتاح لفكرته.

- كأنك، يا سيادة الملازم ما سمعت منادي الضيعة!

- سمعت، سيدي، سمعت.

- اسمعوا، إذن، إذا شفتم أحداً في الشارع سوقوه معكم إلى المعسكر!

وفيما راح الرائد يفكر جدياً بالقبض على كل من يراه خارج بيته أثناء تعميد الضيعة - هكذا سمى العملية، على غرار المعركة الأولى التي يخوضها الجنود في الحرب، والتي تكون بمثابة تعميد لهم بالنار - فيما راح يفكر بالقبض عليهم واحتجازهم في سجن المعسكر إلى أن يسأل عنهم أهلهم، عندئذ يفاوضهم على الإفراج عنهم مقابل تقيدهم، وهذه الميم تطاول الجميع، بتعليماته، التي سيفكر بصياغتها إلى حين موعد المفاوضات، راح الشيخ الهدهد يرقص طرباً على مقعد الدراجة لنجاح مسعاه، وراح، كولد مراهق، يدغدغ، على غير إرادة منه، خاصرة علي ويكاد يعضه في رقبتة من الخلف، إلى أن سقطا معا عن الدراجة في وسط الطريق وتلطخ قمباز الهدهد بالوحد وسحج أنفه وسال منه الدم قبل أن يتورم.

قائد العسكر لن يقول للأهلين، طبعاً، بأنه ألقى القبض على أبنائهم لمجرد وجودهم خارج منازلهم، إنما سيتهمهم بالوقوف في وجه حرس القصر، ومقاومة وجودهم، وهذا وحده سيجعلهم يتبولون في سراويلهم فزعاً.

- تقبضون على كل من يكون خارج بيته! ولكن، دون أكل خراء. وكان يعني دون أن يتصرف كل من العسكر على هواه، وربما أمكن ترجمة ذلك إلى توصية بعدم ضرب المقبوض عليهم أو إهانتهم.

- ومن يبدي مقاومة، أو يحاول الفرار؟ فكر الملازم المجند بالسؤال، لكنه التزم الصمت، متوجساً شراً من قرار قائده الأخير، ومن طريقة فهم العسكر له وبالتالي مخاطر تنفيذها. رجا الله أن لا يكون بين الخارجين أحد من أقربائه. وإذا حدث أن احتجز أحدهم فسيسأل الله الحيلة كيلا يضطر إلى مواجهة هذا الرائد المتعجرف. وإذا ما أغلظ الرائد فيه القول ثانية أو أساء الفعل وعرضه لإهانة أمام مرؤوسيه أو أمام أقربائه، فإنه سيدمج معهم طريقة لجعل الرائد يفهم حجمه

الحقيقي. كانت أحلام الملازم ساذجة في البداية.. حلم الملازم بأن الفرصة قد تتاح له لمقابلة واحد ما من أفراد عائلة أصحاب القصر الذين يتكرر مجيئهم لقضاء بعض الوقت في القصر الصيفي، وإذا ما وانتته هكذا فرصة فسوف ينقل لهم صورة عن العسف الذي يمارسه العسكر بقيادة الرائد على الأهلين.. لكن وقتنا طويلا لم يمض حتى أصبحت أحلام الملازم أكثر واقعية وأدرك سذاجة تفكيره (سيعلو شأن الرائد إذا عرفوا بقسوته وتفاهته!!) ففكر الملازم، وقرر أن يبحث عن أقربائه في أول فرصة تتاح له.

هزيمة شمعون

حين عادت نسيية، كانت أم علي تصغي من على حجرٍ حوَّارٍ نقله من أجلها شمعون عن بعد خطوات، قبل أن يندغم مع فريقه، إلى ما راح القط يكرره على مسمعا ومسامع الشياطين الصغار المقرفين ينكشون الأرض غاضبين قبالتها. راحت أم علي تفكر بطريقة لتجنيب الصغار خطر الإمساك بهم. كان أوَّل ما استقر عليه ذهنها، هو أن ترجئ مواجهة العسكر إلى حين آخر. فهم جاعوا ليستقروا هنا ما استقر القصر، والأيام طويلة وسيكون بالإمكان تلقين هؤلاء المتغترسين درسا لا ينسوه. أمَّا اليوم فمن الأفضل أن يُتركوا كأن أحدا لا يسمعهم ولا يراهم. من الأفضل أن يطمئنوا إلى أن أحدا لن يواجههم بعد اليوم - فكَّرت أم علي على طريقتها في تدبر حيلة لمواجهة مكر الحياة - وما إن يطمئنوا حتى تأتيهم الضربة موجعة. راحت أم علي تفكّر بذلك، شبه متأكدة من أن الأيام القادمة ستكون ممتعة، فثمة لعبة ستلعبها ورفاقها الصغار مع هؤلاء العسكر، والخاسر سيلتزم حدوده مضطرا وإن إلى حين، لكن أم علي لا تقبل الخسارة، والعسكر لا حدود في الداخل لهم. لم تكن أم علي واثقة من الريح، لكنها كانت شبه متيقنة من رغبتها في دخول اللعبة، ومن ضرورة معرفة هؤلاء الصغار عن قرب لاختيار الأنسب بينهم لكل يوم من أيام الحكاية التي ستسجها على الطرقات وفي الوديان وقرب الينابيع وأمام عجلات العربات.. وفيما راحت أم علي تتصفح أفكارها، بانتظار أن ينتهي القط من الإجابة عن استفسارات شمعون، لتصغي إلى نسيية وما سمعته مما دار من أحاديث في بيت بوعلي مروان. بدا شمعون مشوشا عاجزا عن إيجاد حيلة تجعله ينتصر دون أن يخوض مواجهة مع العسكر. راح يفكّر بشيء قريب مما راحت تفكّر به أم علي، ولكن كلَّ على طريقتها، ولغاية في نفسه. لم يكن شمعون يريد المواجهة، وكان في الوقت نفسه يخشى أن يبدو في عيون فريقه جبانا أو متخاذلا، فيحتقروه وينفضوا عنه، كما لم يكن يريد أن تهتز صورته أكثر في عيني أم علي. فهو كان يدرك بغريزته أنها لا تأمن جانبه، على الرغم من أنها تتاصره، وأن شيئا ما لا يريحه التفكير فيه يجعلها تُبقي على مسافة بينها وبينه، وتتنظر إليه بعينين قلقتين، خلاف نظرتها المشجعة للآخرين، المنفتحة عليهم. لم يكن جنى المزارات قد بلغ تلك الذرى بعد، ولم يكن حصاد البساتين التي ضمها سور القصر الأمني قد انفق على تقاسمه في الظلمة بعد.

وجاء دور نسيبة في الكلام، في اللحظة الذي استقرت فيها أم علي على فكرة مفادها أنّ أفضل الحلول أن يذهب كلّ من الصبيان ونذهب نحن أبناء سكيبا، وكنا أقرب الجميع إليها، وخاصة أنا علي جاد الصغير، وتذهب نسيبة وسميرة أيضا إلى بيتيهما الآن، ودون إبطاء. راحت تنتظر نهاية ما ستقوله نسيبة، قبل أن تبدأ، لتسمع الجميع رأيها، بل قرارها، وكانت واثقة من أنّ شمعون لن يعترض عليه، مع أنّه قد يغادر، ليس إلى بيته، بل إلى غير مكان. لم يخطر ببال أم علي أنّ ما ستسمعه من نسيبة قد يدفعها إلى تغيير رأيها، أو اقتراح تصرفٍ آخر غير اللجوء إلى البيت وسد الأذان عن لعلّة الرصاص ودوي الانفجارات، والنظر بعيون مفروعة إلى زجاج الشبابيك الموصدة يهتّر ويتكسر. كانت أم علي قادرة على تخمين أسماء المجتمعين في بيت بوعلي مروان، ولم يكن ينقصها إلا تأكيد حضورهم على لسان نسيبة، وكانت تعلم علم اليقين الخصال التي اجتمعوا عليها، وما يمكن أن تقضي إليه من قول أو فعل. كانت تعرف مما تسمعه في حانة برهو، ومما تقوله نساؤهم أي رجال هم، وماذا يمكن أن يُنتظر منهم، وتعلم من أولادهم ضدّهم ومن معهم، وأيّهم أكثر شرا وأيّهم أضعف عزما، وأيّهم شدّه الخوف أو الطمع أو البحث عن دور أو وزن إلى هناك، وأيّهم جرّوه لتبعيته وضعف شخصيته فما جرّو على التعبير عن رأي مخالف.. فما أكثر من يبحثون عن التبعية أو ينساقون إليها، لا لشيء إلا لأن أرواحهم خاوية، فلا همّ خاص فيها. ولأن لا شيء ذاتيا يوجّه إرادتهم، ينشدون التبعية مأوى لعجزهم وكسلهم وانعدام الخصوصية لديهم. يصيرون برضى إلى أدوات تتحرك بإرادة أحد ما، أحد ما يتحمّل عبء القرار ومسؤولية ما يترتب عليه. وما أكثر من يهربون من خصوصيتهم. فالخصوصية تعني الاختلاف والتمايز والإرادة الذاتية، وتعني عدم التبعية. لم يكن لأيّ من أنصار بوعلي مروان خصوصية. خصوصيتهم كانت مشتركة، والخصوصية تكون كما الشخصية بالمختلف وليس بالمشترك. وها هم هناك يجتمعون على شيء، قد يفيد ما التقطته نسيبة في تبيّنه. وبدأت نسيبة حكايتها وكانت تغالب ضحكة، إذ بدأتها بما سمعته من صخب عند دخول الشيخ الهدهد وعلي، فقد تبين أنّهما جُرحا قبل بدء المعركة. مع أن نسيبة تكّن ما يكفي من الود لعلي، بل تشعر بميل تجاهه. فهو كثيرا ما يأتي لزيارة أخيها في البيت. وهناك يستقبله الجميع بحبّ، مثلّسين عوامل الاختلاف بين وبين أبيه، ملّمحين إلى أهميّة أن يبني الإنسان شخصيته وحضوره الاجتماعي باختلافه عن أبيه، حتى لو كان الأب من المحمودين.

توجّهت نسيبة بالحديث نحو أم علي، ملتقّة بين حين وآخر صوب شمعون. حكّت عمّا دار من أحاديث في بيت بوعلي مروان. ولحسن حظ نسيبة وحظنا، وإلا فمن أين كان لنا أن نعرف ما دار من أحاديث هناك، فلا أحد في الضيعة يتحدّث بصوت منخفض، ولا أحد فيها يغلق نافذة أو بابا، في الصيف. كان من الأنسب أن أقول لم يكن، وليس (لا)، فهذه الـ(لا) لم تعد

موجودة بعد مجيء العسكر. صار عليك أن تقول لكل ما يأتي من فوق (نعم)، وصار من الضروري إغلاق النوافذ والأبواب، والتحدّث بصوت منخفض. في ذلك الوقت لم يكن الجميع قد تعلّموا الدرس الذي جاء به العسكر بعد. على أية حال، حين لطت نسيبة تحت النافذة، كان الرجال يتحدّثون بصوت مرتفع، وليس لأنّها العادة فقط، بل لأنّهم، من جهة، يتحدّثون عن تكريم سادة العسكر، ويتبارون بالأفكار التي من شأنها أن ترفع من مقامهم لدى ذوي الرتب، ولأنّهم، من جهة ثانية، يتحدّثون عن أوباش الضيعة وحنالتها، ولا يخشون على أنفسهم، بعد مجيء العسكر شيئاً منهم. وعلى الرغم من أنّ لحم الكبش والكمية التي يجب أن تسلق منه والكمية التي ستشوى، وكم شخصا سيأتي مع الضابط يا ترى، ومن منهم سيأتي بينته للمساعدة في إعداد الطعام وترتيب المائدة، وكان الشيخ الهدهد قد اقترح عليهم ذلك.. على الرغم من أنّ هذه الترتيبات شغلت أذهانهم إلا أنّها لم تلههم عن تذكر أولئك الذين لا يروقون لهم في الضيعة، الذين يجب تنبيه الضابط إلى وجودهم، وإلى ضرورة أن يأخذ حذره منهم، لأنّهم لا يعرفون صغيراً أو كبيراً ولا يقيمون وزناً لقانون أو عرف أو قاعدة، وإلى ضرورة تأديبهم. فالمكان من دونهم سيكون روضة ينعمون فيها جميعاً بالراحة والنعيم. وهذه الـ (جميعاً) تضعهم مع السادة الضباط في بوتقة واحدة، كما يضعهم المكان الذي يعنون. اتفقوا على تقاسم ثمن الكبش، وكانوا بعد التداول قد اختصروا الخواريف التي وعد بها الهدهد إلى كبش واحد، متأكدين من أنّ السيد الرائد لا يمكن أن يصطحب معه إلى هذه الدعوة الخاصة عساكر من رتبة أقل من ضابط، وعدد الضباط كما رأهم الهدهد وعلي أربعة فقط، بمن فيهم الرائد، وعددهم، هم المجتمعون هنا، ثمانية، واتفقوا على أن يأتي الهدهد باثنتين من بناته لتساعد ابنة بوعلي مروان. في الحقيقة كان الهدهد هو من اقترح أن يرسل في طلب البنتين، قاطعا الطريق على مبادرة قد تأتي من هذا أو ذاك. والحق يقال لم يبادر أحد بعرض بناته للخدمة على الرغم من توافر هنيئات للتفكير بذلك، عدا بوعلي سلمى الذي همّ بإعلان رغبته، ثم أحجم عن ذلك. تذكّر بوعلي سلمى أحاديث العسكر عن نساء القرى التي يعسكرون قربها. هو نفسه كان يؤلّف عن عهدهم حكايات تجعل منهن بائعات هوى رخيصات. اندفع علي بن مروان لتحقيق رغبة الشيخ، مضمراً أملاً بأن توافقا على الركوب خلفه على الدراجة، فتضطر الأقرب إليه إلى الالتصاق به، ومع أنّه كان يفضل الصغرى، إلا أنّ للكبرى مفاتها التي تثيره أيضاً. سيساعد علي في ذلك ضيق الوقت. ولكن ضيق الوقت بالذات لن يتيح للصبيّتين إعداد نفسيهما لاستقبال الضيوف، وذلك ما فات والدهما الهدهد. ومع ذلك التمعت فكرة حاجتهما إلى بعض الوقت للظهور بشكل لائق في ذهنه، ومعها ومضت فكرة أن تأتي كل منهما بعباءتها، وسيكون بإمكانهما استعارة علبة المكياج من رامية

ابنة بوعلي مروان. لكن رأي الهدهد في شأن مفاتن ابنتيه لا أحد يشتري به أو يبيع. وما إن روت نسيبة قصة دعوة البنات، حتى التمعت في ذهن أم علي فكرة سارعت إلى إعلان تنفيذها: - روعي، يا عين خالتك، يا سميرة فوراً لبيت.. بيت الحيوان مروان، قولي لهم: سمعت. لا- استدركت أم علي- الأحسن أن تقولي إن أمك بعثتك لمساعدتهم في خدمة الضيوف.. قولي لهم: جنّت لمساعدتكم.

كان المختار بين المجتمعين في بيت بوعلي مروان، وكانت أم علي تراهن على ترحيب المختار بمبادرة سميرة، إن لم يكن من أجلها فمن أجل أمها. - عجلي، عين خالتك، عجلي.

وفي الوقت نفسه رأت أم علي أن تعاقب المجتمعين هناك على طريقتها. فهي لم تنزل تذكر جيداً الطريقة التي باركت بها، مع صوبحباتها، أساس بيت بوعلي مروان. حصل ذلك آنذاك صدفة، وكان بالنسبة إليهن طريقة للمشغبة النسائية أكثر منها طريقة للانتقام. أمّا اليوم فإن الأمر يحتاج إلى حيلة وتدبر وكتمان أكبر من ذي قبل. وما يجعل للأمر أهمية استثنائية ويزيد من صعوبته هو أنه، كما ترى أم علي، يجب أن يتم اليوم، ومن الأفضل أن لا يدري به شمعون. لماذا هي لا تريده أن يعلم بما تنوي فعله؟ هي لا تعلم على وجه الدقة، لكنّها واثقة من أنّ من الحكمة أن تتفدّ خطتها مع عدد قليل من الأولاد الذين ستختارهم بعناية لهذه المهمة الخاصة، ومن الأفضل أن يتم ذلك أثناء انشغال المضيفين والضيوف بالوليمة. تذكرت أم علي أنّها لم تطلب من سميرة شيئاً محددًا تؤديه أثناء الخدمة. شعرت بالندم أول الأمر، على أنّها كان يمكن أن تستفيد منها بأشياء صغيرة ذات تأثير كبير، لكنها سرعان ما ارتاحت إلى عدم تكليفها بأي أمر يخرج عن فطنة البنية الذاتية. فسميرة فطنة كافية لتدرك أن المطلوب منها هو الإصغاء جيداً لكل ما يمكن أن يقال هناك، ومعرفة ما قد يبوح به الضباط بعد أن يسكروا.

سبق لسميرة أن رأت، مراراً، كيف يتحوّل الرجال حين يسكرون. فمع أنّ والدها لم يكن سكيراً إلا أنّه كان يحلو له أن تأتي زوجته بألفية العرق حين يأتيه ضيف من زملائه في الشغل، وخاصة في الأمسيات التي تسبق التحوّل من وردية صباحية إلى وردية ليلية، حيث تنتهي الوردية الصباحية في الثالثة ظهراً، وتبدأ الوردية الليلية في الحادية عشرة ليلاً من اليوم التالي. اثنتان وثلاثون ساعة ليست مزحة على الإطلاق، ومن حق الرجال أن يتسامروا قبلها، فلديهم متسع من الوقت لفعل الأشياء التي تحلو لهم إذا لم تنغص نساؤهم استراحاتهم بطلب صيانة صنبور هنا وبالوعة هناك وسنّ سكّين مثلم وإصلاح درفة نافذة مخلوعة واستبدال أسطوانة غاز ملآنة بواحدة فرغت منذ قليل.. لم تكن أم سميرة تمضي مع الرجال المتسامرين من الوقت إلاّ

أقله، فقد كان يشغلها عن ذلك مقارنة هؤلاء القادمين التي تدعو إلى النفور مع الرجال الذين يصورهم زوجها أن يغرق في مغطس الشهوة، كما كان يشغلها إعداد بعض المازوات.

كثيرا ما رأت سميرة كيف تتعقد ألسنة السكارى عن أشياء وتنتفح على أشياء، وكيف كانوا يبوحن بأشياء وأشياء ما كانوا ليبوحوها بها لو كانوا في حالة وعي. إضافة إلى فطنتها وخبرتها التي تفوق سنوات عمرها، كانت سميرة تملك من روح المبادرة ما يكفي لأن تستغل أية فرصة تتاح لها لترك بصمتها في البيت الذي تدخله لأول مرة، وهي لن تقصّر إذا أتيحت لها إمكانية آمنة للانتقام من المختار ثانية وثالثة، ومن أصحابه المجتمعين في بيت بوعلي مروان. لم يخطر ببال أم علي بأن سميرة يمكن أن تسرق ما تقع عينها عليه ويكون في متناول يدها من أشياء ثمينة، ولا شمعون فكر بذلك. ستكون تلك مبادرة ذاتية من سميرة وعملا لحسابها الخاص، فيما لو فعلت.

كان أول من خطر ببال أم علي لإخراج الخطة التي في رأسها إلى الوجود، نحن أحفاد سكييا. ومن بين أحفاد سكييا قلبت فكرة أن تطلعي أنا علي جاد الصغير على خطتها، لكنّها حين تذكّرت أنّ أمي ابنة الشيخ تجبرني على الاغتسال بماء الريحان وصابون الغار مرتين في اليوم استبعدت أن تجعل لي أية علاقة بما نوت عليه، وأمّا أولاد عمّي فكانت على يقين من أنّ أيا منهم لا يكتّم سراً أمام أمّه، فكثيرا ما كان يتناهى إلى سمعها أحاديث عن لسان المرأتين، هي حكايات محرّرة ومضاف إليها مما كانت تبذعه مخيلات الصغار في جلساتهم الخاصة حين يكونون بعيدين عن أقفال عقول الكبار وقبضات أيديهم.

وببصيرة المرأة المحاصرة، وحيلة قرون من فن الخروج من متاهات تحشر فيها النساء ويخرجن منها إلى مزيد من الحياة ومزيد من المتاهات، استعرضت أم علي حالنا نحن أحفاد سكييا، ثمّ حال جميع من يقفون على مقربة منها، ورأت أنّ من الأسلم استبعاد الجميع. كان لدى أمّ علي من تكلفه بهذه المهمة مقابل بضع ليرات، وهي لن تبخل بها في هذا الليل. هو الآن شاب في الثانية والعشرين من عمره عاطل عن العمل، ومذ كان صغيرا إلى اليوم كثيرا ما اسندت إليه أمّ علي مهمات صغيرة مقابل أجر بسيط، ولم يسبق أن خذلها أو أفشى سرّاً تلك المهمات لأحد. هي على الأقل لم يتنازعها الشك بأية معلومة تخصّها يمكن أن تكون قد تسرّبت عن طريقه. لم تجد ما يثير ربيبتها فيه، هي الريّابة أبدا. قرّرت أم علي فيما تبقى من وقت قصير أن ترسلني أنا في طلبه، ولكن ذلك كان بعد أن أشارت إلى شمعون بضرورة أن ينصرف الأولاد كل إلى بيته وأن يلجأ هو أيضا إلى المكان الذي يراه مناسبا قبل أن يتغيّر مزاج الضابط وتبدأ العملية على حين غرة. ولسبب ما، بدا شمعون في هذا المساء واحدا سحب بساط القيادة من تحته، أو هو اختار أن يستسلم في هذه اللحظة العصبية إلى المشيئة الأنثوية المنقذة. أليست

المرأة صانعة الحياة وحافظتها! وهكذا بدا شمعون واحداً مَنَّا ينتظر أن تشير إليه أم علي في أمر ليفعله. بدا كأنما يفكر بشيء ما يخصه، شيء ما يطلعنا عليه ربّما غداً أو بعد غد.

شعرتُ أنّ وجودنا أمام العسكر حتى قبل أن نخوض معهم أي نزال بدأ يفرّقنا، فأمر علي نظرت إلينا ليس نظرتها إلى فريق، إنّما إلى أفراد، وشمعون راح يتفحصنا بنظرة ليس كسابقاتها، حين كان يجمعنا لأمر نزال فريق آخر نتسابق معه على قذف الكرة إلى الشباك، ونحن أنفسنا، راح ينظر واحدنا إلى الآخر نظرة فيها جنين تساؤل، عمره يوم عند بعضنا وعمره تسعة أشهر عند بعضنا الآخر، تساؤل عن حقيقة أن نكون معا أو لا نكون حتى النهاية، على الرغم من القسم الذي أدّيناه، واضعين شرف أخواتنا وأمّهاتنا على المحك. لقد وعيت، أنا علي جاد الصغير، طبيعة ذلك الشعور الذي انتابني آنذاك، وطبيعة البريق المتسائل في عيون الجميع، وعيته متأخراً، في غرفة من الطابق الثالث في المبنى الرابع عشر في شارع يفتح على زمهرير الشمال، من جهة، وعلى وهم الجنوب من جهة أخرى، متوهّماً إمكانية البعد عن عين الغار، ووعاه ابن عمّي الشيخ ونّوس بعد أن غدا ضابطاً في قوة خاصة تكفّ بمهام خاصة، ووعاه ابن عمي الآخر علي خضيرة بعد أن هاجر هرباً من الديون، تاركاً زوجته وطفله يتدبران أمر الدائنين. كيف تتدبر امرأة لا عمل لديها أمر ديون زوجها الهارب؟!.. ووعاه كل من أعضاء الفريق على طريقته الخاصة وفي زمنه الخاص، حين راح الناس يدخلون في العسكر أفواجاً أفواجا، ووعاه شمعون بطريقة جديدة في عمارته الصغيرة المنمّقة التي تتوسط مزرعة، تقع على التلة المقابلة لمقبرة بيت بومسعود، تملكها بطريقة لا تتسع هذه الرواية للحديث عنها، وربما لا حاجة بأحد لسماعها، فما أكثر ما يعرف القارئ من هذه الحكايات، وما أكثر ما يعرف في نفسه هكذا تقلبات! وإن كان يغلق نفسه دونها فليس لجهل بها إنّما لمعرفة عميقة بمواضع الألم واللذة فيها.

تأبطتني أم علي، معلنة انفضاض الاجتماع ومضت بي، أمرة الجميع، على طريقته المحببة بالانصراف بأقصى سرعة إلى بيوتهم. وبعد أن ابتعد الآخرون عنا مسافة كافية، - ها هي هذه ال(نا) تمدني بالقوة والحيلة، وربما بقوة الحيلة، بعدما سبق وأشعرتني بالطاقة والسلطة.. معها أشعر كأنني على درجة واحدة من الاستطاعة مع كل من ينضوي تحتها. وكثيراً ما تكون هذه ال(نا) مؤلفة من واحد مضاف إليه عشرات وأحياناً مئات أو آلاف أو ملايين. وفي وهم القدرة الكامن في هذه ال(نا) ينطوي سر انتمائنا الطوعي أو اللاواعي إلى الجماعة. كلفّتي أم علي بالذهاب إلى بيت ذلك الشاب لأبلغه بضرورة أن يأتي إليها فوراً. لم يقل أحد لسميرة إلى أين يجب أن تعود وتبلغ رسالتها. ولعل أحداً لم يكن بحاجة إلى ذلك، فكلُّ راح يتدبر أمره مع

الوضع الجديد على طريقته، في سباق مع عسكرة كل شيء وكل أحد. حتى بات من الصعب على أي كان أن يقول كيف يكون المدني من العسكري، وهل أحدهما دون الآخر ممكن. وبعدها غادرت أم علي إلى صاحب المهمات الخاصة، اتجهت هي صوب دارها، ملقبة نظرة على نافذة بيت الشرطي. كان حميروش هناك، وكان الشرطي في مكان تجهله المرأتان. كان الشرطي في تلك اللحظة لاطياً خلف واحد من ثلاثة قبور تحدّ حاكورة داره مع حاكورة الجيران. كانت القبور الثلاثة العتيقة تحت خرنوبة كبيرة، كثيراً ما ينبع فيها طائر البوم. كانت القبور لرجلين وامرأة قتلوا في نزاع على حدود الأرض. دار النزاع على بضعة أمتار، على شريط يصلح لأن يكون تخماً بين الأرضين. وعلى هذا الشريط، قتل رجل، من جهة، ورجل وامرأته من الجهة الأخرى. قتلوا بالمعاول والفؤوس. ودُفِنوا حيث خرّوا صرعى على التراب نفسه الذي ماتوا جميعاً من أجله. كان يمكن لهذا التخم الشريط أن يكون خط حراثة لا أكثر ولا أقل، لكنّه بفضل من موتهم ظل كما تتازعوا عليه بضعة أمتار. خدّ موتهم المساحة المتنازع عليها للموت. دفن الرجل وزوجته متجاورين ودفن الجار القليل من جهة المرأة. ويقال إن الخرنوبة التي هناك زرعت يوم مرّ أسبوع على مقتلهم. كان يجدر بالشيخ أن يأمر بدفنهم في حفرة واحدة، لكنّه لم يفعل. كان ذلك، كما يروي الأجداد من زمان أي من زمنهم. لسبب ما، يسعد الأجداد، بل ويسعد معظم الناس، أن ينتموا إلى زمن عهيد، بدعوى أن كل شيء في الماضي كان أفضل، وحتى ذكريات الفقر كان لها وجه أبيض ناصعاً، على الرغم من أنهم كثيراً ما يتحدثون عن فقر أسود. أم أنّ الفقر لا علاقة له بتوافر الطعام والشراب! فحين تصل المسألة إلى حدود الأكل يكون العدم!

لا أحد يعرف على وجه التحديد عمر أجداده، وكلّ يريد لهم أن يكونوا أكثر إيغالاً في عمق التاريخ والأرض. ومع ذلك فهم لا يعرفون، لأن التواريخ التي في سجلات النفوس قد تزيد أو تنقص تبعاً للذاكرة وللمصلحة وللمزاج ولأشياء أخرى آن تطلب الدولة تسجيل المكتومين.. ومع أن تسجيل المواليد صارت تقتضيه ضرورات المدرسة والجيش، إلا أنّ بعض الناس غالبوا الضرورة ورأوا أن من الأفضل لأبنائهم أن يظلّوا خارج الدولة وسجلاتها التي لا تجلب الخير فكتموهم. وإذا ما صدق عهد الخرنوبة فإن علماء النبات يفيدون في تحديد أعمار الأجداد أكثر مما تفيد سجلات النفوس.

لم يكن علي الشرطي المختبئ خلف القبور يفكر بذلك، بل لعلّه كان يفكر بإضافة قبر رابع إليها، كي تراه امرأته من النافذة وتتذكر عارها. راح علي الشرطي يتردد بين قبر واحد وثلاثة قبور. الثلاثة ليست هي القبور التي جاء أحد ما من الأحفاد وجدد الريحان على اثنين منها من يوم أو يومين، لا إنّما هي قبور راح حفّارو القبور يحفرونها في ذاكرته. فقد دار صراع بين الحفّارين في أن يحفروا قبراً واحداً هو لحميروش أم يحفروا ثلاثة، لحميروش أولاً ثم لها بعد أن

تكون قد رأت موته، ثم للشرطي نفسه. تردد عليّ بين أن يقتل حميروش فقط أو يقتله ثم يقتلها، ثم يقتل نفسه. ما جعل عليّ يحسم أمره باتجاه قتل حميروش فقط، هو أنه تذكر المبالغ التي صرفها لبناء بيته الجديد وفرشه الذي ينعم حميروش به الآن، والأشهر الطويلة من التعب والمتابعة، وخاصة ماطلة النجار (الكذاب) الذي صنع له غرفة النوم.. ثم ولمن يترك هذا البيت، لأبناء أخيه الذين يشبهون أمهم (السافلة) ولأبيهم (الجحش) الذي، إرضاء لها، لم يزر بيت أخيه الجديد ولم يقل كلمة مبروك!؟ لا - قرّر عليّ - بل سأعيش نكاية بهم، فهؤلاء السفلة لا يستحقون أن أترك لهم قشرة بصلة. وكان عليّ شبه متأكد من أنهم سيبلون عليّ قبره بمجرد أن يرثوا البيت وما فيه، وسينشرون الحكايات عن امرأته (القحبة). للحظة شعر عليّ بالشفقة عليها، وقرر بصورة نهائية أن يعيش ويتركها حية.

لطي عليّ الشرطي هناك بانتظار أن تتوقف رجلاه عن الارتجاف، محاولا تمالك نفسه قبل دخول البيت والتأكد مما يجري على سرير الشهوة.. ثم.. عند هذه ال(ثم) توقّف. كان عليّ الشرطيّ يشعر بأن امرأته تذّله أكثر مما هي تخونه. مرّة، وفي محاولة منه لتهدئة خاطره وإقناع نفسه بأن علاقة زوجته بحميروش أمر طبيعي، فكّر عليّ، بأن عقد الزواج الذي يربطه بها يفترض أن يقوم هو الرجل بواجباته كرجل تجاهها، أن يشبع حاجتها، لا أن يكون كالخرقة. راح يفكّر بذلك مستعينا بخياله لاستنهاض ذكره الكسول. في المرّة الأخيرة التي فعل فيها ذلك أثناء مناوبته الليلية في المخفر، وكان قد بقي وحيدا بعد انصراف المساعد وشرطي آخر لتسجيل ضبط بحادثة اصطدام دراجة نارية بعمود كهرباء ومقتل أحد الشابين عليها، استفاق عليّ الشرطي على أنه يستحضر ذكر حميروش، الذي يعرفه جيّدا كما يعرفه كل من سبق أن مرّ من أمام بيت أم عليّ ولو مرّة واحدة قبل أن تتدبر أمه أمر إيوائه، يتخيّل نفسه صاحب ذلك الذكر، فيثيره ذلك. يتخيّل نفسه بنصفين. نصفه الأعلى عليّ ونصفه الأدنى حميروش. ثم يتخيّل حميروش كلّه، ويتخيّل نفسه مجرد عينين تنظران من ثقب، ويتخيّله يولّد فيها تلك الموجة التي اجتاحت جسدها ذات يوم. فيلجأ إلى صور أخرى من ذلك الخيال، مستسلما لانفصاله عن نصفه الأعلى أيضا، متواطئا مع المتعة التي تأتيه من هناك، مستحضرا تلك الموجة التي - أقول - اجتاحت وليس تجتاح لأنّه رأى ذلك مرّة واحدة عند امرأته ولم يرها ثانية عند أيّ منهن. حينها راحت المرأة، يائسة منه، تداعب نفسها مغمضة العينين، إلى أن كان ذلك الأنين ودفق الموج المتتالي الذي راح يجتاح جسدها من أصابع قدميها المضغوطتين على حافة السرير إلى شعرها المفروش على الوسادة يفرغ كهرباء اللذة في الطرف الآخر من الفراش. شعر عليّ بالاضطراب فهو لا يدري ما يفعل إزاء جسد يُجنّ، وشعر بالخوف عليها عندما رأى الألم يرتسم على وجهها المتشجّج ورأها تعض شفتها السفلى، ثم بكى حين رأى وجهها يسترخي وترسم عليه

خارطة النعيم المفقود. بكى علي وراح يُقبّل جسدها ويعتذر لها عن محنته، ملقيا باللوم على الله والملائكة والرسل وكل سادة السماء، ثم راح ينشج طامرا رأسه تحت إبطها. سحبت المرأة يدها التي ألقّت بها العاصفة خارج حدود السرير، سحبته بصعوبة واسدلتها على رأسه الباكي وراحت تداعبه بكسل وصمت. ثم، بعد أن غادرتها الكهراء إيّاها التي تعلمون، طيّبت خاطره وطمأنته إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام. وفي صباح اليوم التالي، جاءت المرأة باسمه بالفطور فأطاح عليّ بصينية الطعام وصفعها برغيف الخبز، صارخاً: " قلت لك ألف مرّة، يا جحشة، لا أحب البيض المسلوق ". وخرج غاضبا وصفق الباب. وما إن خرج حتى قذفت الباب بحدائنها نادبة حظّها، لاعنة قبر أمّها التي ظلّت تنزّر حتى أقنعتها بالزواج منه.

لطي علي خلف قبر المرأة الذي يتوسط قبوري الرجلين، متفحصا مسدّسه للمرة الأخيرة قبل اندفاعه صوب البيت.

رائحة الخزي

غير أبه بما يُعدُّ هناك في مقبرة بيت بومسعود، أسرع ذلك النحيل ذو العينين المطفأتين المدلهمتين، على سوادٍ عميق الغور، كما لو أن تلك الجمجمة تتطوي على كهف لا ضوء فيه، كهف تختبئ فيه أسرار العتمة، التي لسبب ما نراها سوداء، فإذا بالأسود نقيض كل لون. لا تصدَّقوا ما يقوله العلماء، فلا مكان لفيزياء الضوء هنا...أسرعَ إلى بيت أم عليّ. راحت أم عليّ، بانظاره، تشاغل نفسها بإغلاق نوافذ البيت، والتأكد، على خلاف الأبواب الأخرى، من عدم قفل بابه الخلفي، بعد تيفتها من وجود الجميع هنا عدا حبيبها حميروش الذي ترك الباب الخلفي مفتوحاً من أجل عودته. راحت أم عليّ تنظر إلى بيت الشرطي متمنية لو أن حميروش يخرج الآن ويأتي، لو أنها تظمن إلى وجوده مع أخواته هنا. شعور بقلق خفي جعل أصابعها تمتد إلى أغصان الرمان، فتشلع ورقة من هنا وتكسر فرعاً صغيراً هناك. شيء ما في روح أم عليّ راح يطفو على السطح، دافعا إلى الخلف بالعسكر وبأشباه المدنيين المجتمعين في بيت بو علي مروان وبالخطة التي هي على وشك أن تأذن بتنفيذها وبأشياء أخرى من تلك التي تستجد بها المرأة عادة في لحظات قلقها، شيء ما لم تتبين ما هو. لكن عينيها كانتا تطيران إلى حيث حميروش، كلما غفلت عن نافذة لاوعياها. تمتت أم علي لو أنها لم ترسل في طلب (مَشْ) - كان هذا هو الاسم الذي تلقبه به أم علي، ويعني لا شيء، وليس ذلك استخفافاً منها به إنما رغبة في تأكيد أنّ شيئاً مما قام به لم يحصل أو لا علاقة لها أو له به-، تمتت لو أنها أجلت مشروعها إلى الغد، فشيئاً مما تريد لن يتغير من اليوم إلى الغد، وقد يكون الغد أفضل وأشدّ وقعا، ففي الهدوء والسكينة بعد الصخب يأتي وقع الخبر أفسى.. ومع أنّ الفكرة الأخيرة شغلتها قليلاً عن قلقها، إلا أنّ القلق عاد ليلوح لها بيدٍ أصابعها أشبه بأفراع صفراء، من وراء ستارة الأفكار الجديدة التي راحت توسوس لها أنّ أرجئي كل شيء إلى ليل الغد يا أم علي، ولا بأس أن تنامي على فكرتك إلى الصباح، فالصباح رياح، فإن رأيت غداً فعل ما نويته اليوم كان هو الصواب. لكن أم علي سرعان ما طردت التردد من رأسها. فما إن تومض فكرة حقيقية، فكرة تأتي من مكان ما لم يُروّض بعد، فكرة لم تلبس ربطة عنق بعد ولم تضع المساحيق على وجهها، حتى تأتي أرتال الأفكار المروّضة خابطة أرجلها بالأرض ممجدة الواقعية مع كل صرخة وكل نداء لتطرد تلك الفكرة التي ترى الواقع بألوانه الحقيقية وبروائحه المخرّشة. إذا كان الواقع عفنا فكل الأفكار التي تأتي منه تفوح منها رائحة العفن. ورأيت أم علي تقرر بصورة قاطعة أنّ وجوه أولئك السفلة يجب

أن تلتطّخ اليوم، ويجب أن تفوح منها تلك الرائحة الحقيقية التي تغلب على كل رائحة. ورأيت أم علي ما إن تحسم أمرها معهم حتى تعود إليه، منقبضة القلب.

وفي تلك الأثناء رأيتها تهم بالصراخ لمناداة حميروش. رأيت الكلمات تصل إلى أغصان الرمان وتحط عليها. تكشّتها أم علي، ترجوها أن تطير إلى هناك، لكنّ الكلمات ترتد إليها متسائلة عن عذر يجعلها تفعل ذلك اليوم دون بقية الأيام. فما زال الوقت مبكرا على عودة حميروش من هناك. رأيت الكلمات ترتبك لرؤية القلق في عيني صاحبته، عاجزة عن إقناعها بضرورة الانشغال الآن بـ (مش) وترك حميروش ينعم بليلة من عشرات الليلات لا تختلف عن غيرها بشيء. ورأيت أم علي تقول للكلمات المعاندة: بل تختلف، فالיום أنا قلقة كما لم أكن قلقة من قبل. ورأيته يأتي وينسلّ من بين درفتي الباب، كأنه لا شيء فعلا، ورأيتها تسير خلفه إلى غرفة المؤونة الملاصقة للبيت، وكنت قد رأيتها قبل ذلك تقوده إلى هناك، تنسلّ خلفه كما لم تفعل من قبل، فهي من يسير في المقدمة عادة. ورأيت القلق لا يغادر يديها، ولا ينصرف عن خصلة شعر موشاة بالبياض مسدلة أمام عينيها. رأيتها تنسى لماذا أرسلت في طلب مش، وتهمّ في إرساله إلى بيت الشرطي ليأتي بحميروش. رأيتها لا تلقي بالا إلى أنّ أحدا يجب أن لا يعلم بقصة حميروش مع امرأة علي. رأيتها يفوتها أنّ كثيرات في الضيعة لاحظن انبعاث حياة جديدة في امرأة علي وتساءلن عن السبب، ولما كان سبب ذبولها واضحا لهن، فلم يعد من الصعب عليهن تخمين طبيعة النسغ الجديد الذي راح يسري فيها. ولما لم تكن أم علي وحدها صديقة ليل ودروب ضيقة وأبواب نصف موصدة فلم يكن من الصعب عليهن تحديد مصدر النسغ. ثم رأيتهم يسكتن عمّا يعرفن، لا خوفا من علي الشرطي ولا درءا لشر أم علي، إنّما بانتظار أن تطلّ أفعى من جلباب المرأة يوما فيسحقنها بألسنتهن. رأيت أم علي يفوتها ذلك ورأيتها لا يعني روحها القلقة أن يعلمن أو يجهلن، وليست نون الأنوثة هنا إلا تأكيدا على ميم الذكورة. أم أنّ الفرق بين الرجل والمرأة يكمن في ميم ونون، كما هو الفرق بين النسوة والنسوان في طبيعة النون؟! يا خيبة الحروف، ليست كلّها سواء! وخلقنا الأرقام العربية في ستة أيام ثم نصبناها على عرش العالم في السابع! بين نقطتين وستة تعيش الأرقام العربية. هناك تتوالد. هناك يصير أحدها إلى الآخر. أيكون الفرق بين الميم والنون فرقا بين رقمين، أحدهما صامت والثاني صائت: ما اسمك واسم أمك؟ سألتها الشيخ، ثم راح يحول الحروف إلى أرقام ويحصي ما يتبقى منها بعد إلفة وخصام بين أصابع يديه التي راحت ترسم ظلّاتها شمسُ الصباح على حائط أبيض علّقت عليه صور الأجداد.. ثم: ما اسم زوجك واسم أمّه؟ وبعد لعبة صامتة من خيال الشمس: يجب أن تغيّري اسمك وإلا فإن حياتكما معا لن تجلب إلاّ البلاء! ثم راح الشيخ يبحث عن اسم لها يناسب اسم زوجها وبه يأتلّفان، باسما أمام عينيها الغائمتين قائمة من الأسماء الجالبة للخير: ويجب أن

يناديك الناس، ويكفي أن يناديك أهل بيتك باسمك الجديد، وفي أقل الإيمان أن يناديك هو بهذا الاسم حتى ينشحن بطاقة المعنى. لم يقل لها الشيخ إنّ المشكلة يمكن أن تحلّ أيضا فيما لو غير زوجها اسمه. أهو كان يعلم بأن الرجل لن يقبل بتغيير اسمه، أم هو لم يخطر بباله أن يضع الرجل في مقام يعرضه للسخرية؟ فأى رجل هذا الذي يقبل بتغيير اسمه من أجل امرأة، وأن ينادى باسم مصدره الضعف! الحب يعني التبعية والضعف. هكذا يقول من تعرّضوا لهزيمة الحب. فيكفون حتى عن النطق باسم من هزمهم. معنى الأسماء يتولّد من النطق بها. نحن مصدر المعنى وما إليه طاقته تؤول.

ثم رأيت أمّ علي التي لم تغيّر اسمها الذي طغى عليه اسم علي فنسيه الناس وهي نفسها كادت تنساه.. لم تغيّر اسمها في ذلك اليوم البعيد الذي مات عنه الشيخ ودثر قبره، لكن بخور الزائرين، على خلاف القباب المحيطة به، لم يهجره. ورأيت أمّ علي تومض في ذهنها ذكرى ذلك اليوم فتبتسم ابتسامتها الصفراء تلك، ساخرة من الضعف الذي يولّده القلق. ثم رأيتها تنزع غطاء رأسها وتعيده مرتين، مائلا، نحو اليمين مرّة ونحو اليسار مرّة أخرى، ثم تنزعه فتفضه وتطويه وتحط به أصابع تكابر على الارتجاف محاولة إحكامه، كما ينبغي لامرأة تهم بالخروج، على رأس ملبد الشعر لم يحكمه الشيب بعد. ورأيت تينك العينين المطفأتين في إطار وجه (مش) المستطيل تشتعلان. يخرج منهما شعاع إلى بيت بو علي مروان وآخر إلى بيت الهدد وثالث إلى بيت المختار ثم إلى بيوت آخرين عيّنهم أم علي بكلمات مقتضبة، ثم رأيت أصابعها تغزل ضوء عينيه حول ما يجب فعله وأين وكيف ومتى، وكما يكون منه هنا وكما يلزم هناك. رأيتها تغزل الضوء فيستجيب. ورأيت الضوء يتسع لكل شيء كما تتسع له العتمة. رأيت كثيرا من الظلم يتعمّد بالضوء وكثيرا من الحق تحجبه العتمة. ورأيت شائنين وشائنات وظالمين وظالمات على عروش من نور ورأيت أصدادا لهم في الديجور. ورأيت أنّ الشيء هو ما يتبقى منه ويصير إليه بعد أن يصطبغ بالديجور وينجلي بالنور. فإذا هو ما لم يذهب به هذا أو ذاك أو ما تأصل منه بهما معا. ورأيت كثيرين لا يبقى منهم شيء. ورأيت (مش) يعبر الضوء والظلام، تتطفئ عيناه وتشتعلان، وتبقى يده قابضة على ذلك الشيء الذي أوصت به أمّ علي والذي به سنتعين أسماء الذين إلى أولادهم لا ينتمون. ورأيت في الانتماء إلى الأولاد انتماء إلى الحجارة والرمل والصلصال، إلى الغضار والحوَار والكبريت، إلى التين والزيتون والبلان والطيون والقطلب والريحان والخرنوب والزرود وإلى العيصلان والعلقم، وإلى الماء زلاله وأجابه.. انتماء إلى الحق والطبيعة يتشاكلان كمثل ثعبانين في رقصة زفاف، انتماء إلى اللعب الأبيض والندوب البيضاء، وليس انتماء إلى اللغة فيهما إنّما انتماء إليهما فوق اللغة. فالأبيض في اللغة خالص لا مكان للألوان الأخرى ولا لدرجاتها وطيوفا فيها، وكذلك الأسود. ورأيتنا يريحا أن نستسلم للغة معلّبة،

تاركين كيمياء التفاعل والصيورة في مكان آخر، خشية ما فيها من نار. ورأيت، على غير ما يريد القابضون على القول، أن لا طبيعة خالصة في شيء. فطبيعة الشيء هي ما يصير إليه وبه، ورأيت أن من يعي صيرورته مسؤول عن طبيعته... ورأيت الرجال في الدار التي لا تنتظر البارود يعدّون لحفل الشواء. رأيت الهدهد ينحر الكبش ويعمل فيه سكين بوعلي مروان، فيما ابنته الكبرى، في غفلة من ابنة بوعلي مروان، تدفع ثدييها نحو الأعلى كيما يبرزان بانتظار الضباط، لاعنة حمالة الصدر التي لا تطاوع رغبتها، حاشرة أسفلها منديلا أبيض نسيه صاحب البيت على السرير. كان بوعلي مروان يغطّي رأسه بهذا المنديل الأبيض حين يؤدي الصلاة. ورأيت ابنة مروان تتقلّ نظرها بحسرة بين مؤخرتها العريضة المسطحة المنعكسة في المرآة ومؤخرة ابنة الهدهد الشبيهة بمؤخرة النملة. لم يكن ثديا الصغيرة يحتاجان إلى دعم. فكثيرا ما رأيت الأم تتبّه ابنتها إلى أن لها صدر امرأة، وأن عليها أن تتبّه إلى ذلك، فلا تلبس القميص دون حمالة صدر. كانت الفتاة أشبه بأمها. رأيتها تحاول الدفع بردفيها إلى وسط وأعلى مؤخرتها، متخصّصة في المرآة الشكل الذي ستبدو عليه فيما لو أمكنها تثبيتها بتلك الوضعية. ثم رأيتها تتجه إلى غرفة أخيها علي وتقلّ الباب من الداخل بالمفتاح، وتلجأ إلى خزانته وتسحب منها سروالين قصيرين. كان علي ضامر الوركين، عريض المنكبين، ممشوق القامة، لم ترخ الرجولة أثقالها عليه بعد. رأيت الفتاة تنزع سروالها الأزرق. أردته جينزاً فجاء شبيهاً به. كان الخياط أحمد بن علي يأتي بقماش أزرق سميك من مخصصات عمال معمل الإسمنت. كان القماش يأتي إليه بطريقة ما، وكان يعالج زرقه القماش بمحلول ملح الليمون في بعض مواضعه، فيزيل الحمض اللون بدرجات تجعل له هيئة قريبة من سروال راعي بقر عتيق متسخ. ورأيت الفتاة تحشر ساقها في سروالي أخيها وتدفع بهما إلى خصرها. ثم رأيتها يحزنها أن يكون سرجاهما أطول مما تريد، فهي أقصر من أخيها بنصف ذراع إن لم يكن أكثر. ورأيتها تجهد في معالجة نكّة السروالين، ثم بعد أن ارتدت سروالها الأزرق فوقهما، رأيتها تجهد في معالجة الطيات والثنيات التي بدت واضحة من خلف. ثم رأيتها تنفض يدها من المحاولة فتنزع، بعصبيّة، السراويل جميعها دفعة واحدة، فينزل سروالها الداخلي معها، ورأيتها، بعد نظرة مبتورة إلى عانتها، تسرع في إعادة الأشياء إلى سابق وضعها مع اهتزاز الباب واندفاع قبضته مرّات متعددة إلى أسفل وأعلى. وجاء صوت علي: افتحي يا حقيرة!! كان علي يخطط لدعوة ابنة الهدهد الصغرى لتتقرّج على غرفته. كان يخطط لإخفاء أشياء وإظهار أخرى هناك، فإذا به يتفاجأ بالباب مغلقاً دون يده المشحونة بالرغبة. ورأيت اخته في هربها منه إلى المطبخ، وقد رفسها على مؤخرتها، تقنع نفسها بأن شكلها هكذا لا بأس به، وأنها ستعرف كيف تلفت نظرهم بحركاتها، وستختار، أثناء وقوفها أو عبورها أمامهم، تلك الوضعيات التي تبدو فيها مؤخرتها جميلة. لم تكن الحيلة تنقص الفتاة

في إخفاء عيوبها وإظهار محاسنها. لا بد أنّ الضباط يحبّون الأثناء العامرة! فكّرت الفتاة، مائة الصحنون بابتسامه رضى.

لم تترك قلوب الكبار الباردة في بيت بوعلی مروان فضاء لأحلام الصغار ولا لسراويلهم الساخنة. راح هواء الكبار في بيت بوعلی مروان يتقصف مترقباً رعداً على وشك أن يأتي هادراً من مقبرة بيت بومسعود. راح الرجال يتنقلون من مكان إلى آخر في أرجاء البيت دون فعل يؤدونه، تُسابقهم أيديهم المضطربة ورقابهم الممطوطة إلى ما ينتظرون مما لا يعلمون. أهو القلق؟ أيلق الرجال بانتظار مائدة لم يسفح عليها الخمر بعد! أجل يقلق الرجال، ويكابرون على قلقهم. أقول (رجال)، هنا، متردداً، ذلك أنّ لكلمة رجل شحنة إيجابية تحضر في أفهامنا بمجرد حضور الكلمة. أم يتوجّب عليّ أن أخفي مشاعري تجاه المجتمعين في بيت بوعلی مروان، فأعبر عنها مواربة وليس مباشرة، كما أفعل الآن! لا يعنيني كثيراً أن أخفيها فالحكاية كلّها تشي بموقفي حيال أمثال هؤلاء. ثم، من قال إن القارئ سيتعاطف مع موقفي، فقد يعجبه ما هم إليه ذاهبون، ويبحث عن أذكار لهم، بل قد ينفر من أمّ علي على الرغم من تعاطفي الواضح معها، وقد يتعجّل قراءة السطور توقاً إلى نصر لهم عليها، وقد يأسف لعدم حضوره معهم، ليس نزوعاً إلى ما في سرّوالة ابنة بوعلی مروان وابنتي الهدهد، إنّما رغبة في كشف ما خفي على الرجال هناك، رغبة في الانتصار لهم. وقد يكمن السبب في شيء آخر، شيء آخر مفيد. فكثيراً ما نضبط أنفسنا وقد دخلنا اللعبة. تسحبنا الحكاية، يسحبنا الفيلم، تسحبنا الرواية، فإذا بنا ننقسم على أنفسنا إلى نصف هنا ونصف هناك، نتضاعف، نزدوج. نصفنا يشي لنصفنا الآخر بما يعلم ويوجّهه عن بعد، كما توجّه طائرات التجسس الصواريخ إلى أهدافها. أتخيّل قارئاً ينضمّ إلى جماعة بوعلی مروان. سيقول لهم: مساطيل أنتم، لا تعرفون ما تدبر لكم أمّ علي! أنتم لا تعرفون شيئاً عن اجتماع أولاد التحتانية الشياطين الصغار في جورة الأعور، ولا تعرفون أن نسيبة سمعت كل أحاديثكم، وأن صبي أمّ علي - هم لا يعرفون أنّ أمّ علي تناديه بمش، ولذلك لا يشير إليه باسمه - سيأتي في الليل ويترك علامة لا تنسى في بيوتكم، وأنّ سميرة هي من سرق بيت المختار، وأنّها ستأتي لأمر دبرته أمّ علي مدّعية رغبتها في مساعدتكم خدمة لكم وللضيوف، وأنّ بوعلی جاد رفع صلواته ليذهب الله بهؤلاء العسكر إلى الشيطان الرجيم، حيث سيكون سيدهم بانتظارهم إلى يوم يُحرقون فيه... وأشياء أخرى كثيرة سيقولها لهم لأنه سبق أن قرأها فيما فات من صفحات. وسيحاول إبطال خطط المؤلف. وسيجعل أبطاله - هو طبعاً سيختار أبطال خاصين به من بين الشخصيات الضد - الدراما تقتضي ذلك، ونحن كثيراً ما ننزع إلى الدراما - سيجعلهم يضعون خططا بديلة فيفسدوا الأمر على المؤلف. يكمنون لأعدائهم حيث لا يريد، ويقومون بما لا يفيد نواياه، فيعصون أوامره ويشقّون عليه عصا الطاعة. يضع القارئ نفسه في

نزال مع المؤلف. وطبيعي، والحال كذلك، أن يختار لنفسه أصدقاء ممن يدعو المؤلف إلى النفور منهم، ويتبنون التصرفات والأفعال التي يبذل المؤلف القول، حبراً أو لعباً، لإدانتها. وبنتيجة النزال يبقى ورق ويفنى ورق. ولكن من الذي ينتصر في النهاية؟ في النهاية ينتصر النزال نفسه، تنتصر اللعبة. لا أحد يدخل اللعبة ويخرج منها كما دخلها. فاللعبة تداخل دمنا بمجرد أن ندخلها. نلعبها فتلعبنا. أم هل للكتابة معنى خارج ألعابها؟ وليس الفرق كبيراً بين لعب الكتابة، بل لعب الفن عموماً، ولعب الواقع. فالجميع يلعبون بجدية. وحتى حين يبدأ المرء لاهياً تراه ينتهي مثقلاً بجدية. نحن كثيراً ما نمتدح الجدية وكثيراً ما يفوتنا أنه المطب الذي يوقنا فيه ظل الحياة. الجدية في كل شيء هي أسوأ أشكال التعاطي مع الحياة. تلهو بنا الحياة فنختار الطريق الخطأ. نخشى اللهو معها وبها. وأنا في هذه السطور غارق في جدية تخرب عليّ سلاسة اللعبة وتبعدي عمّا رأيته يحصل في بيت بوعلی مروان.

ورأيت الأمور تنقلب فجأة في بيت بوعلی مروان نحو وجوه للاحتفال لم ينتظرها أحد هناك في نفسه. نحن نحتاج إلى كثير من الألوهة في أنفسنا كي نكون أنذالا خالصين أو أختياراً أنقياء، ونحتاج إلى كثير من العماء مؤاكبٍ للألوهة كي لا تؤثر فينا الريح والماء والملح في طريقنا من الإله إلى اللحم والدم. ورأيت الرجال يفاجئ بعضهم بعضاً بعبارة تنم على انتظار مشوب بالقلق. رأيت الهدهد يخشى أن تشغل امرأته عن إقبال باب الزريبة، فيدخلها العسكر ويكتشفون ما خبأ تحت أخشاب سقفاها الواطئ. رأيت يقلق على أأنانه الرمادية الحرون المتروكة وحيدة هناك. رأيت تنازعه نفسه بين البقاء هنا، مغلول اليدين، والذهاب إلى هناك، ثم العودة إلى هنا بعد أن يكون كل شيء قد هدأ. ورأيت المختار يخشى أن يستغل ابنه غيابه فيسرق ما لم تطله يده في المرة السابقة. ألم يوحى للمختار، بفضل من شمعون، ببوح الرمل، وترسم له صورة ابنه سارقاً، لا يؤتمن على مال أبيه؟! ورأيت المختار يهجم بالخروج إلى داره، راجياً أن يتكرم بوعلی مروان بإرسال ابنه لإخطاره آن وصول الضيوف الأكارم إليه. رأيت المختار تخالط قلقه رغبة في الصعود إلى العلية ورؤية ما إذا كانت جارتته ستترك باب دارها مفتوحاً على فخذها الأبيضين. ورأيت بوعلی مروان نفسه يخشى أن يصل العسكر إلى داره قبل سادتهم فيغريهم أن يلقوا في صحنه الواسع مما فاض عن حاجة الضيعة من المتفجرات. ورأيت يكاد يأمر الصبايا بإدخال القدر والأواني وكل ما وضع أو سهي عنه إلى داخل البيت، والعمل هنا في المطبخ، وليس في صحن الدار. ورأيت يأسف لفوات الأوان. الجميع في لحظة ما يشعرون بفوات الأوان ويتجرعون علقم هذا الشعور. رأيت يفوته أن لهيب نار الحطب تحت اللحم المعد للسلق على بعد مترين من الجنارة اليمين، ولهيب نار أخرى منتظرة في مكان يناظره من الجنارة اليسار، بل في ذهنه، سيشع إلى البعيد، البعيد. كان بوعلی مروان، من أجل أن يفقأ عيون الحساد وبوهم القادمين إليه

في سؤال لا يستأهل الجلوس أو في مشورة عابرة يستحلون إياها تجربته في السلك، كان قد أعدّ في داره مكانين للشواء، أو لإشعال النار. أليس يكفي أن تشعل النار وتلقي على جمرها بقليل من الدهن حتى تتلمّظ شفاه العابرين وينفتح خيالهم على نزيز اللحم فوق الجمر؟ وكانت حجارة الأول منهما سوداء، فيما لم تخالط حمرة النار ولا سوادها حجارة الثاني. عرفت القطعة كيف تطمر برازها بعناية في رماد الأول، فيما جعلت إحدى الدجاجات من الثاني المرقد المفضّل لبيضها الدافئ. لم تكن الدجاجات تهتم لطبيعة صاحبها. فعلى الرغم من كل شيء، كانت تضع غير قليل من البيض. ورأيت علي يقطّب حاجبيه فجأة، وينظر بغيرة إلى الفتيات الثلاث. رأيتته يتبّه فجأة إلى أنّ الفتيات أعددن أنفسهن لاستقبال الغرياء. ورأيتته يرى نفسه، على خلفية ما سيحصل، عبداً مخصياً في خدمة مخادع المدّعين الأمانة الغرياء. ورأيتته يهّم بإفساد كل شيء. رأيتته ما إن تركز إحدى قدميه إلى مكان حتى تتدفع الأخرى إلى غيره. ورأيتته ينوي شيئاً لم يتوقعه أحد منه. رأيتته لا يلقي بالا إلى ما يمكن أن يحلّ بأبيه لو فعل. ورأيتته يعزم على ما نواه، ويخطو الخطوة الأولى باتجاهه. رأيتته ينادي أخته وابنتي الهدهد لدخول غرفته بسرعة. وهناك رأيتته يحتدم، ثم يكظم غيظه مرجئاً انفجاراً كاد يأتي علي سواد عينيه إلى حين .. ثم رأيت ما ستعلمون به عمّا قريب.

ورأيت أم علي تسلّم مش، قبل أن ينطلق إلى مهمّته، قفازين سوداوين من مطّاط، ثم تنطلق إلى باب دارها الخلفي بين تقنحه وتعلقه وتتطلع إلى الدرب الموصلة إلى السماء السابعة قبيل أن تتفحص الدرب المنسلّة بين الأشجار من باب بيت الشرطي الخلفي إلى هذا الباب.

علي يخرج علي أبيه

طحنت عجلة دراجة علي الخلفية حبيبات التراب وقذفت بالحصى إلى الدست الموضوع على النار، قبل أن تندفع كثور هائج خارجة من باب الدار. ولكن ظهور سميرة على بعد خطوات من شجرة الخرنوب التي تظلل المسافة الفاصلة بين سور البيت والطريق، أجبر عليّ على سحب منديله الأحمر من أمام عيني ثوره الهائج. أوقف علي دراجته بالقرب من سميرة مستغربا ظهورها هنا، مستفسرا بعينه قبل لسانه عن سبب هذا الظهور المريب. بادرت سميرة بأن والدتها أرسلتها لمساعدتهم في التجهيز لاستقبال الضيوف. فالوقت كما قالت لها الأم، قصير ولا بد من أنّ الجماعة يحتاجون إلى المساعدة. أراد علي أن يسألها: كيف عرفت أمك بضيوفنا؟ لكنّ النار التي أخرجته من الدار لم يكن قد خمد أوارها في صدره بعد، بل اشتد لظاها مع ظهور سميرة المفاجئ. فكّر علي: القحبة! بعثت ابنتها. صار بيتنا بيت دعارة. اشتمت سميرة رائحة السؤال في أنفاس علي، فعاجلته:

- امرأة الشيخ - وكانت تعني الهدهد - قالت بيت بو علي مروان ذابحين كبشا وفي حاجة لمساعدة، وهي بعثت بناتها لمساعدتكم، فقالت أمي: الجماعة جيراننا ومن واجبنا مساعدتهم بفرحهم وحنينهم.. كأن مجيئي زعلك يا علي!

- إمشي معي! - صاح علي متجاهلا ملاحظتها الغنجة - اركبي خلفي

- إلى أين؟ سألته سميرة مستغربة

- لا أعرف، لكن لا أنت ولا واحدة من البنات يمكن أن تظلي في هذا البيت! وما إن اقتعدت سميرة الجلد الأملس الدافئ، وعانقت علي من خلف، حتى سألتها، وبدا فعلا لا يعرف إلى أين يتجه. فقد ظنّ نفسه ذاهبا إلى بيت أم علي، قبل أن تخبره سميرة بحديث زوجة الهدهد لجاراتها عن حفل العشاء، الحديث الذي ابتدعه ذهن سميرة على غير انتظار من صاحبتة. ولسبب يصعب فهمه، ومضت أم علي في ذهنه ثم سرعان ما تلاشت:

- إلى أين؟ أرادت سميرة أن تقول له: إلى (الضامات). لكنّها لمّا رأت أنّ شيئا من روح

الضامات لا يبدو عليه، قالت:

- محلّ ما يعجبك.. خلّنا نروح إلى الكروم؟! قالتها وجلة، متحسسة وقعها عليه.

وفي الكروم وليس في مكان آخر تلك الحجرات الصغيرة المبنية من أجل مواسم الجني المسماة بالضامات، مداميك جدرانها من حجارة الحقول البيضاء وسقفها من جذوع الصنوبر وفوقها البلاّن والوزال مرصوصين تحت الطين. وكان الصنوبر لا يزال يجاور الزيتون في تلك الأيام. عشق الضامات شيء وعشق مساطح التين شيء آخر. وليست المسألة في الفرق بين الشتاء والصيف. فكلّ منهما رائحته وامتداداته. الروح تروح إلى مساطح التين والجسد يهفو إلى ضامات الزيتون.

- ما رأيك بنسيبة؟

وكان يعني الذهاب إلى نسيبة. خطرت نسيبة بباله لعلمه بعلاقة سميرة الطيبة بها، وبوجودهما معا في فريق التحنانية. لم يكن علي على علاقة سيئة بأحد من فريق التحنانية خلا شمعون. وحتى الأخير، كان سوء العلاقة به يقتصر على النفور منه، وتجنّب التواجد في مجلسه. وكان معشر علي، بعدما اختبروا ردود فعله على غمزهم ولمزهم يجتنبون لوك نسيبة وسميرة بألسنتهن. كان يحلو لكثيرين هنا أن يعتبروهما عاهرتين صغيرتين. ستجد من يقول: أجلّ هما عاهرتان. سيقول ذلك ليس لأن المشكلة مفهومية عنده، من حيث هو لا يفرّق بين المتاجرة بالجسد وتركه يشدو مع العصافير في تناغم يصعب معه التفريق أين تكون الروح وأين يكون نسيجها النابض، مضغّة السماء في الأرض وما فوق الأرض. وليس لأنّه لا يفرق بين العيش على سنة الرياح والشمس والماء وورق التوت وقطر الكروم إنّما لأنهما فعلتا شيئا لم يجد لغة لتوصيفه، لم يجد حجرة في عقله لتوضيحه فيها. دخلتا فريق الصبيان، شاركتاهم لعبهم وخلواتهم. باتت جورة الأعور لكسالي الروح مخدعا ومكانا لخلوات الجسد. هكذا أرادوهما من أجل أن يستسيغوا استسلامهم لمشيئة الفصام. لا بد أن يفصل الانسان من نفسه بعضاً ويلعنه كي يطمئن البعض الآخر إلى صوابه. أن تتآلف مع حرمانك من الأوكسيجين يعني أن تلعن الأوكسيجين من أجل أن يغدو الحرمان طبيعيا وكل ما عداه ضلالا. وهكذا كان! لكأنّ اللواتي لم يعلنّ انتماءهن إلى الصبيان لا أرض يزرعن فيها نداءهن!! أجلّ، فكسالي الروح يعيشون بأرواح غيرهم، وغالبا ما تكون تلك الأرواح للبيع والشراء والتأجير والاستئجار.

- نسيبة! طيب، يا أستاذ علي..! قالتها مداعبة.

- معناها، خلّني أوصلك أولا.. خبريهم إنّي رحّت أوصل البنات لبيت جدي.. وإنّي سأرجع بعد دقيقتين.

راح الهواء في اندفاعه يملأ صدر علي، ويشعره بأنّه أسرع من رصاصة أطلقتها بندقية وأقرب منها إلى الهدف. وأمّا سميرة فعانقته حاشرة رأسها في عنقه من الخلف، متحسنة رائحة

غضبه الذكوري، متمنية أن يبلغ هذا الغضب أقصاه، فيفعل علي ما انكفأ عنه شمعون، أمام كلمات أم علي المتفحصة للثبات والرجولة فيه.

ليست سميرة وحدها من شعر بضعف شمعون، وبخسارته في امتحان أم علي له، بل معظم الشياطين الصغار في فريق التحتانية شعروا بذلك ومنهم من طمر وجهه في راحتي يديه خجلا. انتظروا أن يبادر شمعونهم إلى رأي، أن يأمرهم بالذهاب وقذف المهاجمين بالحجارة على الأقل، أن يأمرهم بإشعال النار في بيوت المتخاذلين الذين يعدّون لاستقبالهم بحفاوة، بعد أن يكونوا قد روعوا الصغار والكبار. لكنّه لم يفعل، بل انصاع لأمر أم علي وولى إلى مكان يجهلونه. وفي تلك اللحظة شعروا بأن أم علي أجدر بقيادتهم منه، ولتذهب كرة القدم وليذهب معها عرجه الذي قرّبه إلى نفوسهم وقره الذي أسكنه قلوبهم.. ليذهب إلى الجحيم. وبعضهم لازمه الشعور بانهزام شمعون طوال الأيام التي تلت تلك الحادثة وما أعقبها من أحداث. راح شياطين التحتانية الصغار يشعرون بالانتماء إليها أكثر من الانتماء إليه، وراح بعضهم يبحث عن فرص لدخول عالم المرأة التي تحتقر أنصاف الرجال. كثيرون في الضيعة، وليس دون مساعدة صغارهم، خمنوا أن لأمّ علي علاقة بالعقاب الذي تعرّضت له بيوت (عديمي النخوة) - هكذا راحوا يسمّونهم، بعد أن تناقلت الألسنة سبب استهداف بيوتهم دون غيرهم - ولسبب ما سكت العارفون عمّا عرفوا، وتمنّوا المزيد منه. وحتى الفاجعة التي تعرّضت لها المرأة في ذلك الليل لم تشوش ثقتهم بعلاقة ما لها بالأمر. أرادوا أن يكون الأمر من تدبيرها. صلّوا من أجل أن يستر الله شيخوختها. أمّن أجل الله أم من أجل غيره كان ذلك! فمن الأشياء التي يصعب فهمها أن أحدا ممن عرفوها لم يخطر بباله أن يتناول بالريبة وبلسان السوء علاقتها بالرجال الذين تشاركهم مجالس الخمر. لم يتفوه أحد بشيء عن علاقة ليلٍ لأم علي بأيّ من الرجال، على الرغم من أنّها ترمّلت وفي جسدها من صلصال الأنوثة ما لا يخفى على عيني خزّاف. ربما لأن المرأة كانت تجاهر بما يتستر عنه الآخرون من أشياء وأشياء، وليس أقلّها تناول الخمر في حانات ألفت عيوننا وأسماعنا أن تكون للرجال دونهن، وربّما أيضا لأن لسانها، ساعة تطلق له العنان، يبسط على قارعة الطريق ما تحمّر لذكره الوجوه خلف الجدران. وأمّا دهاءها فقد أقرّ به الجميع. ومع أنّهم يقولون عنها (كهينة) إلا أنهم في الحديث عن أم علي بالذات يكسبون هذه الكلمة شحنة إيجابية. لعل علاقة ما بين الكهن والكهنوت تستيقظ في إيمانهم ساعة حضور المرأة بين أيديهم. كم مرّة نمثّل بين أيدي البشر قبل أن يمثل المؤمنون منا بين يدي الله؟ أليس على المرء أن يؤمن بالمثل كي يمثل؟! كثيرون تمنّوا أن تكون أم علي قد انتقمت لموت ابنها قبل مقتله. بل، رجوا أن توقع المزيد من الأذى بالأدلاء المتخاذلين. لكن معظمهم راح يتصرف على خلاف ما يدعو

إليه رجاؤه وتستوجبه أمانيه. فالذليل دائما آخر والخانع آخر وكمثلهما الجبان والمتواطيء والجشع.. وأما نحن فليس فينا من السواد إلا بياضه.

- وبفضل من سفالتهم يا سمّورة! نتعشى لحمه، ونسكر.. قهقهه علي.

- وعليّ عملُ السلاطة! قالت سميرة فرحة، فهي المرّة الأولى التي يناديها فيها بسمّورة، وكثيرا ما كانت تعدّ لأبيها المزوات حين تبرق عيناه مغازلا امرأته، داعيا إياها إلى عشاء منفرد. وكان ذلك يعني أن يتدبر الأولاد أمرهم ويتركوهما لشأنهما أو أن يتظاهروا بالاختفاء.

حين عاد علي إلى البيت كان القلق والتوتر واضحين على وجه أبيه مروان. فقد انحسرت الفتيات في غرفة الصبي وتلكأن في تلبية طلبات الشيخين الذين سرعان ما غلبا عقلهما على العاطفة ورأيا أن من الحكمة استقبال الضباط على أحسن وجه، وأن من المفيد التقرب إليهم وبناء علاقة متميّزة بهم، وأن عين العقل أن يحسب المرء حساب المستقبل، فيكون له الغد فيما يحترق أصحاب القلوب الساخنة بنيران انفعالاتهم التي لا مسوغ لها. "على المرء أن يكون أحرق كي يزججه مجيء سادة كبار إلى داره!" فكّر بوعلی مروان، طاردا من ذهنه القلق من غياب ابنه المفاجئ. وحين أطلّ الأخير، واجهه بابتسامة مصطنعة، وإمعانا منه بالسخرية راح يخاطبه بفصحى مقعّرة الألفاظ:

- البنات لا يطقن البقاء من دونك يا سيادة الفارس العظيم، ولا يأتمنن إلا بأمر سيادتكم. تكرم علينا وقل لهن أن يتابعن إعداد الطعام.

- أمرك يا حضرة المساعد الأوّل- أجاب علي أبيه هازئا، ولم تكن هي المرّة الأولى التي يخاطبه فيها برتبته التي أحيل عنها إلى المعاش، لكن السخرية جاءت من نبرة القول- لقد تأخر الوقت، وعلى البنات أن يذهبن إلى غير مكان قبل أن يأتي فرسانك ويغازلوهن.
- ما شاء الله، ما شاء الله!! ما هو قصدك يا ولد؟

- قصدي واضح. عيب يا حضرة المساعد الأوّل أن نعرض بناتنا على أولاد العاهرة الذين حضرتك مستعد لكسب رضاهم، أنت وصاحبك الشيخ- أراد علي أن يرفق كلمة شيخ بشتيمة لكنّه أحجم عن ذلك خشية أن يتناهى صوته إلى مسامع ابنتي الشيخ فيكون لهنّ موقف منه لا يريده.. وفجأة تذكّر علي ما كان من حديث بين الهدهد والضابط في مقبرة بيت بومسعود- صاحبك الشيخ أغرى الضباط بابنتك يا سيّد وبابنتيه.. مفهوم- تعالت نبرة علي وبدا مستعدا للعراك- سوف آخذ البنات من هنا، خلّك أنت مع ضيوفك أولاد القحبة.

- احرص يا حيوان!! - ومدّ يده لصفع علي، فأمسكه الأخير من كلتا يديه- انقلع من بيتي، لعنك الله ولعن أمك التي ربّنتك هذه التريبة النجسة.

- أحسن من تربيتك وتربية أسياذك.. كل الناس عندكم حيوانات.. الحيوان الـ..- أراد علي أن يقول إن الحيوان هو من يفعل أفعاله هو وأصحابه، لكنّه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة، وأفلت معصمي أبيه- أنا طالع، لكن مع أختي وبنات هذا الـ..-ونظر في عيني أبيه نظرة تحدّ. ظهر المختار وكان قد سمع الصراخ في طريقه إلى تفقد اللحم والتعلل بمراقبة نضجه لالتهام قطعة منه:

- عيب، يا ولد! كيف تسمح لنفسك برفع صوتك بوجه أبيك، لعنك الله ولعن أمثالك!
- لا تقل عيب!! العيب على أمثالك، تظن الناس لا يعرفون أفعالك، رح وانضبّ في بيتك ولا تعلّم الناس العيب من غير العيب..

في هذه اللحظة رنّ صوت صفة قوية على وجه علي. جاءت الصفة أقوى مما أرادها الأب رغم غضبه. جاءت من طبيعة تلك الصفعات، التي كان يوجهها في قبو الفرع الذي خدم فيه إحدى عشرة سنة، لأناس كانت الشفقة عليهم، وفق التعليمات الرسمية، تعني الخيانة. جاءت الصفة متبوعة برفسة على الكاحل أسقطت علي أرضاً. عندئذ سحب المختار مضيقه بوعلي مروان، راجيا إياه أن يسمي بالرحمن، سحبه إلى الممر المفضي إلى الغرفة حيث يتجادل الآخرون عن فوائد حراثة الزيتون وعن الفرق بين زبل الغنم وزبل البقر، وعن أهمية بعز الماعز في معالجة الجروح، وعمّا إذا كان من الأجدى أم لا زراعة السفوح بالسّمّاق والوديان بأشجار الغار، وعن الأستاذ الفهلوي الذي جاء لينصحهم بتربية الماعز بعد أن قضى الماعز على ما كان تبقى من حراج في وادي الجراد ووادي ترسلان، وعن الفرق بين تلاوة الفاتحة على روح المتوفى قبل إهالة التراب عليه وبعد ذلك، وعن ضرورة تحديد طول خطوة الساعين لأداء واجب التعزية، فلمّا كان عدد الحسنات بعدد الخطوات وجب تحديد طول الخطوات، وإلا فإنك ستجد كثيرا من النصابين يتحايلون على الله، سبحانه وتعالى، ويقصّرون خطواتهم إلى أقصر من خطوة العصفور الدوري ليحتسب لهم المزيد من الحسنات، وعمّا إذا كان من الأصح حفر مجارير للصرف الصحي أم ترك الناس على دين أهلهم يفعلونها في البساتين والحقول.. هناك راحوا يتصايحون مستعنين، بإطالة جدالهم العقيم أكثر ما أمكن، على غريزة الجوع التي بدأت رائحة اللحم تختبر شراستها. حين ينشب الجوع مخالبه في المعدة يتساقط الفرسان واحدا تلو الآخر. قلّة هم من يصبرون على ذلك النداء الذي لا يرحم.

قبل دخول الغرفة رجا المختار صديقّه أن يغسل وجهه بالماء وأن يلعن الشيطان. فالولد مع ذلك ولده، وهو من جهته لم يؤاخذه، بل سامحه، والغضب مذموم.. ومن الأفضل أن يترك حساب الولد إلى وقت آخر. فهو، والله، ومع أن ولده كان يستحق الطرد، فهل يعقل أن يسرقك ولدك! فهو يشتااق إليه ويتمنى لو يرجع الولد إلى البيت ليسامحه..وفي لحظات انفعاله العاطفي

ومواساته لنفسه ولصديقه بو علي مروان، كاد المختار يحكي لصاحبه كيف عيّره ابنه بالتلصص على جارتهم، وكيف إنّه اقتحم العلية عليه حين كان - لن يقول له طبعاً إنّه كان يستنهض ذكره مستعينا بما يراه وراء طست الغسيل - يحلق شعر عانته، وكيف أن الولد لم يخجل من التحديق في عورة أبيه، وإنّه - لن يقول له طبعاً إنّه عيّره بقصر قضيبه ولعن أجداده على هذه الصفة التي أورثه إياها - راح يعيّره بجسده.. لكن المختار أمسك عواطفه في اللحظة الأخيرة ولم يحك شيئاً مما اندفع إلى طرف لسانه المبلبل بلعاب التعاطف.. ومع إنّه لم يقل شيئاً إلا أنّه ارتبك خشية أن يكون قد قال. فأسرع يختم المشهد:

- سامح الولد، يا الله، يا الله، المسامح كريم، خلّنا ندخل لعند الجماعة!
- والب - أراد بو علي مروان أن يقول: والبنات، هل أتركه يأخذهن؟! لكنّه أحجم عن ذلك، خوفاً من العودة إلى الثور الجريح الذي نفّض عنه الغبار واندفع هائجا إلى غرفته، حيث كنّ بانتظاره - البنات، شُف الشيخ خلّه يرتب معهن الأمور.

وما إن دخل الرجلان على المتجادلين حتى بادر المختار الهددَ برجاء متابعة أمر اللحم واللوازم الأخرى مع بناته. رآها المختار فرصة لينال الشيخ بعضاً مما أصابه، فقد ينقّس فيه علي غضبه. وحرصاً على أن لا يخرج أحد لمساعدته إذا ما هاجمه الثور الهائج، أي علي بن مروان، راح المختار يتحدّث بصوت مرتفع عن أزمة تأمين الحجارة في هذه الأيام. فلم يعد الرجال يقطعون الحجارة بفؤوسهم كما من قبل. كان الواحد يضرب بفأسه - راح المختار يخبط الأرض بعصاه مقلداً ضربات الفأس محتاطاً لأصوات صراخ قد تنتهي من هناك. كان المختار لا يطيق الشيخ الهدد، ولم يكن يوفر فرصة لإزعاجه بشرط أن لا يعلم الأخير بمصدر الإزعاج - يضرب فيقطع الحجر كما تقطع اللبن السكين.

خرج الهدد فرأى ابنته الصغرى تهّم بالخروج من باب الغرفة، وفي الداخل رأى، من بين رأسي الفتاتين الأخريين، عيني علي الغاضبتين. نبهته غريزته، وهو الذي كان يعرف معنى الخوف في أرض الضد، ومعنى أن تستشعر الخطر فتلتقط أولى إشاراتهِ لتتجو بجلدك، نبهته إلى ضرورة تجاهل ما رأى والانصراف إلى أمر آخر. أراد الهدد أن يقول أي شيء يشتت انتباه عيني علي عنه:

- الله أعلم، اللحم اهترت من طول السلق! واندفع باتجاه الموقد الذي يرقد الدست على حجارته.

- ارجع يا شيخ - فاجأه علي وفاجأ نفسه قبل ذلك بهدوء قوله على الرغم مما فيه من غلظة الأسلوب. فقد ذكره الشيخ باللحم الذي وعد بإحضاره. وكان قد عزم أمره على انتقام بارد، فكظم من أجل ذلك غيظه - ارجع لعند الأسياد، اترك الشغلة عليّ وعلى الصبايا..

فهم الهدهد أن عليه الامتثال لأمر(ارجع) والعودة حالا إلى أصحابه. لم يخطر بباله أن البنات في طريقهن إلى الخروج بصحبة علي. وأمّا امرأة مروان فقد أغلظ لها رجلها القول أمام ضيوفه. دعاها ب(العنزة). ناداها: " تعالي يا عنزة تعالي، اعتني فينا اليوم!" أراد مروان من خلال هذا النداء أن يشعرها بالمودة التي تربطه بضيوفه، أراد أن يوحي لها بخصوصية تجمعه بهم. ولو أنّ مروان فكّر جيّدًا قبل مناداتها لما فعل. فأية صداقة هذه التي تربطه بهم! هو نفسه لا يحب أيًا منهم ولا يحترمهم. ومع ذلك كرر نداءه " تعالي يا عنزة تعالي!" هنا تجد كثيرين ينادون نساءهم بالسخلة والعنزة والعجلة والفرس وبأسماء هذه الحيوانات: كحلة وسمرة وشهلة.. ولا يريدون من خلال ذلك إلا إبداء المحبة. هم ينادون الطبيعة التي يرونها في نساءهم. وليسبب ما هم لا ينادون بها (نعجة)، أو (بقرة) فالأخيرة تعد شتيمة. ولا أحد يشغله لماذا تُستخدم الأولى للملاطفة فيما تستخدم الثانية للإهانة. لم يتوقّع مروان أن يرى لون الاستياء، الذي فشلت زوجته في إخفائه، على وجهها. هو فاجأها بهذا النداء الذي كانت تعدّه إلى تلك اللحظة علامة حميمية خاصة بينهما. فالرجل لم يفعل ذلك حتى بين أولاده.. فهو حتى حين كان تنشيه كأس العرق وتدفعه إلى ملاطفتها كان يناديها بالسخلة وكانت الابتسامة تخالط قوله إمعانا بالتودد. كان يناديها بالعنزة في خلواتها فقط. تفاجأت المرأة بالنداء فاكفهر وجهها. شعرت كأن زوجها يعرّبها أمام الرجال الغرباء، فصفتت الباب وخرجت. كان الهياج هو ما أقلت لسان الرجل ودفعه إلى أقوال كثيرة لم تكن العنزة أولها. بدا الرجل في انتظاره للمأدبة، في حالة من الانفعال أقرب إلى الهياج. راح يتحدّث بصوت مرتفع، ويستذكر النكات البذيئة ويلقيها في غير سياقها، ويقهقه ضاربا بقبضة يده كتف المختار مدغدا خاصرة الهدهد. لم يتوقّع مروان أن تغادر عنزته البيت. لكنها فعلت. خرجت غاضبة إلى بيت أهلها. لم تقل لابنتها أو لابنها علي شيئا. ولا هما لاحظا خروجها. حين صفتت المرأة الباب، همّ الرجل بالنهوض، وبدا مندهشا وغاضبا في آن، فوضع المختار يده على كتفه وشدّه إلى الأرض. ومع ذلك خرج بوعلي مروان. نجح الرجل في الخروج بعد دقائق من محاولته الأولى، وبعد أن نجح في إخفاء انفعالاته، وكان قد انتقل الحديث إلى بطر الناس وتخليّهم عن أشياء كثيرة مفيدة. فهم مثلا ما عادوا يجلبون الملح من البحر:

- تصوّروا يا ناس، الخلق يشترون الملح الناعم الضار ويتركون الملح الخشن المفيد على بعد خطوات منهم! الطبيعة تقول لهم خذوه، تحشره بين أيديهم، وهم يقولون لها لا نريد، نريد ملح المدينة! أبدى الهدهد يأساً متقن الصنع على وجهه من حال البشر، فأعاد المختار بضحكة خبيثة منه:

- أليست هذه من علامات الآخرة يا شيخ!؟

حين خرج الرجل كانت المرأة قد غادرت البيت. هو أدرك ذلك، حين لم يجدها في أي مكان من أرجاء بيته. ظلَّها لجأت كعادتها إلى المرحاض. كثيرا ما كانت المرأة تلجأ إلى مثل هذا الحل لتحول بين شر غضبها وبين رجلها. لماذا المرحاض بالذات؟ لا أحد يعلم! ولكنَّه المكان الوحيد الذي كان يقهر نفورها من رجلها، ساعة يغلظ فيها القول أو تمتدَّ يده نحوها متوعّدة. أمَّا في هذه المرّة، فاستغلت المرأة طول الطريق الفاصل بين بيتها وبيت أهلها لتنفيس غضبها.

لم تكن امرأة مروان تحكي لأسرتها شيئا عمّا يفعله بها زوجها حين يجن جنونه لأسباب تجهلها، وعن الشتائم والإهانات التي يوجهها إليهم، هم أهلها الذين أقسم لهم بالملائكة وبشرف أهله أنّه سيرعاها برموش عينيه وسيكسر اليد التي تمتدّ إليها بالسوء، وسيقطع اللسان الذي يخدش حياءها أو يمس طهارتها وسمعتها وسمعة أهلها الطيبة.. وصنوف كثيرة أخرى من العذاب والعقاب وعد الرجل بإنزالها بنفسه وبغيره ممن يزعمونها، هي الزوجة التي يرجو أن تشرف بيته. لم تكن المرأة تخبر أهلها بأن كثيرا من الوعود التي قطعها على نفسه لم تكن أكثر من رغبة من الكلام ذهبت بها أول هبة ريح. كانت تلوم نفسها قبل أن تلومهم. فقد أقلقها أنّها بلغت الثالثة والعشرين ولم يطرق باب أهلها طالب قرب جدير بالتفكير، فمالت إليه. ظلّت العنف والغلظة الكامنين فيه رجولة، فأوقعت بها معرفتها القليلة بالرجال.

لم تكن المرأة تحكي لأهلها شيئا عن معاناتها، ولكنها كانت تفشل أحيانا في إخفاء الذل المرتسم على وجهها، وكان أخوها الصغير علي، وكان في الرابعة والعشرين من عمره يعمل في مكبس خفّان أنشأه لنفسه في قطعة أرض صغيرة لهم عند أطراف الضيعة الشرقية، وكان يبيع ما ينتجه من خفّان لمن تحوّلوا من قطع الحجارة إليه في عين الغار وفي الضيعة المجاورة. كان علي قد تخرّج في كلية الآداب بجامعة تشرين، وكان إلى حين تحوّل من أشهر قليلة أمضاها في التعليم من خارج الملاك إلى مكبس (البلوك).. كان يكتب الشعر.. لكنّ أشياء كثيرة حدثت هنا وهناك جعلته يتبين أن إنتاج الخفّان أهم بكثير من إنتاج الشعر، فصناعة بيوت من الأول تحمي الناس وتؤيهم وتقوّم القر والحر وتستر أجسادهم المهزومة أمام غول الخوف، أجلّ فالخوف يهزم الجسد أولا ثم يهزم الروح! فيما تعيدهم البيوت المصنوعة من الثاني إلى الخيام وإلى مجد الرمل وأمجاد الفرسان الكاذبين الذين يركبون السيارات السود ويضعون النظارات السود ويحملون المسدسات السود ويحتمون بحراس يلتحفون السود ويصنعون السود.

كان علي على خلاف مع صهره مروان، وكان الثاني قد فشل في إغراء الأول في الانتساب إلى السلك. قال له صهره، وكان علي في سنته الجامعية الأولى: "تتطوع عندنا في الفرع وبعد فترة قصيرة، وأنا واثق من ذلك، تثبت جدارتك.. ولأنّ نجمك محبوب يمكن أن تقترب من المعلم ويحبّك.. وبعدها، بعدها يا حبيبي، تطلب منه أن يسمح لك بالانتساب إلى الكلية الحربية، فيقول

لك " تكرم عينك يا علي! سأوافق ولكن بشرط أن ترجع إلينا بعد الكلية، وأنا سأضمن لك ذلك لأنك شاب شهم وقبضاي" وتصير ضابطا في المخابرات، لا يمكن أن تقوّت هذه الفرصة، لأن في تقويتها جحشنة كبيرة، فإذا صرت ضابطا في المخابرات تكون قد ضمنت مستقبلك ومستقبل عائلتك، جاه وهيبة ورهبة وسلطة ومال كثير، وبإمكانك تعمل كل ما يخطر ببالك ولا أحد يسألك عن السبب، وحتى الأكاير والأغوات يا ما شفتهم مثل الجرايع ناطرين حتى يأذن لهم المعلم بالدخول.. ضابط مخابرات! ولولا خوفي من الله، لقلت إنه أهم من الله، استغفر الله العظيم!!". وإذا بعلي يصعّر خدّه، ساخرا، وينصرف قائلا قبيل تجاوزه العتبة: " يكفينا واحد صغير في العائلة!".

مع صناعة الخفّان تأقلم علي بسرعة وقد ساعدته عضلاته المقتولة على تحمّل العمل المجهد في ضغط المكبس اليدوي مئات المرّات في اليوم وفي نقل (البلوكات) الرطبة الثقيلة من على سطحه إلى أماكن تجميعها. كان علي يمارس الرياضة من صغره، وكان على علاقة مبكرة بالإسمنت، فمنذ قوي على رفع أكياس الإسمنت البالغة زنة الواحد منها خمسين كيلوغراما، راح علي يشتغل مع بعض أصحابه في إفراغ شاحنات الإسمنت أمام مبان قيد الإنشاء هنا وهناك، ولم يخذل علي رفاقه الذين وإياهم نشأ على عمل مأجور هنا وعمل هناك حتى وهو طالب في كلية تقتضي كثيرا من الأناقة. كان علي يلزم مكبس الخفّان حتى خارج ساعات عمله، فقد بنى لنفسه غرفة صغيرة ملحقة بالمكبس هناك، وضع فيها سريرا من حديد وطاولة عتيقة من الخشب وبضع رفوف كتب، وراح يمضي فيها معظم أوقاته مع صديقين يشاطرانه النظرة إلى العالم والأشياء، أحدهما سائق جرار والثاني معلّم رياضيات، وكانا من مجالييه.

كان علي يفلح أحيانا في جرّ أخته زوجة مروان إلى التصريح بسبب حزنها وبمصدر خارطة الإهانة التي ترتسم على وجهها. وعندئذ كان يخرج بحثا عن زوجها. بسبب نفوره منه وكرهه له، لم ينطق علي باسم صهره يوما. كان يستخدم ما يخطر بباله من ألقاب وشتائم حين يضطر للحديث عنه، ولكن ليس اسمه المدوّن في سجلات الدولة، وما كان أكثر ما يعرفه منها وهو ابن اللغة العربية! وكان مروان يعلم، حين يهين امرأته، ما يمكن أن ينتظره من ابن حماه فيتخفى في زوايا خاصّة به إلى حين تلاشي غضب الأخير. لكنّ الجرّة، كما يقولون، لا تسلم كل مرّة. فذات مرّة ظفر علي بصهره، وكان الأخير قد حشر نفسه بين مجموعة رجال تحلقوا حول شيوخ (المنقلة). ظنّ الرجل أن ثمة في حضور كبار السن ما يمكن أن يردع علي عن الانتقام منه، فأخطأ الحساب. فقد وجدها علي فرصة لتأديب الرجل، وجدها فرصة ليعلن على مسامع الحاضرين هنا في ساحة الضيعة سبب تحطيمه لأنف هذا البغل. كان علي، حتى حين يسأل ابن أخته عن أبيه، يقول: أين أبوك البغل؟ كان لقب البغل يتكرر عشر مرّات مقارنة

بغيره من الألقاب. فهم الرجل أن من الأسلم له أن يحسب حساب هذا (المجرم) في علاقته بامرأته. كان مروان حين يأتي ذكر هذا العليّ في بيته يقول: أخوك المجرم، خالك المجرم.. وهذه المرّة أيضا فهم بوعلي مروان أنّ من الأسلم له تجاهل خروج امرأته وتدبّر أمر الضيوف هنا من دونها. ورجا الله، في لحظات خوفه، أن يردع المجرم عن المجيء إليه وإفساد الأمر عليه، ثم رجاه، إذا كان لا بد من مجيئه، مستذكرا: اللهم إننا لا نسألك رد القضاء إنّما نسألك اللطف فيه!.. رجاه أن يأتي بهذا المجرم ساعة وجود الضباط ليعرفوا كيف يؤدّبونه.. وراح يصلّي في سره خائفا من أن يسمعه أحد ما غير الله، بأن يطلقوا عليه النار هنا في لحظة غضب. كان يتمنى أن يفعل الضباط ذلك، وكان يعلم أن أحدا لن يحاسبهم لو فعلوا. وإلى أن يحين وقت يقضي فيه أحد ما على المجرم، عاد بوعلي مروان إلى ضيوفه متظاهرا بأن شيئا لم يحدث على الإطلاق. كان ذلك في الدقائق الأولى لحضورهم إلى بيته، أمّا الآن فعليه تدبّر أمر ابنه علي الذي خرج عن طاعته، مزيدا الطين بلة، على غير انتظار. راح بوعلي مروان يقول للمختار: مورثات أمّه الملعونة.. الكلب طلع لأخواله، ما لي فيه شيء.. لعنه الله ولعن أمثاله.. وراح المختار يهدئ خاطره مؤكّدا أن ابنه بالذات أسوأ من علي، وأنّه لا خير في واحد يرث طبع أخواله. وفي هذه اللحظة عاد الهدهد ممثلا لأمر (ارجع). وما إن دخل الهدهد حتى بادر أخاه بوعلي مروان والمختار:

- الشباب تولّوا أمر الطبخ والنفخ. الله يخلّ لك علي ويخلّ لنا الصبايا، ما هم بحاجة إلى مساعدة أحد.. وقفهم الواحد الأحد

- ما هو قصدك يا شيخ؟! همّ بوعلي مروان بالنهوض، خشية أن يكون علي في طريقه إلى مكان هو والده لا يدري أين وكيف يكون.

- قصدي أنّهم على قدر المسؤولية بالعمل وبالنيّة، وحق باعث الأمل الذي لا يخجل من شيء ولا من أحد، ما هم مخجلينا قدام ضيوفنا بإذن الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد..

- أحسن له، والله أحسن له.. أحسن شيء عمله أنّه لم يلد.. إي والله.

قال ذلك بوعلي مروان متمتعا وهو ينظر إلى المختار نظرة متسائلة، راجيا أن يغيّثه بكلمة، فيما حدسه يقول له بأن علي في طريقه إلى تنفيذ وعيده. وحتى النظرة المطمئنة التي أرسلها المختار إلى بوعلي مروان، لم يهدأ لها باله، فقد تنازع عقله وأحاسيسه أمران: تجربته في المخبرات التي تقول له بثقة هازئة " لا أحد يمكن أن يعصي أمرك!" وتجربته مع ابنه، والتحية التي تُركت له في أساس عواميد بيته تقول له "هناك يرهبونك أمّا هنا فمستعدون لتمرغ وجهك ليس فقط بالطين، بل بما هو أسوأ منه بألف مرّة.. وخاصة هؤلاء الذين لا يعني لهم أنّك ضابط

صف في المخابرات صرماية عتيقة. وحتى أقرباءهم! بل والأبعدون يكفي أن يعصوا أمرك مرة حتى يفلتوا من قبضتك ". خشي الرجل أن يلجأ ابنه علي إلى خاله علي، وعندئذ تصبح مصيبتهم مصيبتين. رفع الرجل يديه نحو السماء، متسائلا، مبتهلا على طريقته: " لماذا اليوم بالذات؟ لماذا تتركهم ينهشونني مثل الكلاب؟! ما الذي فعلته لك حتى تفلتهم علي وتتركهم يخربون حياتي، ألا ترى يا رب أنني مظلوم.. وهل يعقل أنك تقف إلى جانب هؤلاء الأندال.. استغفرك يا رب وأرجوك أن تبعدهم عن طريقتي ليزداد إيماني بك.. أنت تعلم أنني مؤمن بك ولكنني أحتاج إلى المزيد من الإيمان، أحتاج إلى ما يعزز إيماني بك، أحتاج إلى التأكد من أنك تسمعني وتستجيب لي، أنا بالذات عبدك المطيع. أنت تعلم أنني مطيع، وأني أحاول أن أكون كما تريد لي أن أكون.. ولكنني ضعيف، أنت خلقتني ضعيفا فماذا أفعل، قل لي ماذا أفعل، قل لي أنا بالذات، وليس عن طريق أحد آخر، وسأنقذ بالتأكيد ما ستأمرني به. يا رب أقسم بك أنني أريد أن أكون أقوى.. فقوّن يا رب على أعدائي وعزز إيماني بك يا الله، وإذا كنت برأيك لا أستحق القوة فاننقم لي أنت بنفسك، وأنت القادر على كل شيء، من هؤلاء الخونة الذين يخربون حياتي.. وإذا ما حدث لهم شيء مما أتمناه سأؤمن بأنك تنتقم لي، سيزداد إيماني بك، صدّقني يا الله.. أقسم بجلالتك أنني صادق فيما أقول، وفيما أعدك به...". فتخيلوا لو أنه سبحانه يرد على كلّ مصلّ ماذا كان سيقول لبوعلي مروان. المشكلة أننا لا نستطيع أن نتخيّل أنّ الجلالة تخرج عن طورها وتشتتم! كان بوعلي مروان يؤدي صلواته دائما بالفصحى. ولسبب ما نحن نعتقد بأن الله يفهمنا أفضل إذا خاطبناه بالفصحى، وكثيرا ما نعيد صياغة الرجاء الذي يخرج من قلوبنا بصورة تلقائية، نعيد صياغته من عاميته إلى لغة أقرب إلى الفصحى متوخين أن يدرك الله مقصدنا بصورة أفضل، بل نحن كثيرا ما نعيد ذكر الأسماء التي نشملها بصلواتنا ونعيد ترتيبها فنجعل أولها آخرها ثم ندفع بأوسطها إلى مكان في المقدمة أو المؤخرة، متوخين من ذلك تخفيض نسبة اللبس الممكنة عند الجلالة إلى أدنى حد ممكن. كان بوعلي مروان حين يرفع صلواته، ينتقل تدريجيا من التبجيل والخشوع إلى الرجاء ثم الطلب ثم العتب ثم اللوم ثم الاستعداد للمشاجرة.. ومن جديد يعود إلى الضعف والتوسّل. كان يشبه نفسه حين يخاطب رتبة أعلى منه في فرع المخابرات، رتبة تربطه بصاحبها علاقة مودّة أو منفعة خاصة، تسمح له بالتذمر قليلا وبالشكوى، وبأشياء أخرى في بعض الأحيان. ولم يكن يبدو للعامّة أن الله يزعجه ذلك، فليس لتجليات الله، كما يقول العارفون، وثمة دائما عارفون بما تضرمه الجلالة وما تعلنه، مكانا في بيت بوعلي مروان.

ذهب علي إلى بيت جدّه بالبنات ثلاثتهن معا. أجلس أخته أمامه على خزّان وقود الدراجة وجلست ابنتا المختار خلفه، الصغرى منهما على شبك الحديد الموصول بالمقعد لحمل الأكياس

والسلال وأية حاجيات يلزم نقلها. وفي اندفاعهم إلى الخروج، نسي علي ونسيت البنات طنجرة الألمنيوم المملوءة باللحم المعدّ للشواء في الشارع أمام الباب. كان يجب أن تحتضنها إحداهن قبل الإقلاع. لكنّ ترتيب جلوسهن أنساهن وأنسى علي أمر الطنجرة. كان اللحم قد اختارت يدا الهدهد الخبيرتان ما يناسب الشواء منه ووضعتاه في الطنجرة بانتظار الضيوف. وكان علي بعد أن أوعز للهدهد بالانصراف، قد همّ بأخذ ما يستوعبه جوعه ورغبته في الانتقام من اللحم المسلوq في الدست، لكن ابنة الهدهد الصغرى أشارت إلى طنجرة اللحم النئ المعدّ للشواء. تذكر علي طنجرة اللحم المنسية في وسط طريقه إلى بيت جدّه، فقرر أن لا يعود إلا بعد أن يكون قد أودع البنات هناك. وحين عاد وجدها مقلوبة وثلاثة كلاب تتنازع قطع اللحم في محيطها.

حين زعقت الدراجة مقلعة بالبنات، أدرك مروان أنّ ابنه خرج إلى مكان ما، لكنّه لم يرد أن يصدّق أنّه أخذهن معه، ثم سرعان ما أيقن ذلك حين لم تستجب أيا منهن لنداءاته المتكررة. حينئذ دعا الهدهد وراح يلعنه ويلعن ابنتيه اللتين لا تخجلان ولا تتوانيان عن الذهاب مع شاب طائش الله أعلم إلى أين؟ أراد مروان أن يوحى للهدهد بأن علي ذهب بابنتيه ليس ليحميها إنّما لينال منهما. الرغبة في إعادة الاعتبار لنفسه، في تأكيد قوته، جعلته يجد في الهدهد عدواً يجب أن يسحق الآن وبقسوة:

- لو أنّ بناتك مثل بنات الناس ما ركين وراء هذا الطائش.. إلى أين، قل لي إلى أين أخذهن، إلى الضامات؟؟ أنت تعرف ماذا تعني الضامات! - أنسي بوعلي مروان أن ابنته معها، أم أنّه أراد أن يثق بأنّ علي أخذ أخته إلى مكان ما آخر، وأخذ البنيتين إلى الضامات؟- تخيل الضامات، تخيل يا شيخ، يا محترم بناتك مع هذا الأزعر.. وتقول لي الله يخلي لك علي ويخلي لنا البنات.. كأن الله متواطئ مع هؤلاء السفلة! بقيت أصلي له نصف ساعة كأنه ما سمعني، لو صليت للشيطان كان أحسن.

- إهدأ يا بوعلي، لعن الله الشيطان وساعته، ولا تنس يا أخي أنّ ابنتك مع بناتي، إهدأ وسمّ بالله..

- لا يا سيدنا العظيم، بنتي غير بناتك..

- غير يا أخي، غير! مثلما تريد، بنتك راحت لعند خالها علي، وبناتي رحن إلى الشرمطة، مليح، أعجبك الحال يا ابن الناس- عرف الشيخ الهدهد كيف يعيد بوعلي مروان إلى منطقة هزيمته- إنشاء الله يجيء علي ويفهمك أين بنتك وأين بناتي. كان الهدهد يعني بعلي خال البنات

- خلّه يجيء، والله لو جاء لأشوي له بوزه بهذه النار!!

- معلوم، معلوم، شفنا بالساحة كيف شويت له بوزه.

- أتعيّرني!! ما شاء الله عليك، أنت المغوار، تسرق الزيتون من بساتين الناس وتهرب مثل الفار.. ضب لسانك، أحسن لك يا شيخ.. قال شيخ.. قال.
- ضبيّناه سيدي ضبيّناه، لكن لا تنس تحضير حالك لمجيء العليين - قالها الهدهد ساخرا وممازحا في آن، راغبا في أن يكون في خاتمة حديثه ما يخرس مجادله اللئيم - خلّنا نصب كأس لابن حماك وكأس لابنك المرضي. أصول الضيافة يا بوعلي.
- ابن أصل ما شاء الله، وتعرف الأصول - قالها بوعلي مروان لكن بنبرة منخفضة، فقد أفزعه أن يعود ابنه علي بصحبة خاله ويفعلان ما ليس بالحسبان. فكّر بوعلي مروان: الله يسترنا من هذه الليلة العويصة. ولم يكن يدري ما أعدته أم علي من أجله وأجل ضيوفه - لو كنت تعرف الأصول..
- لاه، يا بوعلي، لاه يا ابن الناس، تعيّرني بأصلي.. عيب يا رجل، عيب، والله، والله...

طبخ الديناميت

ولعل الرصاص ومزقت الانفجارات الهواء. فتوقف الشيخ عن إكمال قسمه، ودخلا معاً، الهدهد أولاً مدفوعاً براحة يد بوعلی تططب على كتفه. الكلب لا يعضّ ذيله! يقولون. ويقولون أشياء كثيرة من هذا القبيل. فرّت الكلاب وكانت قد أتت على آخر قطعة لحم وجاست بانتظار المزيد، وقرقرعت الطنجرة الفارغة متدحرجة بفعل هبة ریح جاءت من صوب المقابر، لكن الكلاب المسكينة ما كانت تعلم أنّ خروفا سيذبح من أجلها غدا وستموت جميعها مسمومة على يد بوعلی مروان.

كان لا بد من فعلٍ يعيد إليه هيئته بعدما جعلها ابنه علي في مهب الريح، تاركا لمن هم أدنى شأنًا منه، لمن لا تجد لو فتشت الضيعة عشر مرّات من يرهبهم، أن يشيروا إليه بأصابعهم ذات الأظافر المتسخة مستهزئين.

سبق لنسيية أن استرقت السمع واختلست النظر إلى علي وأعجبها الثور الكامن فيه. كان علي بن مروان على صداقة مع أخيها علي العسكري المشغول عن محنة ضيعته اليوم. أم لعلّه لم يفته أن يشارك في فتح ضيعة كمثلها في مكان ما من البوادي أو السهوب أو الجبال. كل الأماكن قابلة للفتح المتكرر إلى ما لا نهاية له. لسبب ما، هم يقولون إن الطقس المقدس يجب يستعاد ويستعاد معه زمنه الأول كي يترسخ الإيمان بالنور الساطع من حد السيف! هؤلاء الـ (هم) يُركعون الزمن ويجعلون في تكراره معنى وحيدا ممكنا. الزمن المتكرر زمن بلا زمن، أو هو وهم الزمن. ونحن كثيرا ما يعجبنا وهم الأشياء، يعجبنا خيالها، صورتها التي لا طعم ولا رائحة لها، أو لها رائحة وطعم لا علاقة لهما برائحة أصلها وطعمه. حتى هذه الأخيرة نتخيّلها على هوانا، ويعجبنا أن تكون كما نريد أو كما يريد من نحن له تابعون، وليس كما هي في الواقع. وليست بعيدة عن ذلك تصوراتنا عن أنفسنا، سلوكنا وشخصياتنا وحتى طلعة وجوهنا في المرأة، وليست أبعد عن ذلك علاقتنا بأوراق التوت التي تستر عوراتنا.

ولكن، هل هناك واقع خارج تصوراتنا عنه؟ هل هناك واقع يكون بنا وبغيرنا ذاته دون أن يتغيّر، حتى لو اختلف عتًا هؤلاء الـ (غير) اختلافًا يبلغ حد القطيعة؟ على الأقل، ليس واقع العسكر في الضيعة اليوم واحدا بالنسبة لي ولـ بوعلی مروان والمجتمعين في بيته. وهنا تكمن العلة. هنا النافذة الخبيثة التي يدعونك للنظر عبر زجاجها المخادع، والتفرّج على الأشياء

لرؤيتها ليس كما كانت تبدو لك قبل أن تخطو خطوتك الأولى باتجاه القبول. القبول كفيل بجعلك ترى الأشياء كما يجب أن تُرى! هذا ما يفعله الحكماء. والحكمة هنا حليفة التكيف مع كل الأشياء. الحكمة هنا تعني فقدان الشخصية.

يتغير الواقع بمجرد أن نقبل النظر إليه نظرة جديدة، نظرة مغايرة لما يجعلنا على تضاد أو عدا أو قطيعة معه. وإذا بهذا الواقع نفسه يمدّ ذراعيه إليك، يدعوك إلى عناق حميم تنسى فيه نفسك. وإذا بك تأسف على ما فاتك، وتنتقم لنفسك من نفسك على ما كان فيها من جهل وأوهام وضباب ما إن انقشع حتى بانّت الأشياء على حقيقتها. الحقيقة أنّ القبول أسهل. وما من مشكلة إلا في توطين النفس. توطينها على ماذا؟ على حقيقة القبول مع كل ما تعنيه من إلغاء للعلامات الفارقة. وقد تكون المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذه المحاكمات - ضعفك يقول لك: صُنْ نفسك؛ "إن لنفسك عليك حقًا"؛ جوعك يقول لك: لا تكابر على لقمة تُمدّ إليك؛ خوفك وعجزك يبسطان أمامك ما شئت من الأمثال: اليد التي لا تستطيع كسرها قبلها وادع عليها بالكسر؛ الهريبة ثلثا المراحل؛ من ينم مع أمنا نقل له عمنا؛ غيمة وتمضي! كل الأشياء إلى زوال "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام". لا يبقى لأشخاص ولا أنظمة ولا دول. فما بالك أنت تعجل ما هو آت بحكم التاريخ وحكمة الله. وإسرائيل أيضا إلى زوال ومعها يذهب هؤلاء، حتى لو لم نعمل شيئا نحن العرب لمساعدة التاريخ والأخذ بيد الله.

تحت شجرة التوت جلسوا. كانت أختا نسيية الصغيرتان قد حشرتا في الرفاش واستسلمتا للنوم. تحسّر والد نسييا على كميات الـت.ن.ت. المهدورة في الهواء. أحد ما كان يبيع الصيادين قوالب من هذه المادة الناسفة المخصصة للجيش، وآخرون كانوا يبيعونهم صناديق من أصابع الديناميت المخصصة لنسف الصخور تمهيدا لتحويلها إلى إسمنت، في المعمل الذي تصل منه رائحة البيض الفاسد مع هبوب الريح من جهة الغرب. ومع ذلك كان الصيادون يفضلون صناعة الديناميت بأنفسهم. كانوا من أجل ذلك يطبخون السماد الأزوتي على نار هادئة، ويضغطون هذه المادة الجهنمية القابلة للانفجار في صفائح الزيت والسمن الفارغة، يضغطونها بدراية يدٍ تنزلق على نصل قاطع كما على ترعة ماء. حين تتفجر هذه الصفائح في قلب أوقيانوس يغطي وجهه الزيد ومعه يطفو السمك أبيض البطون. السمك القليل دوما أبيض كمثل زيد الإله العظيم. وأمّا الصواعق والفتيل ففي بيوت الصيادين منها ما يكفي ويزيد. تحسّر الرجل وراح يحسب، محاولا، من خلال تقدير عدد الانفجارات التي دوت في شوارع الضيعة وأزقتها، أطنان السمك التي كان يمكن اصطيادها، بدلا من تفجير الـت.ن.ت. دون جدوى في الهواء. لم يحسب الرجل أن الانفجارات هنا من طبيعة أخرى. أنهم هنا كانوا يفجرون قنابل صوتية أمر لم يخطر بباله، وأنّ أحدا لن يتعب نفسه بإعداد متفجرات كتلك التي يصنعها الصيادون لاصطياد السمك. لا شيء

لدى العسكر يحتاج إلى أعمال الذهن. كل شيء هناك جاهز من أجل أن يستخدمه أكثر البشر خبلا، جاهز للتفجير لحظة تلقّي الأمر. وما عليك إلا أن تنزع الصاعق أو تضغط على الزناد. لسبب لا يصعب تخمينه، يُعد كل شيء هناك من أجل إلغاء التفكير، أو من أجل تفكير لا علاقة له بسلاسل منطقية وأسباب ونتائج. هناك يجب أن يؤدي كل تفكير ممكن إلى استسهال قتل الآخرين، واستسهال قتل النفس بناء على أوامر من مكان ما، أوامر لا يؤدي التفكير فيها إلا إلى المزيد من القتل. كل شيء معدّ في المعسكرات من أجل أن تتحوّل إلى روبات. لكن هناك فرقا بين روبات وآخر! ستجد من يعترض، جاعلا للروبات في نفسه فضلا على روبات الآخرين!

حين انقضت الطائرات على أهدافها كان هديرها الذي سبقها إلينا قد أخرجنا إليها: انبطح على الأرض وحدّق فيها، لا تغمض عينيك! قال المعلم علي بن جميل، قبل أن يجترع ما بقي في كأسه من عرق التين، وينبطح على صخور (جبّور) البيضاء، جاعلا وجهه إلى أسفل، حاشرا رأسه بين اثنتين منها كبيضتي رخ ما زالتا هنا بانتظار عودة السندباد. نسي المعلم أنّ الانبطاح يعني دائما أن ينكبّ الوجه إلى التراب. هو كان يريدنا أن نستلقي ونحدّق في عيني الطيّار الإسرائيلي فإذا به يرتبك ولا يصيب هدفه، أو ينسحب دون أن يطلق النار. سيقول العسكر: بل يفرغ ذخيرته في الهواء، فلا تجوز العودة من المعركة بجعبة ملآنة بالرصاص، إلا إذا كانت جعبة عدو قتيل. إذا لم تستهلك من ذخيرتك شيئا فهذا يعني أنك جبان، هربت أو حشرت نفسك في مكان آمن إلى حين انتهاء القتال.

مجد المقاتل أن يعود برصاصة واحدة. هي نفسها الرصاصة التي يجب أن يوجهها إلى صدغه أو قلبه حين تضعه المعركة بين خيارين: الوقوع في الأسر أو الموت. الفرق بين الصدغ والقلب كبير، حين تعدّ نفسك للموت، حين تستحضر عيون من تحب، وربما من لا تحب أيضا. تستحضرهم في طقس مسرحي - يتصوّر القتل نفسه مسجى في وسط مكان مغلق أو مفتوح، لا فرق، وحوله يتحلّق أصحابه وأحبته ورفاقه ومن كانت تفصله عنهم مسافة من الغيرة أو الحسد أو الكراهية أو الشك، ويتصوّر نفسه جميلا، وحزن من فجعوا بموته جميلا أيضا. لذلك فرصاصة في القلب، من الناحية الجمالية، أفضل من رصاصة في الصدغ، أو داخل الفم. فالتضيميد سيخفي الجبهة، والجبهة شيء مهم، أو يخفي الوجنتين، وأي قول لا يكتمل دونهما، أو يحول دون ابتسامة محيرة، ساخرة من الموت أو من الحياة ومطمئنة في آن.

مسرحية الموت يجب أن تؤدي بحرفية عالية. على الذهاب إلى الموت أن يفكر بالتعابير التي سيخلفها على وجهه، أن يتقن صياغة رسالة الوداع إتقان صانع ماهر لصناعة طوق ساحر لجيد امرأة آخاذ. أجل، في الحرب يتكون رسائل، وفي المعتقلات يتكونها، والمنتحرون

لأسباب بين هذه وتلك، يهون عليهم بذل الدم قبل الحبر. " في هذا القبر احتضرنا ثلاثة أيام ولم نمت. شدوا عزائمكم أيها الرفاق!" كتب المعتقلون بانتظار شالاموف. وكتب صديقي "ما أروع الحياة، وكم أحب أن أعيش. لكنّ احترامي لنفسى لا يسمح لي بهكذا عيش. اعذروني يا أصدقائي!" أتخيل كم كان صعبا عليه المحافظة على تلك الابتسامة الزرقاء على شفثيه، فيما الحبل الملتفّ حول عنقه يرسم دوائر الحياة الهاربة منه أمام عينيه حمراء صفراء زرقاء سوداء..
انتظر عدوك دائما مفتوح العينين! لعلّ المعلم علي أراد قول ذلك. لكن التحديق في أسباب الموت شيء والتحديق في عيني الموت شيء آخر. التحديق في أسباب الموت يجعلك ترفض الموت، ليس خوفا منه، إنّما نكاية به، بل استعدادا لمنزلته. وأمّا الموت نفسه فيخادعك إلى أن تستسلم له مأخوذا بخديعته فيأخذك. أحقق من يستسلم للموت طالما الحياة ممكنة. كثيرا ما نبحث عن أبطال نؤسّطهم، حكاية بعد حكاية، حلما بعد حلم. لكننا كثيرا ما نقع في الفخ جاعلين أبطالنا من القادة، من القابضين على الصولجان والسيف، أو من الساعين إليهما، أو من الخارجين عليهما. لسبب غير طيب نغمض أعيننا عمّا لا يحتاج إلى أسطورة وإلى حياكة ألغاز، عن البطولة بأبسط أشكالها، وفي أبسط الناس. نحن لا نعرف شيئا عن الصياد العجوز الذي تجلس ابنته نسيبة على بعد ساعد منه، وعلى بعد ذراع يجلس علي وسميرة والأم المنتظرة أقول رائحة البارود لتحضير العشاء. لا طعام مع البارود. صحيح أن الفاكة بالنظر لكن الطعام رائحة قبل كل شيء.

تناول العجوز حصيات المنقلة وراح ينقلها من جهة الخصم إلى أقصى جورة له في اليمين. نفذت حصيات المنقلة، وفاضت بها الجورة التي لم يُحسب عند صناعتها حساباً لمثل هذا الإحصاء، ولم تتوقف الانفجارات. راح الرجل ينقلها إلى الجورة الثانية المجاورة، ثم إلى الثالثة، فالرابعة، وهكذا، حتى اضطر إلى إعادتها إلى جهة الخصم. ومع كل جورة جديدة كان ينقلها إليها، راح عددها يتضاعف. لم يفت ذلك ذهنه المتفتح على الهدير. في هذه الأثناء، راح علي يحصي الانفجارات على طريقته، يحصيا عشرة عشرة عشرة. ومع كل عشرة منها يطوي إصبعاً من أصابع يد نسيبة اليمين. لم تكفه اليد اليمين فانتقل إلى اليسار. وحين وصل إلى إبهام اليسرى نظر غامزا إلى قدميها، لكن نسيبة فتحت أصابع كفيها لتعيده إلى أصابع سكنتها الكهرياء. هذه المرّة راح يحصي الانفجارات دون أن يفلت يدها، وراحت يده تطوي أصابعها، ضاغطة على راحة اليد الصغيرة مع كل صوت انفجار. في هذه الأثناء راحت سميرة تتدبر أمر العشاء مع أم نسيبة. كانت المرأة قد دعت سميرة إلى المطبخ دون أن تشير إلى ابنتها بما يوحي بضرورة رفع مؤخرتها عن الحجر الرملي الذي اقتعدته. لطالما أعجب علي المرأة وتمنت أن يقع في حبّ ابنتها. حين توقفت الانفجارات وانقطع أزيز الرصاص، التقت الأب إلى ابنته، وما إن قال كلمته

حتى وقع بينهما خلاف. كانت نسيبة قد أحصت الانفجارات بنبضها. وقع الخلاف على ثلاثين انفجاراً زادت نسيبة عن حسابات الأب. ابتسم الأب حين جادلته، ملتفتاً إلى يديّ علي. خيل لعلّي إلى تلك اللحظة أن الرجل لم ينتبه إليه

- كان يمكنهم أن يصطادوا بهذا الديناميت الذي فجّروه في الهواء حمولة ستمايّة حمار من السمك! لعنهم الله. قال العجوز على غير انتظار.

- لكن ما عندنا حمير بهذا العدد! اعترض علي، ضاحكا.

- لا تخف لن نقتل السمك كلّ في يوم واحد وبعدها نجوع، مثلما يعمل هؤلاء الحمير! صحح العجوز.

- وعلى أي شيء، إذن، تتأسّف يا عمّي!؟

- أتأسّف على تفجير الديناميت في غير مكانه..

- حرام عليك، السمك يا عمّي لا يؤذي أحداً..!

- خلّني فكّر بالسمك، أسلم لي وأسلم لك. السمك على الأقل لا يسمع ما نقول.

- كم عددهم؟ قالت نسيبة، دون أن توجه السؤال إلى أي منهما.

- عدد من؟

- لا أحد، ولا شيء.. سؤالي ما له معنى.

- أكيد أنت تعرف يا عمّي كيف ينطبخ الديناميت!؟ قال علي

- ومن في هذه الضيعة لا يعرف! هل تريدني أن أعلمك؟ لم يسأل العجوز علي عن حاجته

إلى تعلّم هذه الصناعة فيما أصابع الديناميت الجاهزة متوافرة في دكان برهو.

- نعم، يا عمّي، ويا لبيتك تعلّمني اليوم قبل الغد.

- الأحسن أن ترى بعينك من أن تسمع بإذنك، والأفضل من ذلك أن تساعدني حتى تتعلم.

نظر علي إلى يدي محدّته بوعلي صامتاً

- لكن انتبه، هذه الشغلة خطيرة، فأحيانا تولع النار فجأة.. خوفي على وجهك الحلو يا بني!

تدخّلت أم نسيبة، وقد كان نداؤه للعجوز بعمّي قد قرّب علي من قلبها أكثر متوهّمة أن لكلمة

عمّي هنا خصوصية الانتماء إلى نسيبة أو الارتباط بها. خشيت المرأة فعلا أن يتشوه وجه

(خطيب ابنتها)، فقد كانت رأّت كيف يشتعل الديناميت المطبوخ فجأة وكيف يفرّ الرجال

مذعورين. رأّت ذلك مرّة في بيت الهدهد. بل لنقل رأّت شبابا يخرجون من هناك وجوههم شوهاء

عليها نتف معلّقة من جلد أحمر وأسود.

- سأعلمك.. لا تشغل بالك، أم علي تخاف أكثر من اللازم! خلّنا نطبخ طنجرة صغيرة،

وننهي الطبختين معا، العشاء والديناميت.

- أين السماد والسكر؟ سألت سميرة وانطلقت لاحضارهما، وتبيّن أنها تعرف سر هذه الصناعة. فاجأ تدخلها أم نسيبة فعاجلتها:

- اتركي الرجال لحالهم، وامشي معي إلى المطبخ. لم تكن نسيبة مشمولة بهذا النداء - أنا أجب السماد والسكر. انبرت نسيبة، وكانت قد خشيت أن يكتشف أبوها فيما لو ذهب بنفسه إلى حيث تتجاور الأشياء القابلة للاشتعال والانفجار، اختفاء أصابع الديناميت. ولم تكن نسيبة حين أخذتها قد فكّرت بردة فعل أبيها على اختفاء الديناميت. شعرت نسيبة فجأة بالقلق، ولكن ليس من ردة فعل أبيها المحتملة، إنّما من خطورة المكان الذي طمرت فيه الديناميت. شعرت بقلق على عليّ. هي حين طمرته في رماد تلك الأثفية لم تفكّر بعليّ وما يمكن أن يحدث له. كانت قد وضعت في بوتقة واحدة مع أبيه وربما لو سئلت آنذ لعبرت عن رغبتها في إيذائه. أليس هو ابن الكريه، كاتب التقارير، كما يقولون في التحتانية.. وأمّا الآن فإنّها تعاني شعورا مختلفا نحوه. لا أهمية للفاصل الزمني هنا. قد يقول قائل: أيعقل أن تنتقل بين شعور الكراهية وشعور الحب تجاه الشخص نفسه بهذه السرعة؟ أقول نعم، هذا معقول في العموم، وأكثر من معقول بالنسبة لشخص لم يكره لأمر خاص به، فيما هو منفتح على حبّ ينتظره. ناهيك بالقرابة الحميمة بين الشعورين.

حين ظهر علي في دار أهلها خشيت نسيبة أن ترى على وجهه تشوّها. كانت تنتظر خبرا يأتي من هناك يقول بانفجار ديناميت في أثفية بوعلي وبحروق وتشوّهات. لم تكن تتمنى لأحد الموت. أجل، هي في اللحظة التي طمرت فيها أصابع الديناميت، تمنّت أن ينفجر في وجه بوعلي مروان والمختار والهدهد. تمنّت أن تراهم يخرجون إلى الشارع عميانا، وجوههم مسخّمة، ورقع من جلدهم المشوي تتدلى على وجوههم وصدورهم، كما سبق أن رأت ذلك في بيت الهدهد. وربما حظّها الطيب وليس حظهم جنبها رؤية هذا المنظر الشنيع مرّة أخرى. وجنّب علي، الذي لم تكن قد حسبت حسابا لاحتمال تأديّه، تشوّها ربما كان سيرتسم على وجهه ما دام حيّا. كان يمكن أن ترى وجه علي المشوه قرب وجهها مدى العمر، فقد قاربت بينهما هذه الليلة الخاصّة كما لم يخطر ببال أي منهما، بل وبيال أم نسيبة التي كانت تصلّي من أجل أن يحصل هكذا أمر، وكان لعلاقتهم تنمة من عمر مليء بحياة أحداثها تلت أحداث هذه الرواية، لذلك سيكون على القارئ تخمين ما جرى بين جنينين صغيرين اكتشفا فجأة حبّا مجنوننا يجمعهما، حبّا لم يكونا قد استعدا له من قبل، وبالجنون نفسه تزوّجا بعد سنوات من الكر والفر، وحاولا أن يعيشا حياة لا تشبه حياة أحد في هذه الضيعة فعاشا بالنتيجة كما يعيش الجميع ولكن بعد أن ارتسمت على وجهيهما وفي عيونهما ألف محاولة خروج إلى أفق لا عسكر فيه ولا أنصاف عسكر. لم يشعلوا

النار في الأثفية حيث يختبئ الديناميت تحت الرماد، بل أشعلوه في الثانية. ولكن إلى متى!
صرخت نسيبة فجأة:

- علي! تعال، لحظة لو سمحت..
- اتركه وروحي إلى شغلك! أمرها أبوها ضاحكا.
- علي! تعال، بلا غلاظة، لحظة واحدة..
- ضروري! سأل علي، مبديا لا مبالاة مقصودة حيالها.
- لا يا سيدي، ما ضروري.. ولن أقل لك حتى لو رجوتني ألف مرّة! قالتها وانصرفت عنه، مبدية جدية أضحكت أباه.

- هاتي معك خشبة.. وأنت يا أفندينا شعل النار.. الحطب في الزاوية.. يا الله، شد حيلك.
وبعد حين بدأ طبخ الديناميت. وضعت كمية غير كبيرة من السماد الآزوتي، تكفي لملء ثلث الطنجرة، على نار هادئة. الصيادون يفضلون استخدام نترات الأمونيوم حيث نسبة الآزوت 33%، يفضلونه على اليوريا. فنسبة الآزوت المرتفعة في الثانية والتي تقارب الـ 46% تجعل إذابتها على النار لتحضير الديناميت منها، عملية أكثر خطورة. فاحتمال الانفجار هنا أكبر، خاصة عند إضافة السكر.

سُكِبَ الآزوت في الطنجرة وراحت ستة عيون لماعة تحملق في تحوّل البطيء إلى سائل بلون عاجي. مدّ العجوز يده نحو ابنته بصمتٍ، لتناولها علبة السكر، متابعا ذوبان آخر الحبيبات. لحظة تجانس السائل كانت يد العجوز قد خطفت الطنجرة عن النار، وراحت أصابع يده السمراء ذات العروق النافرة تسكب السكر ببطء وتخلطه بحذر فيما عيناه تتابعان تحوّل الخليط إلى اللون العسلي القاتم ثم البني. وفي هذه اللحظة دأقت يده بدراية وخبرة محتويات الطنجرة على أرض الدار الإسمنتية وراحت الخشبة تسوي، بخفة عجيبة، سطح العجينة التي راحت تصدر فحيحا منذرا بالخطر، تسويها بحيث لا يبقى فيها كتل أو درنات.. بعد ذلك فقط، تنفّس العجوز الصعداء ونظر مبتسما إلى عيني علي المشدوهتين، تاركا الخليط يبترد على طبقة إسمنت ملساء لم تتذوق خلطة الملح والسكر القائلة منذ أكثر من عامين.

- والآن، يا أفندينا يا علي، وبعدما يبرد، بإمكانك تشيكله مثلما تريد.. بإمكانك لفة بالنايلون، أو تعبئته بعلبة سمن.. ولا تتسى طبعا الكبسولة والفتيل.. لكن إياك يا بني.. اللعب بالنار شغلة خطيره. وليت المشكلة في أن تتعلم هذه الصنعة اللعينة أو لا تتعلمها! العلم واجب، لكن العلم بلا عقل لعنة. أنا لا أقصد أنك قليل العقل لا سمح الله، لكن انتبه يا بني، معرفة قيمة الشيء الذي بين يديك واجب، ومعرفة خطورته مهمّة، والديناميت ياما خرب بيوت ناس!

- علم بلا عقل! ممكن برأيك علم بلا عقل يا عمّي؟!

- أنا لا أفهم بهذه الأشياء المعقدة يا بني، لكن الحياة علّمتني أن الإنسان من واجبه أن يعرف كل شيء ويسعى لمعرفة كل شيء.. أمّا كيف هو يسخر علمه ومعرفته؟ فهنا حطّنا الجمال! هنا محلّ العقل، وكل واحد له عقله، الذي عقله شرير تكون مشكلته بين أن يطاوع عقله أو يغيّره. التآني واجب، ومراجعة النفس واجبة، والحماسة تقتل صاحبها أحيانا يا علي، والمطلوب من العقل لجم الحماسة، الأحمق والمتهور هو الذي يصبّ الزيت على النار. شُف يا علي، واسمك مسؤولية عليك وعلى غيرك، ومن الممكن أن يكون خطر ببالك: طيّب لو تركنا الآزوت على النار فترة أطول ما الذي كان سيحصل؟ ولو سكبنا السكر فيه وهو على النار.. ولو زدنا كمّية السكر.. ولو تركنا جنيّ الكيمياء يجن على هوى جنونه ما الذي كان سيحدث؟؟ الفضول والرغبة في الفرجة أحيانا تدفعنا إلى ارتكاب حماقات، أو تجعل الناس يرتكبون حماقات! أنا لاحظت في عينيك تلك الأسئلة ورصدت لديك رغبة في الإجابة عنها بنفسك، في ترك الجني يخبط ويلبظ في الطنجرة على هواه. العقل يقول إنّ عليك أن تحمي نفسك، أن تحمي وجهك وعينيك وأن تحمي الناس من شر أسئلتك وأهوائك أيضا، أن تجري تجربتك على كميات صغيرة لا تؤذي كثيرا حتى لو انفجرت قبل أن تقرر أين ومتى وكيف وبأي مقدار ستستخدم الأشياء التي صرت تعرفها بالتجربة وليس بالسمع.. ولكنني لم أسألك عن حاجتك إلى الديناميت، فإذا كنت تريد صيد السمك آخذك معي..

- لا أعرف! لا لشيء..

- ولكن، إياك أن تستخدمه في غير محلّه يا علي! آه يا بني، لا أحد إلّا ويشعر في لحظة معيّنة برغبة في الحرق والتدمير والقتل.. والفرق بين العاقل والمجنون أنّ العاقل ينتظر انقضاء هذه اللحظة، يعرف أنّها عابرة ويضبط نفسه حتى تعبر، وأمّا المجنون فيستسلم لهذه اللحظة الجهنمية وإذا كان طيبا يندم على فعلته بقية عمره، وأمّا إذا كان شريرا فيشعر باللذّة من الخراب والموت وينشدّ إلى المزيد منه

- أين نحن وأين الشر يا عمّي! الصغار مثلنا حتى لو تمنّوا يعجزون عن تحقيق حتى أمنياتهم الشريرة..

- أين سمعت هذا الكلام؟! لا يمكن أن تكون أنت قائله، صحيح، بالله صحيح، الكبار شرهم كبير مثلهم والصغار شرهم صغير مثلهم.. صحيح! - ضحك علي في سرّه فهو لم يكن يعني ما رآه بوعلي في قوله- شر الكبير يكبر بين يديه.. تخيل، تخيل أمام عينيه بذرة شر، فهو بدلا من أن يقضي عليها وهي بذرة أو ينزع فتيل الشر منها، يتولاها بالرعاية بالسقاية والغذاء حتى تكبر وتثمر المزيد من الشر.. هو مثلا يقضي على مدينة كاملة من أجل القضاء على مئة شخص كان بإمكانه إلقاء القبض عليهم حين كانوا خمسة. يتفرج عليهم كما يتفرج مرّي حيوانات خبير

على خراف يسمّنها للذبح.. يترك أضحائه تتكاثر وتنتشر بين الناس ويسيل لعبه متخيلا لعبة الموت القادمة، يراها تكبر وتكبر معها لذّته، تكبر ويكبر معها استعدادة لحفلة الشر الكبرى.. أمّا الطيب- بدا بوعلي كأنّما هو يقول ما يقوله لنفسه، وكأنّه نسي وجود علي ونسي الديناميت الدافع إلى الحديث- إذا كان لا بد من مخاطرة، يعمل الطيب على إبعاد الناس عنها، على تجنبهم نتائجها وليس حشرهم فيها وإقفال الأبواب عليهم. الشرير يضلّل الناس، يوهمهم بأن كل شيء على ما يرام، يتظاهر بمحبته لهم وحرصه عليهم، يغيرهم بالدخول إلى حظيرتهم وما إن يدخلوا حتى يغلّق عليهم الأبواب والنوافذ، ويتفرّج عليهم من وراء القضبان.. أتخيله هاربا كلما ابتعد عن النار خطوتين توقّف ليمتّع عينيه برؤية الناس يحترقون في الأقفاص التي حشرهم فيها.. ينقل عينيه بين يده القابضة على مفاتيح أقفاصهم، وبين اللهب يمتد إلى نسائهم وأطفالهم..

- آه يا علي.. فكّر ألف مرّة قبلما تستخدم الديناميت.. القتل سهل والحياة عزيزة يا بني، والنار إذا ما أشعلناها خرجت عن سيطرتنا.. بمقدورنا إطفاءها على الأرض بطريقة أو بثانية وبوقت قصير، لكن النار التي بالقلوب تحتاج إلى أجيال حتى تنطفئ وتحتاج إلى شغل كثير وصدق كبير.. النذل والشرير والمستهتر هو الذي لا يفكّر بالنار قبلما يستخدمها، لا يفكّر بمصير البشر، يفكّر فقط بحاله وبحياته ويماله وبعزّته وبسلطته!! بدا العجوز متأثرا، كأنّما هو يتحدّث عن بشر يعرفهم جيدا حشروا في الأقفاص وأحرقوا بالنار، بشر كان له فيهم أهل وأقرباء وأصدقاء.

- لكن يا عمّي ما علاقة العقل هنا؟- تذكر علي أن بوعلي بدأ حديثه عن العقل والعلم- أنت تحكي يا عمّي عن الأخلاق وليس عن العقل!

- صحيح...معك حق.. ولكن تخيّل يا بني أن دولة- لم يفعل اعتراض علي فعله، وبدا عاجزا عن قطع السلسلة التي سيطرت على ذهن الرجل- الدولة مثل الشخص يمكن أن تكون بلا أخلاق! - رجعنا للحكي بالسياسة؟! صاحت أم علي من بعيد، لكن زوجها لم يلق إلى اعتراضها بالأ، بل تابع- دولة بلا أخلاق أسوأ بكثير من رجل بلا أخلاق.. صحيح، والبشر معادن مختلفة وعقول مختلفة، لكن الدولة لا يحق لها أن تكون بلا عقل وبلا أخلاق. دولة مثلها أقطع من وحش. العيش بالغابات مع الوحوش أسهل وأشرف من العيش فيها..

- أنت تحكي عن الدولة كأن الدولة شخص!

اعترض علي محاولا رسم ابتسامة على وجهه، فهو لم ير سببا لاسترسال بوعلي في حديثه وفي توسيع الموضوع، ولم يتذكّر الفاصلة في الحديث التي ساعدت بوعلي على قول ما يقول، اعترض علي خائفا من أن يرتاب العجوز في قوله، متذكّرا أباه الذي يعرف جميع من في

الضيعة مواظبته على مراقبة تحركاتهم وأقوالهم وكتابة التقارير التي تحول بين أبناء وبنات الذين هو على خصومة معهم وبين أية وظيفة في مؤسسات الدولة.

- يسلم فمك يا علي! - قالت أم علي، وكانت قد خرجت إليهما ممسكة بخزقة راحت تمسح بها يديها - حرام عليك يا بوعلي! الصبي ما جاء ليسمع محاضراتك!!

- ارجعي إلى المطبخ، الله يخليك، واتركينا بحالنا! كأن أولاد الكلب الذين جاؤوا ليعربدوا في ضيعتنا ويرعبوا الناس جاؤوا ليأكلوا تبولة وليس، كأن إرسالهم إلينا بزا السياسة، وكأن من واجبنا أن نضل مثل الغنم، ممنوع علينا نحكي حتى عن وجعنا!!.. ارجعي الله يخليك إلى المطبخ.. وكأن المطبخ والأكل والشرب لا علاقة له بالسياسة.. ما هي السياسة يا أم علي قولي لي؟ هي فقط أولاد القحبة على شاشة التلفزيون!؟

- لا تعصّب الله يخليك.. راجعة، راجعة!! الله يلعن السياسة والحكي بالسياسة، ففقتنا بحكيك، كلما جاءنا ضيف تسمعنا نفس الحديث، من اليمين، من اليسار.. حتى لو حكى عن الزيتون والسماق والسمك والزبل النتيجة نفسها! والله العظيم كل البشر يعرفون مثل ما تعرف وأكثر.. وتابعت في طريقها إلى المطبخ اعتراضها بصوت لم يعد مسموعا. لعن بوعلي جهل الناس ولامبالاتهم، وتابع، كاظما غيظه:

- طبعاً، كلّما كان هناك ناس يخافون الحكي بالسياسة والتفكير بالسياسة ويعتبرون أن حياتهم لا علاقة لها بالسياسة كلّما ارتاح الظلام أكثر.. الظلام يعرفون قيمة الجهل! صحيح، الجاهل عدو نفسه، إي والله صحيح.. إلى أين وصلنا يا ابن أخي؟ أي.. نعم. تذكّرت.. كنت تقول "الدولة شخص!" رحم الله أب..- وأمّسك عن القول، ضانّا بطلب الرحمة لمروان - رحم الله أمّك، والدولة الشخص لها أخلاق هذا الشخص، والعيش مع الكلاب أرحم من العيش مع رجالها.. وكل دولة شخص سافلة، إي والله، أحسنت يا بني. ليتك تتذكر أنّك قلت قولاً عظيماً. هذا القول يسويك واحدا مهماً جداً، فكّر بمعاني قولك ولا تنساه!! إي والله، الشوكة تخلف وردة! الحقيقة أنّها تخلف وردة، لا تزعل يا علي، لا تزعل يا بني. أمر مبارك إذا الولد صار أحسن من أبيه. أنا هذا البهلول الذي لا يملأ عين أحد فكّرت كثيراً، ووصلت إلى قناعة.. إذا ما تشبّه الولد بأبيه وإذا لم يصبح أفضل منه هذا يعني أنّ الدنيا تمشي إلى الوراء. من واجب الابن أن يعرف أكثر من أبيه وأن يكون أعقل منه وأنظف منه. حيّاك الله يا بني، أنت والله تعجبني، وإذا ما صدق ظنّي فالله سبحانه وتعالى سيعوّض الناس فيك عن شر غيرك. أحجم العجوز عن قول (أبيك)، ولم يكن لسذاجة فيه قد قال ما قال، إنّما هو فعل ذلك طامعاً بزرع فكرة محددة في عقل هذا الشاب، فكرة قد توجّه سلوكه في المستقبل، جاعلة مستقبله يتعيّن بالتضاد مع مبادئ أبيه وأخلاقه وسلوكه، فإذا بعلي صديق المضطهدين المظلومين المستأبدين، عدو الظلم والظالمين..

كان العجوز قد وجد في مجيء علي مع نسيبة المتمردة وسميرة في هذا الوقت ميلا ليس إليهما شخصا إنما إلى ما يختلفان به عن أبيه وما أراد تتشئته عليه. كان العجوز يعرف جيّداً عن الشياطين الصغار لاعبي فريق التختانية، ويعرف قليلا عن علي والأسئلة التي تتنازع عقله الشاب من خلال تردده إلى بيتهم وكلمة عابرة هنا وملاحظة خاطفة هناك.

- لَمّ الديناميت عن الأرض يا علي وعبئه بهذا الـ (سقرق)، هاكه. كانت علبة السمن الصغيرة الفارغة التي أشار إليها العجوز ملقبة على مقربة من باب الدار.

قال العجوز ذلك مغادرا مكانه نحو الداخل، وما إن اتجه علي نحو السقرق حتى تنهى إلى هذه الدار المنزوية صوت انفجار ديناميت في وادي الجراد تلاه صراخ موجه قادم من الضيعة. تعالى الصراخ وتردد من أنحاء مختلفة. راحت حارات الضيعة تردده، وراح الناس يغادرون خوفهم، يفتحون الأبواب التي أوصدوها بإحكام، مسرعين نحو دار أم علي، كل بما اتفق عليه من ثياب وشعر منكوش. سابقتهم عيونهم الهلعة إلى هناك. شيء ما مرعب جعل المرأة تطلق صرختها الموجعة المفجوعة تلك. وإلى تلك الصرخة تتأدى الناس، وراحوا يتناقلون بأصوات أقرب إلى العواء خبر الموت: قُتل حميروش بن أمّ علي، قُتل حميرووووش يا ويل أمّه..

ألقي علي ما بيده واندفع خارجا من باب الدار. لسبب ما، لم يركب دراجته النارية. ربّما دفعه لاوعيه إلى التصرف على هذه الشاكلة، أم لعلّها رغبة داخلية في العودة إلى هذه الدار، وليس إلى مكان آخر جعلته يترك دراجته وينطلق عدوا إلى حيث الفاجعة تجمع الناس، أم أنّ المسافة إلى الفواجع يجدر أن تقاس بالخطوات. لحقت به سميرة ونسيبة، ثم لحقت بهما الأمّ بعد أن رجت زوجها البقاء في البيت خشية على الصغيرتين. في الطريق شدّت نسيبة علي من كمّ قميصه، فحاول نفض يده والاندفاع أسرع. دفعته نسيبة جانبا ليغدو أبعد عن سميرة التي بدا أنّها حريصة على البقاء قريبة منهما، بعد أن لاحظت شرارة تولّدت بينهما، تمتّ لو تخمدها قبل أن تتحول إلى نار:

- ضروري خبّرك شغلة يا مجنون.. ضروري جدّا، خلّنا نبعد عن هذه الحشرية، خلّنا نركض.

- إحك! قال لها علي محاولا مجاراتها بالسرعة والبقاء ملتحما بها.

- الله يخلّيك، إمشِ إلى بيتكم فورا، خلّنا نروح مع بعض، ضروري أن أدخل داركم، ولا يجوز أن يشوفني أحد.. ضروري.. ضروري جدا.. أرجوك لا تسألني الآن عن أي شيء، سأحكي لك كل شيء فيما بعد.. طاوعني أرجوك.

- مجنونة، لن أروح معك إلى أي محلّ!؟

- مثلما تريد، أروح لوحدي، وإذا كشفوني!

- على مهلك يا مجنونة، ماذا حصل، فهمني..
- ليس الآن، الآن أنا محتاجة إلى شهامتك وحمایتك وحراستك وليس إلى أسئلتك! عدني بأنك ستحميني، وستعرف كل شيء في وقته، أمّا إذا تركتني وحدي، فلن أصدق بعد الآن أنك يمكن أن تحميني في يوم من الأيام! قالت مملّحة إلى الشعور الذي تواطأ على احتضانه.
- فقط قل لي ما الموضوع بشكل عام، ما المشكلة، حتى أعرف كيف أتصرف..
- كل المطلوب منك إذا كان هناك أحد في داركم أن تدخله إلى البيت.. دقيقتين فقط، أرجوك لا تجعلني أندم كل عمري. مرّة واحدة طاوطني وأعدك أنني سأطاولك كل العمر! قالت ذلك مغالبة رغبة في قول المزيد مما يعبر عن أمل بمستقبل يكون لهما معا وعمراً يمتد بحيث يكفيها لتفي بالوعود التي هي على استعداد الآن لأن تقطعها على نفسها.
- على ماذا نويت يا مجنونه! هل تتوین تلغيم بيتنا؟
- بل..- أرادت أن تقول بالعكس، كادت نقشي بالسر- حلّ عني يااا، وكمثل سيارة سباق مزوّدة بمحركات توربينية، ضاعفت نسبية سرعتها، فانفصلت عنه مسافة صعب عليه تعويضها، ونحت إلى الطريق الفرعي نحو دار أهله. أمام سعيها العنيد المبهم، توقّف علي، حائراً لا يدري كيف يتصرّف، وفي هذه الأثناء لحقت به سميرة فأمرها بقسوة أن تبعد عنه وتتركه لحاله، وما إن انصرفت سميرة عنه مباطنة خطواتها كي يلحق بها أبوا نسبية، حتى لحق بنسبية بأسرع ما يستطيع. حين بدت دار بو علي مروان عن بعد وانكشفت قامات رجال يتحركون فيها على خلفية جدار أبيض أضيء بانتظار الضيوف، توقّفت نسبية، وأدركها علي..
- أيعقل أن هؤلاء الأوغاد لا ينوون مواساة أم علي!! قالت نسبية، راجية أن يحصل ذلك
- لا، هؤلاء الأوغاد لن يروحوا إلى أي محلّ!! والآن قل لي ما المشكلة؟!
- تعدني بأنك لن تكرهني، ولن تقف ضدي!
- أعدك!
- أقسم..
- بماذا تريدني أن أقسم؟
- كادت تطلب منه أن يقسم بحبهما، ولكنّها أمسكت نفسها ساخرة من تهوّرهما وانزلاقهما إلى حافة التعبير عن مشاعرهما:
- أقسم بحياة البنت التي تحبها! قالتها، وأغمضت عينيها متمنية أن يقسم بحياتها.
- أقسم بحياة الذي تحببته يا نسبية، بأنني سوف أحاول فهمك مهما كان الأمر. تبين أنّه ليس غافلاً عن انفعالها العاطفي وتلميحاتها، وبدا أنّه أكثر دهاء منها

- إذا كنت تعرفه فأنا موافقة، لكن أريدك أن تعدني بأنك لن تكرهني ولن تقف ضدي، وليس فقط أن تحاول.

- طيب، أعدك.. أقسم بروح حبيبك أنني أعدك.. خلصيني وقولي لي ما السر..
حكى له نسيبة، بعد أن أمسكت بيده متحسسة الوعد في نبضه، عن الديناميت الذي طمرته في الأثفية، في غفلة من أهله ومنه، في الأثفية التي لحسن حظها لم تشعل فيها النار. في البداية نظر إليها علي نظرتة إلى مجنونة، ثم إلى صغيرة مشاغبة عابثة لا تقيم وزنا لنتائج أفعالها المتهورة. شعر بنفسه عجوزا قبالتها، ورأى من واجبه أن يماشي وضعه الجديد، أن يتفهم طيشها الآن، وينزع الفتيل من روحها قبل أن ينزعه من هناك..

- أنت تمزحين، غير معقول أن تكوني عملتها!

- عملت.. عملت.. أنا ما مجنونة! أنت المجنون لأنك لا تصدقني.

- صدقتك، صدقتك - مد علي يده وشدها من أذنها - وأنا مجنون أكثر منك، ولماذا يشغلك الموضوع إلى هذه الدرجة، طظ!! المهم أن أمي وأختي خارج البيت، اتركي الديناميت محلّه، وإنشاء الله ينفجر ولا يبقي عظمة على عظمة من هؤلاء الكلاب!.. حظ هالكلاب طيب! مات حميروش وبقوا عائشين! لن ينفجر الديناميت لا تخافي، للأسف هم لن يشعلوا النار فوقه، لن يقام العشاء، فمن غير المعقول أن يعملوا حفل عشاء وفي بيت أم علي قتيل!! غير معقول! أما إذا عملوا العشاء.. فأنا بنفسني سوف أشعل النار وفجر الديناميت. ياالله.. ياالله، خلنا نروح إلى بيت المنكوبة أم علي.. خلنا نبعد عن هؤلاء الأوغاد، لا تخافي سأخرج الديناميت من الأثفية قبل أن ترجع أمي وأختي.. ادعي لربك أن ينفجر بوجه الوغد الهدد ويشووه مثلما شوّه شباب الحارة. جلبهم الندل ورجاهم حتى يطفئوا الحريق على سقيفة بيته وهو يعرف أن هناك ديناميت، وتركهم وحدهم دون أن يخبرهم وهرب هو وعائلته.. اتركهم إنشاء الله ينفجرون وأكبر قطعة من أكبر كلب فيهم لا تشبع قطّة صغيرة.. اتركهم، امشي.. امشي، على ماذا أنت نادمة!.. وشدها إليه مستسلما لشعور غريب من رغبة في القصاص منهم، انتقاما لضحايا، رجاؤهم في نسيبة لا يزال حيًا، وقد لمس استجابة لديها لهذا الرجاء.. عانقها، وكانت قبلته الأولى لها، ومضيا معا باتجاه بيت أم علي.

في دروب الليل

واليه، ولكن قبل أخوته الجاعلين الطين الأبيض مساكن لهم بين وادي الجراد وجبل الشيخ خليل، وصل صدى مقتل حميروش. للحظات فقط تردد مش بين أن يتابع تنفيذ المهمة التي جعلتها استعداداته المحكمة تسير على أفضل وجه وبين أن يقطعها ويذهب كغيره لمواساة المرأة المنكوبة ولو بنظرة تعاطف. لكن مش لم يكن يوماً كمثله غيره وليس هو كذلك الآن. أثر مش الخيار الأول على الثاني. خشي أن تقول له أمّ علي: تعال، تعال، لا تذهب إلى أي مكان، لم يعد لأي شيء معنى.. قتل حبيبي حميروش! لا، بل سأذهب - فكّر مش مؤجلاً نظرة التعاطف إلى وقت آخر - سأكمل ما بدأته. اليوم يجب أن يكتمل كل شيء. اليوم سيرشون المسك على جسد القتيل، وأنا سأرش على وجوههم الرائحة التي تتاسبهم. كان مش ساكن الحواكير قد رأى كل شيء. كان قد رأى علي الشرطي لاطياً خلف القبور، ورأى ما تلا ذلك. فكّر مش حين غادر دار أم علي بأن أفضل السبل لفعل ما اتفق معها عليه هو أن يسير خلف العسكر. العسكر عادة لا يلتفتون إلى الخلف. يتركون صدى الانفجارات ورائحة البارود وآثار الانفجارات وما تخلفه وراءهم من دمار ويمضون إلى مناطق أخرى لا يلوون على شيء. لو نظر العسكر إلى الآثار التي يخلّفونها لما تمكّن من ما زال لديه عاطفة تجاه أهليه من متابعة مشواره معهم. على الآخرين أن يعتنوا بما يخلّفه العسكر. هذه ليست مهمتهم. فلو رمح العسكر كل بيت دمّروه لفقد فعل التدمير معناه، ولو بكوا كل قتيل صرعوه، لما كان للقتل معنى. القتل ليس عبثاً عند العسكر كما يخطر بالبال. ومع أن وظيفة العسكري هي القتل، وأجود العسكر أكثرهم قدرة على القتل، أكثرهم مهارة في إصابة العدو بمقتل. وأمّا العدو فلا يصعب تدبّر أمره. العثور على عدو دائماً ممكن. فدائماً هناك عدو في مكان ما قريب أو بعيد. وأمّا المسافة فلا أهمية لها هنا كما لا أهمية لصلة الدم، حين يكون الانتماء إلى سفك الأخير أشدّ من الانتماء إليه.

لم يكن مش معنياً بكل هذه المحاكمات. ما كان يعنيه، وأثر في اختياره الطريق الذي سيسلكه لترك علامته على البيوت التي اختارتها أمّ علي، كان أنّ العسكر لا ينظرون إلى الخلف. كان مش قد انتهى من بيت بوعلي سلمى ومن بيت المختار وبيت الهدهد، ومن بيتين آخرين أضافهما بنفسه على قائمة أمّ علي، بدلا من بيتين استثناهما لفقر صاحبيهما وقلة عدد عائلتيهما وحاجتهما إلى سند يقويان به. ولمّا لم يعد الانتماء إلى عائلات المشايخ أو عائلات

المعلّمين يحمي أحداً، لجأوا إلى بوعلی مروان، ووجد لهما مَش في ذلك عذرا. فهو نفسه من عائلة صغيرة لا يهزأ بأبنائها إلا الذين يقعدهم الكسل عن ذلك. كان قد بقي لمش بيت مروان فقط وكان قد خصّه بكمّية كبيرة تكفي لباب الدار كلّه وليس فقط لقبضته. كان مش يعلم بأن الاقتراب من الدار الأخيرة يتطلب كثيرا من الحذر، وأنّ افتضاح أمره هنا يعني تعرّض جسده الضئيل للجلد. فلن يجرؤ أحد على الدفاع عنه، خلا أم علي المشغولة بفجيعتها عنه الآن، لو أمسك به مروان، وستستيقظ ذاكرة الدور التي سبق أن خصّت بتلك البصمة فشغلت الناس إلى أن جاءت أحداث اضطررتهم إلى نسيانها، ستستيقظ ذاكرتها وقد تستنفر أبناءها لاستبدال رائحة طيّبة بتلك الرائحة التي طالما التصقت بها بفضلٍ من يديّ مش.

رائحة الانتقال طيّبة لا تزال عند الناس. طيّبة حتى عندما يفوح منها زنج الدم. كان هناك جيل جديد من الأبناء ممن هم أصغر سنا من مش نشأوا على رغبة في تحطيم كل شيء، على شهية مفتوحة على التخريب. وكانت عقول هؤلاء الناشئين تعرف بدقّة حدود التحطيم الممكن والمسموح به. كانت هذه الحدود دوائر يحددها كلّ في منطقة الأضعف منه، كما تحدّد القطط مناطق نفوذها برائحة بولها. ولم يكن شياطين التحنانية بعيدين عن ذلك. وهنا، هنا بالذات منطقة الشراسة المطلقة اليد، منطقة الحق بالعنف. العنف حق للأقوى على الأضعف، وعنف الضعيف منزوع الحق في نزاله مع القوي. لسبب غير برئ يختار الضعفاء أعداء ممن هم أضعف منهم، غافلين أو صارفين النظر عن أعدائهم الحقيقيين. وأمّا إمكانية أن يروا بعين مشتركة عدّوهم المشترك، فيفعل العدو كل شيء من أجل أن لا تتحقق في أي يوم من الأيام. لم يكن يقلق مش في مغامراته مصيره الشخصي بمقدار ما كان يشغله المصير الذي قد تتعرض له المرأة التي يحبها، المرأة الوحيدة التي هو على استعداد لتلبية طلباتها دون تكلّف. أمامها يعطلّ مش ماكينته المنطق الخاصة به. لم تخذله ماكينته يوما. لم تخذله حتى حين كان يعطلّها استجابة لطلبات محيرة من أم علي. فمنذ صغر مش، كانت أم علي تضرب بعصاها وبقسوة لم يألفها الناس فيها كل من كان يبدو لها أنّه يستخف بمشاعر هذا الصغير اليتيم من جهة الأم والمهجور من جهة الأب أو يؤذي هذا الذي كان اسمه يوما يحيى فصار محيو و صار محشّ ثم صار مشّ.

غير بعيد عن القبور التي لطي خلفها علي، وراء تخم مبني من (الدمش) تلك الحجارة الكلسية الهشة، جلس مش بانتظار أن يغادر العسكر الضيعة. كان حين انتهى من ذهن باب دار المختار، قد وقع في حيرة من أمره إزاء الخطوة الأخيرة وكاد يتخذ قرارا خاطئا. كان خمّن أنّ العسكر الذين التقت مجموعاتهم في الساحة سيتابعون سيرهم بخط مستقيم ليغادروا الضيعة من جهة بيت مروان، ولذلك قرّر أنّ عليه أن لا ينتظر هنا، فقد يلتقت أحدهم إلى اليسار فيراه، قرّر

مش أنّ من الأفضل له، طالما هناك مسافة أمان لا تزال تفصلهم عنه، من الأفضل أن يجتاز الشارع بقفزة واحدة أو قفزتين على أبعد تقدير وبعدها سيكون ممكنا له أن يختبئ في الحواكير إلى حين انصرافهم. على أربع، اجتاز مش الشارع وعلى أربع قفز مثل نمر صغير من فوق تخم أولى الحواكير واندغم في الظلام. خيل إليه أنّ فصيلة خيالة تلاحقه. كانت تلك ضربات قلبه. لم يبد أن أحدا من العسكر انتبه إلى وجوده، فقد انشغل العسكر عنه بأداء معزوفة الرصاص على وجهٍ يرضي سيدهم وعروقهم الضاجّة بالدم. تلقّت مش، بعد أن استعاد أنفاسه لمعاينة المحيط. كانت عيناه قد ألفتا الظلمة جيّدا، وبات بمقدوره أن يرى ليس فقط ظلال الأشياء أو أشباحها، ومع ذلك كان يمكن معرفة الأشياء التي تتحرك من طبيعة حركتها وليس من شيء آخر.. كان ذلك قبل أن ينبجج نور وهّاج في السماء لملاكٍ يستخدمه العسكر في الحروب. في العتمة التي لم يكشفها الملاك بعد، رأى مش جسدا يتحرّك مغادرا القبور. كان ذلك جسد عليّ الشرطي. رآه مش يتّجه إلى بيته، ثم عند حدود البيت انشغل عنه مع هبوط الملاك من السماء. وعلى نوره رأى العسكر ينحرفون باتجاه الشمال. تابعهم مش بقلق إلى أن حجبت زاوية بيتنا آخرهم. كان أحد ما من العسكر قد رأى قميصي الأحمر منشورا على حبل الغسيل يؤرّجح كميّه كما لو كان يمشي نحو العسكر دون صاحبه. لم يكن من عادة أمّي أن تنتشر القميص من أعلاه تاركة كمّيّة يتأرجحان كما يطلو لهما، لكنّها هذه المرّة لسبب ما كانت قد فعلت. أشبع العسكري قميصي رصاصا. كان يجب أن أحتفظ به وأجعل صورته غلافا لهذه الرواية، لكنّ أمي وخالتي أحرقتاه كي لا يتحقق الشر الذي فيه. بات واضحا بالنسبة لمش أنّ العسكر متجهون إلى المدرسة، وأنهم سيمرّون من أمام بيت أمّ علي. وبعد ذلك، إمّا يعودون ليغادروا الضيعة من الطريق الذي يمر غير بعيد عن بيت بوعلي مروان أو ينحدروا مغادرين باحة المدرسة إلى معسكرهم عبر وادي الجراد. كان على مش أن ينتظر انجلاء الأمر من أجل ينهي مهمّته.

باب دار بوعلي مروان كان هدفه الأخير، وكان قد شعر بنفور من الرائحة الكريهة التي بين يديه. وضع مش علبة الرائحة الرخوة جانبا، محاولا أن تكون بعكس اتجاه الريح. لم يكن هناك هبوب أو هواء، ومع ذلك كان هناك اتجاه للرائحة، لكأنّها كانت تعرف بنفسها إلى أين تتجه. كان مش من جهة بيت بوعلي مروان. لم يكن الهواء يتحرّك، لكنّ الأخير أيضا أراد الفرجة على العسكر فلجأ إلى تخم ما من تخوم السماء وراح يتمّلاهم من هناك ساخرا من توهمهم القوة، أم أنّ هذا الذي يقتلع كل شيء في طريقه حين يحتدم، شعر بخوفٍ من أشياء يفعلونها ولا يفهمها، فقطع أنفاسه بانتظار أن يأمره ريحائيل باستئناف المشي.

فكّر مش بالمغامرة. رأى أنّ النتيجة المتوخاة تستحق المغامرة. لم يكن يعلم شيئا عن مغادرة امرأة مروان وابنتها البيت، ولا عن خروج عليّ على أبيه وإلا لما تردد. فكّر بأن يجعل رائحة

الخزي على بابي بوعلي مروان، باب الدار وباب البيت الداخلي. لكن خشيته من أن يقع في مصيدة بينهما جعلته يعدل عن فكرته قبل أن يختبر إمكانية تحقيقها على أرض الواقع. كان مش يتمتع بذلك النوع من الذكاء الصامت الذي يعبر عن نفسه في اللحظات الحرجة بالفعل وليس بالقول.

لا يقيم الناس وزنا، عادة، إلا للذكاء العدوانية، الذكاء الممتشق أدوات الاقتحام، أدوات الإعلان الصاخب عن نفسه. على الناس أن يمتثلوا للفكرة أولاً، وبعد ذلك، وربما بعد ذلك بزمان طويل وعزق طويل، وربما دم طويل يحق لهم أن يتحققوا منها، بعد أن يكون حارسها قد انصرف عنها إلى غيرها. أقول (طويل) متذكراً الرويل الطويل، روبل الشقاء الذي كان يضطرّ الروس إلى العمل في جحيم الشمال على بعد آلاف الأميال من عاصمتهم المتلاثلة بالأضواء الخادعة، العمل في المعتقلات بصفة (أحرار) لتحصيله. المال، السلطة، القوة، المكانة والجاه.. كلّها أدوات تصلح لترويج الذكاء، لكنّها لا تصلح بذاتها، إنّما تصلح على ما تتطوي عليه من عدوانية وإمكانية حماية العدوانية. هذا لا يعني أنّ مش كان محروماً من العدوانية التي تحمي ذكائه، لكن عدوانيته، كانت صامته أيضاً كمثل ذكائه، وكانت تعبر عن نفسها بأشكال لها رائحة ولون وحجم ولكن ليس لها صوت، إلا إذا حسبنا صوت الذباب المنجذب إليها من طبيعتها. ها أنا أتحدّث عن مش، وأنتم تسايرون حديثي عنه، وكأنّما لا وجود لهذا الشاب المسكين خارج إرادة أم عليّ وخارج الرائحة الكريهة التي يسمُّ بها بيوت من يدارون الروائح الكريهة التي تفوح من أرواحهم، متجمّلين بأقنعة من العطور وأشياء أخرى.

الاختزال، عنف الاختزال! عدو الفن وصديقه، بل يمكن القول صديقه اللدود. لا يمكن الحديث عن كل شيء ولا يجوز اختزال الشيء، ناهيك بالإنسان، إلى جزء منه. فالجزء وإن يكن من طبيعة الكل إنّما هو لا يعبر عن هذا الكل إلا بما هو جزء منه خاضع له ونزوع إلى الانفصال عنه إلى كلّ مستقل في آن. المشكلة في أن يلتقط الفنّ هذا الجزء ويتبنّى استقلاله، فيعترف به كلاً مستقلاً، جاعلاً له حاضنة خاصّة به وسياقات ومسارات يتحرّك عبرها بما يوحي بحياة مليئة بالنبض، وإن هي إلا وهم الاستقلال مضخّماً. لكنّها ضرورة الفن، الشكل - الجزء الذي تمسك به عيوننا أو آذاننا من أجل أن لا يعود إلى كلّه، فإذا به معلق بيننا وبين الكل. باختصار تقريرياً: ليس في حياة مش مما أعرفه، وبالتأكيد هناك أشياء كثيرة لا أعرفها عنه، ما يفيد في معرفة أسباب هذه الطريقة من الانتقال التي اختارها. ليست أمّ علي من أوحى له بالطريقة، بل هو الذي أوحى لها بما يمكن فعله وما من شأنه أن يترك أثراً موجعاً فيمن يستحقّونه. أقول لا شيء يفيد في هذا السياق، إلاّ اللهم، إذا كان لطبيعة عمل أبيه المدقع الفقر واختفائه المفاجئ من الضيعة علاقة بما يمكن أن يفسّر سلوكه.

كان بومحيو يعمل في تنظيف جور المراحيض. في البدء، كانت الحواكير والبساتين، وكانت عين الطبيعة لا يزال يسكنها الحياء. كان الخجل قيمة يريّ عليها البشر. كان البشر يخافون أولئك الذين لا يخجلون. لكن الخجل بصورة الأولى استحال إلى شيء مثير للضحك، وصاحبه للشفقة. راح الخجل ينسلخ إلى أشكال أخرى لا علاقة لها بالبدء. صار عليك أن تخجل من حمل القيم الأولى ولا أقول اعتناقها. في البدء كانت الطبيعة تلجأ إلى الطبيعة، وكانت العيون التي لا يداري لسانها معاصيها يفتأها الأهلون. بالقول يفتؤونها، بالإعراض عن صاحبها لا بالحديد والنار. لكنّ شيئاً ما تغيّر، حين راح البشر يستترون عن عيون الآخرين ثم عن عيونهم الشخصية. هذا القول الأخير يدفعني إلى التفكير بأن ليس لكل شخص عيوناً شخصية، فالعين التي لنا ترى ما تريده عين أخرى أو عيون ليست لنا ولا منّا. وأمّا في البدء وقبل أن تظهر مهنة بومحيو إلى الوجود فلم يكن البشر قد صنعوا ذلك الرباط المتين بين الحواس والعورات، لم يكونوا قد أوتقوهما بذلك الوثاق العصي على الفصم، ولم يكن قد بدأ هذا الوثاق يوئد قيمة الخاصة بعد. وأمّا بعد، بعد أن بدأ ذلك فبات لكل شيء معان وروائح وألوان وأشكال ليست منه، إنّما هي ارتداد لقيم ولذتها علاقات غريبة أقامها البشر، هي وليدة تغذية راجعة لما توافق عليه البشر بالصدفة فبات أقرب إلى طبيعة ثانية لا تقلّ سطوة عن طبيعتهم الأولى. بات البشر كمن كذب كذبة فصدّقها فكان أول ضحاياها.

وجد بومحيو فرصة عيشه مع أولى الجور التي راح الأهلون يحفرونها لدرء مؤخراتهم عن عيون العابرين، ليس فقط من مكان إلى آخر، بل ومن قيم إلى قيم أخرى. كان بو محيو أول المشتغلين بتعزيز جور المراحيض. كان عليه أن يبتدع أدواته وأساليبه الخاصّة ليكون عمله نظيفاً فلا يتسخ المحيط ولا يتسخ جسده. لم يفكر المسكين بأن الروائح تلتصق بالأسماء أيضاً. لم يكن يظنّ أن للكيمياء علاقة بالأسماء. فاته أن يفطن إلى كيمياء الطبيعة البشرية الجديدة. وكان عليهم، أي على من يعزّل جورهم أن يبتدعوا علاقة خاصّة لا توثق هذا المهني الجديد بروائح مهنته. فعل ولم يفعلوا. وذات مساء، وكان الرجل لتوّه قد انتهى من تعزيز جورة في ساحة الضيعة، خالطاً بعناية محتوياتها بالتبن وبعض التراب، جاعلاً منها بمعوله كرات كبيرة، ناقلاً إياها على عربته ذات الدولاب الواحد إلى أرض مهجورة في خاصرة وادي الجراد القريب، كان قد انتهى من عمله واتجه كعادته إلى الساقية ليسلم جسده لدفق مائها البارد، داعكاً جسده بصابونة من زيت الزيتون معطرة بزيت الغار منحه إياها صاحب الدار التي رُحّل عنها رجسها منذ قليل، مستبدلاً بملابس العمل جلابية بيضاء لم تهترئ بعد، وعاد إلى الضيعة.

على غير عادته حشر ملابس العمل تحت حجر كبير على ضفة الساقية بانتظار أن يعود فيغسلها على ضوء القمر الفضي، حيث للضوء رائحة النظافة، وأسرع قاصدا بيتاً على وشك أن

تقام فيه الصلاة. كانت الذبائح قد نحرت هناك، وكان إحساسه بالنظافة والراحة بعد عمل مجهد استغرق النهار بطوله قد أعاد إليه رغبته في تناول الطعام. شعر بومحيو بالجوع. تذكر أنه منذ تناول ست عشرة حبة زيتون ورغيف خبز مساء أمس لم يتذوق أي طعام. كان أحصى البذور بانتظار أن يصنع منها سبحة. أراد أن تكون سبحة على علاقة بلقمته. قسم السبحة إلى وجبتين. كان محيو قد أتى على بيضة مسلوقة مهروسة بالزيت وغفا. قصد الرجل البيت الذي أمه المصلون ولما يرفعوا أيديهم فيه إلى السماء بعد، لكن جوعه خذله هذه المرة. أم أن الجوع يخلز دائما! لم يترك لحاسته السادسة أن تشتغل.

لو لم يكن جائعا جدا لما جاء إلى هنا. كانت سبع عشرة الحبات الزيتون الباقيات من مساء أمس أنفدته، وربما كان لها أن تجعل ليحيى، لابنه الذي صار اسمه مش، عيونا أخرى يرى بها الحياة ويرى بها إلى الحياة. لكن رائحة اللحم الساخن لم تترك لحبات الزيتون أن تتبها الرجل الجائع إلى ما ينتظره. دخل بومحيو أبيض الثوب وابتسامه حياء على وجهه الأسمر الضامر تسبق تحيته للمصلين، ولما يجف الصابون على شعره اللامع بعد، دخل وألقى على الجميع سلام الله ورحمته وبركاته. كان من عادة الرجل بعد كل استحمام أن يفرك راحتي يديه بالصابونة ويمسح بها شعره الرطب النظيف. رد الجميع تحيته وردّها الشيخ المنتظر أن يلتئم شمل المدعوين ليبدأ صلاته أيضا. لم يكن أحد قد استثنى من دعوة إلى الصلاة حتى ذلك اليوم، وبقي الأمر كذلك إلى حين جاء العسكر فرسموا حدود الصلاة وحدود معانيها. وكان الرجل من المدعوين. تملل الشيخ وقد أتم رد السلام، حين تبين أن الداخل وجد لنفسه مكانا استقر إليه بين المصلين المتحلقين على أطراف حصير من القش تغطي أرض الغرفة، حيث يُنتظر أن توضع أمام كل منهم بعد الانتهاء من الصلاة غضارة مملوءة ببرغل مديم بزيت الزيتون مكسو باللحم المسلوقة يتصاعد منها البخار.

بعد إلقاءه السلام على الجميع وتحية على جاريه اللذين انحشر بينهما في غرفة الصلاة، لم ينظر بومحيو إلى أحد. كان قد اغمض عينيه وسرح مع الرائحة الشهية الآتية من صحن الدار. غالب الرجل لعابه بانتظار أن يبدأ الشيخ صلاته وينهيها بأسرع ما يكون. راح يصلي في سره صلاة خاصة إلى الله من أجل أن يسرع الشيخ فلا يشغلهم بملاحق للصلاة لا ضرورة لها. جلس بومحيو بانتظار غضارة يلتهمها وأخرى يأخذها لابنه يحيى الذي ينتظر عودته في البيت، وإذا بصوت الشيخ: يا أخ بو يحيى - حاول الشيخ أن يخفف الوقع على الرجل بمناداته منسوبا إلى اسم يحيى المبارك - لا تؤاخذني الله يسامحني ويسامحك، لا يجوز أن تأتي من (الششمة) إلى الصلاة، هذا غير معقول، حتى لو اغتسلت يا أخي فلا بد من أن شيئا منه باق تحت أظفرك، لا تفسد لنا صلاتنا، الله يخليك!!

تعالى لغط بين المصلّين. بدا أن بعضهم شعر بالخجل، وأن آخرين شعروا بالحرّج، ومنهم من شعر بالعطف على بومحيّو، لكنّ أحدا منهم لم يجروا على الاعتراض، بمن في ذلك الداعي إلى الصلاة، المقدّم القرابين، الذي أرسل ابنه عصر أوّل أمس ليخبط باب بيت بومحيّو ويقول له: تفضّل وصلّ عندنا على اسم سيّدنا الخضر.. وحدد له ساعة الصلاة. توقّع المصلّون أن ينهض الرجل المهان وينقضّ على الشيخ فينهش وجهه، وبعضهم تمنى ذلك في سرّه وصلّى صلاة خاطفة من أجل حدوثه، لكنّ بومحيّو لم يفعل شيئا ولم يقل شيئا، وحتى إنّه لم يتلقّت حواليه حين نهض وغادر المكان. هو فقط انتظر مطرقا أن يقول احد من الحضور شيئا، أن يعترض صاحب البيت، أن يتراجع الشيخ نفسه عن قوله ويعتذر عن الإهانة التي سببها له. خيل إليه أنّه انتظر دهرا، وبدا للآخرين كأنّه، مع كل دقيقة انتظار، يتحوّل إلى كتلة من الصخر التي لا تقول شيئا ويصعب زحزحتها من مكانها. عظمتا وجنتيه بدتا أكثر نفورا، والشحوب علا وجهه، وفجأة وقف، لكنّه وقف بهدوء، وبصق قبل أن يغادر في وسط حلقة المصلّين ورحل، وبعد ذلك المساء لم يره أحد في هذه الديار.

حين عاد بومحيّو إلى بيته لم يخبط الباب بعنف، لم يصرخ، لم يحطم شيئا، لم يجب عن أسئلة يحيى وعن جوع يحيى، لم يبك. هو فقط راح يقطع الأوضة الخالية من الأثاث جيئة وذهابا عشرات المرّات بخطوات ثقيلة باردة مطرقا كأنّما يحّدق في أحد ما يتراجع زاحفا على الأرض أمام قدميه. وفجأة، قال ليحيى: إمّش إلى بيت عمّتك. أودع الرجل ابنه هناك. لم يوضح بومحيّو لأخته شيئا. رجاها فقط أن تعتني بالصغير، وخرج. ظنّت المرأة أن أباها سيعود قريبا. كان زوجها بين المصلّين ولم يكن قد عاد بعد. وفي ذلك الليل، لم يعرف النوم طريقا إلى جفني يحيى. فبعد أن طال انتظار المرأة لعودة أخيها، وبعد أن تناول يحيى حصته مما عاد به زوج عمّته من البرغل واللحم، أعدت المرأة لابن أخيها الصغير مكانا للنوم.

تكوّر يحيى تحت الشرف الذي ألقته عمّته عليه وراح يفكّر بسبب وجوم أبيه الشديد وصمته المطبق وخروجه على هذه الحال. لم تكن المرّة الأولى التي يبيت فيها يحيى في بيت عمّته، لكنّ هذه المرّة لم تكن كسابقاتها. فقد كان يحيى في المرّات السابقة يعرف إلى أين يذهب أبوه ومتى سيعود. ومع ذلك فلم تطل حيرة الصبي، فما إن اطمان زوج عمّته إلى أنّ الصغير قد استسلم للنوم حتى راح يروي لامرأته ما حدث هناك. راح الرجل يتحدّث عن وقوفه في وجههم هناك. تحدّث بحماسة، وإن بصوت منخفض، عن اعتراضه على الشيخ وعن تأنيبه لصاحب العيد على السماح بطرد بومحيّو من بيته: قلت له لا يجوز يا شيخ، لا تؤاخذني، صحيح أنت كبيرنا لكن الكبير يغلط أحيانا مثل الصغير، وتراجع الكبير عن غلطته ثواب كبير، هي شغلة بومحيّو صحيح وسخة، لكن والله أعلم هو رجل نظيف، وها هي يا أخي رائحة الصابون تفوح منه..

وقلت للأخوان المصلين: خلّونا نمشي، أي صلاة وأي حكي فاضي، كيف يمكن أن يفهم ربنا سكوتنا عن إهانة أختينا ويقبل صلاتنا؟! لكن الأخوان ما تزحزحوا من أماكنهم، ولا قالوا كلمة للشيوخ ولا لبوعلي! وقلت لبوعلي: الصلاة في بيتك والرجل انطرد من بيتك وما حكيت كلمة، معقول يا أخي! معقول! هذه إهانة لك قبل أن تكون إهانة له!!

تركته المرأة يسترسل في حديثه وانصرفت إلى دموعها. كانت تعرف أي رجل هو، وكانت قد اختبرت ادعاءاته الكاذبة غير مرّة. شعورها بالقهر على أخيها الفقير جعلها تزحف نحو فراش الصغير يحيى، وهناك راحت تمسّد كتفه الضامرة البارزة تحت الشرف، ماسحة دموعها بطرف منديلها. لم تكن المرأة أيسر من أخيها بكثير، لكن زوجها كان قد ورث قطعة أرض تكفيهما لتدبّر المؤونة بطريقة ما. أجفل الصبي حين شعر بيد تحط على كتفه لكنه سرعان ما تابع تظاهره بالنوم، وبحركة أرادها حركة نائم عفوية، انقلب وطمر وجهه في مخدّة القش وبكى بمرارة ولكن بصمت خشية أن يكتشفوا أنّه لم يغف بعد، وأنّه بات على دراية بما حدث لأبيه. لكنّ الصبي لم يفعل ذلك تهريًا من مسؤولية يفرضها إعلانه عن معرفته بالإهانة التي تعرض لها أبوه، فمن محشره قرّر الصبي أن ينتقم لأبيه، قرر أن يفعل ذلك قبل طلوع الفجر، وراح ينتظر سماع شخير عمّته وزوجها، ليرفع ترباس الباب ويخرج.

وفي اللحظة المناسبة خرج محيوّ، وكان يعرف جيّدًا ما يريد، وكان قد حدد هدفه بدقه. اتجه محيوّ أولاً إلى بيت الشيخ. كان ضوء القمر ساطعًا فاضطر الصبي إلى القفز بين ظلال الحيطان والأشجار. التف الصبي إلى حاكورة بيت الشيخ، ومن هناك تسلّق شجرة تين أوصلته إلى السطح. كانت عمامة الشيخ على حبل الغسيل ترفرف كجناح طائر أبيض. قرفص محيوّ في ركن معتم على السطح بعد أن أنزل سرواله، فطاوعته أمعاؤه كما لم تفعل من قبل، أسلسها القهر والغضب واللحم المسلوق في أنية لا تخلو من الزنجار. ارتاح الصبي، دغدغته أمعاؤه الفارغة كما لو أنّها تداعبه مثنية على شغبه، مذكرة إياه بتواطئها معه وحاجتها إلى المزيد من الطعام: إذا كنت تريد المزيد هبني المزيد! قالت له أمعاؤه. مسح الصبي مؤخرته بالجناح الأبيض الذي كف عن الرفرفة بين يديه، ثم أعاده إلى مكانه على حبل الغسيل. وعن حبل الغسيل نفسه رفع الصبي كيسا، كانت تستخدمه زوجة الشيخ لتصفية اللبن، وبمغرفة من ورقة تين مقوّاة بأخرى رفع الصبي معظم ما كان خلفه في زاوية السطح ووضعها في الكيس واتجه إلى البيت الذي غط في النوم بعد أعياء أهله من خدمة المصلّين. هناك اكتفى الصبي بربط كيس اللبنة بمسكة الباب وعاد مسرعا إلى بيت عمّته قبل أن يوقظ الكلب، الذي أتخّمته بقايا لحم العيد فكسل عن النباح الحقيقي، أهلّ الدار فيتنبّهون إلى ما بيد الصبي.

ويعد تأمل لم يطل للموقف، وتقديره للخطوة التي يجب أن يخطوها استنادا إلى خط سير العسكر، خرج مش من مخبئه في الحواكير واتجه إلى البيت الأخير، إلى بيت بوعلي مروان. هناك اضطر للانتظار قليلا، فقد وجدهم يتشاورون مترددين بين الذهاب إلى حيث توجه أهالي الضيعة، إلى بيت أم عليّ وبين انتظار الضيوف. في البداية اقترحوا على بوعلي مروان البقاء. رأوا أن يذهب المختار والهدهد وبوعلي سلمى ويبقى هو بوعلي مروان في بيته إلى حين عودتهم. قال له الهدهد: أنت تعرف يا بوعلي أتّي لا يجوز أبقى، واجب الشيخ يكون أول الواصلين! فردّ عليه بوعلي مروان بعصبية: أنت شيخ، وأنا من، من أنا برأيك، ابن شرموطة يعني أنا برأيك؟! فصل المختار وبوعلي سلمى بينهما، واقترح عليهم أن ينتظروا قليلا فلا يعقل أن يبقى الضباط هناك: مات حميروش، رحمة الله عليه، ارتاح وريح أمو..

وما إن انتقل الواقفون في صحن الدار إلى الجدل عمّا إذا كان السادة الضباط سيطيّلون البقاء عند بيت أم عليّ، وعن استغرابهم ذلك، فما علاقتهم هم بالأمر. مات! فليمت، وما الذي يشغلهم هم؟! وعن ضرورة عدم السماح لأيّ كان ولأي شيء بإفساد حفل العشاء بعد كل النفقات التي تحمّلها بوعلي مروان والتعب والخضات التي تعرّضوا لها جميعا: الحي أبقى من الميت يا أخي، والشاب كان عارا على أهله، موته أحسن من حياته.. ما إن غرقوا في هذه الجدالات حتى أدرك مش أن الحديث سيطول وأنه إذا ما انتظر فقد لا يتمكّن من إتمام الحلقة الأهم في مهمته. ومن مخبئه المؤقت خرج مش وتسلل لصق الحائط نحو باب الدار وهناك أخرج ما خصّ به صاحب هذا البيت ومرّغ به القبضة الحديد المذهّبة. وجد مش أنّ الكمية المتبقية لديه أكبر من أن تحتاجها القبضة فتردد للحظات بين أن يمرغ الباب بها وبين أن يفعل شيئا آخر أجدى وأشدّ وقعا، فرأى أن يغامر. كان مش يعرف المكان جيّدا، ويعرف المسالك التي يمكن أن يفرّ عبرها والأماكن التي يمكنه الاختباء فيها إذا ما لاحقوه. كان يأمل فقط بأن لا يأتوا بالكلاب لمطاردته، وكان مطمئنا إلى أنّه لا كلب في بيت بوعلي مروان. فهذا الرجل معروف عنه كرهه للكلاب، والجميع يعرف قصة تسميمه لكلاب الضيعة. حسب مش عدد الخطوات التي سيكون عليه أن يقطعها قبل أن يتلاشى في ظلمة التخوم المفضية إلى الحرش الواصل إلى الكاديك، رأى أنّه يستطيع اجتياز المسافة الخطرة قبل أن يستفيقوا من صدمتهم ويصلوا إلى جدار السور ويطلّوا من فوقه على المكان الذي قذف منه على رؤوسهم هذا الشيء الرخو الذي لم يتبينوا طبيعته بعد. تراجع مش عن السور خطوتين ولوّح بما بقي في الكيس وألقاه بما استطاع من دقّة وعزم على المتجادلين بين مشاركة أم عليّ مصابها ومشاركة السادة الضباط حفل العشاء. ومع اكتشافهم طبيعة ذلك الذي سقط عليهم من السماء، كان مش قد تلاشى في الظلمة.

لم يلتفت مش إلى الخلف إلا بعد أن كان قد قطع مسافة الأمان الكافية. وحين تحقق من أن أحدا لا يلاحقه توقّف مش راضيا عن نفسه، وقرّر أن يذهب أولا إلى بئر الماء حيث أولاد سكبينة المؤتمنون على المضخة إلى حين عودة العجوز المعتل من رحلة الموت ما زالوا ينتظرون، وبعد ذلك رأى مش أن يزور مقام خضر الكاديك ويصلّي ويشعل البخور من أجل روح حميروش ويشكر صاحب المقام على ما أصابه من توفيق في تحقيق مسعاه ومسعى أم علي المسكينة المفجوعة. لم يكن مش يشتري البخور. كان يشعل ما يتركه الآخرون. ينتقي الحبيبات الأفضل ويشعر بأنّها ما إن ن تبدأ بإطلاق عبقها الأبيض حتى يشكره العبق على تحريره من جسد يشتد يبأسه ساعة بعد أخرى. وعلى حلم اغتسال بماء بارد ورائحة بخور، اتجه مش نحو البئر، وكنا نحن أولاد سكبينا هناك، ولم نكن نعرف بعد أن حميروش قد قتل، وأنّ أي عشاء لن يقام في بيت بوعلي مروان، وأنّه كان يجب أن لا نذبح الجحش المسكين، وأنّ نسيبة وعلي تبادلوا القبلة الأولى، وأنّ علي الشرطي لن يعود إلى بيته بعد اليوم وأنّ امرأته ستدوخ وتتقيّ في بيت أم علي، وأنّ أم علي ستحتضنها وتهمس في أذنها: لازم يعيش، افقي عيونن فيه!! وأنّ المرأة لم تكن تفهم في تلك اللحظة عن ماذا يدور الحديث، وأنّ أم علي ستكفّ فجأة عن البكاء وأنّ الأهلين سيرونها في جورة الأعور من جديد بين أولاد شياطين ذهب نصفهم مع العسكر وبقي منهم من بقي بين الحجارة والشوك.

أولاد سكيبا

في كل مكان ينتصب إله من حجر. ولا مكان لصغير يرمي حجرا ولا لامرأة تشعل النار في مكادس الحطب ولا لرجل يبكي عجزا من وراء ثقب أعدّ يوما لتمير سبطانة بندقية وقُتل كل إسرائيلي يرتطم بها في طريقه إلى ترويع الأهلين، وليس لعينين خائفتين تراقبان بهلع عريضة الضاد على أرض الضاد مكان.

راحت الحربة التي جاء بها جدّي جريحا من حرب الـ48 تذبج الصخر فإذا به كمثلنا لا يصرخ. يكرّ على أسنانه متوجّعا بصمت ولا يتمرد. بين صخور البياضة البيضاء جلسنا نحن أولاد سكيبا. كنا قد خدعنا أمّ علي وتظاهرنّا بالعودة إلى بيوتنا. وكان الخوف علينا قد أخرج أمهاتنا إلى أسطح البيوت لتبيّن أيّ ارتسام لصغير يشقّه الأفق الشرقي.

كان الشمال ينتهي بوادي الجراد الذي أظلم مع مجيء الليل، وبعده انتصب جبل ترسلان جاعلا للأفق معنى الوقوف على حافة الهاوية. لم تكن نجرؤ نحن الصغار على الذهاب إلى هناك في الليل. كان الليل الزاحف من هناك يسدّ الأفق بغيم أسود يتبدد مع صعود الريح دون أن يمطر. وكان الغرب ترسم على أفقه شاحنات عسكرية وسيارات جيب ودخان يتصاعد من فسحة دار بوعلي مروان. كان الغرب يمتدّ بمخيم جديد للعسكر يصل إلى الشمال. وكان الجنوب متروكا للتين والزيتون، قرمه العتيقة وظلمة الأخضر المدلهم تحجب الضوء، حائلة دون أي ارتسام لظل صغير عائد إلى بيت أهله غير محمّل أو محمول. وكان الشرق هضبة يتأمل منها الموتى أفق ما بعد العسكر المفتوح على الماء. هناك مقبرتنا، مقبرة بيت بومسعود. كانت القبور ترسم مساءً في تشكيل رمادي صامت مع أشجار السرو وشجرة الخرنوب الوحيدة الكبيرة التي تنفياً ظلّها روح أبي مصليّة من أجل أن يأتي المطر. أربعين عاما صلّي أبي من أجل أن يأتي المطر ولم يأت. ألا أيتها الأرض فلتغتسلي بدموع الرجال، فقد تخلّت عنك السماء. كانت السماء حينها أقرب إلى الأرض، أو كانت الأرض أقرب إلى السماء. لا فرق. فالمسألة ليست في قرب الغيم أو بعده، ولا في سواد الغيم أو بياضه، ولا في صفاء القلوب أو غلّها. كل هذا هراء.

- المطر لا ينهمر ما لم ينبجس الدم - قلت مخاطبا صوت التردد في داخلي. الأصح أنني أقول الآن، فهذا ما لم أقله يومها. يومها جلست مع أبناء سكيبا الآخرين، أبناء عمّي، نستنطق الحجارة. لكنني، رغم أنف اللغة والبيولوجيا التي تقهر الجبابرة، ما أزال هناك. فشيئا مما يجعلني

أقيم أو أرحل لم يتغيّر من يومذاك إلى اليوم. لم يرحل العسكر عن ديارنا بعدما احتلّوها. وكل ما فعلناه بعد ذلك لم يكن إلا تمارين على أشكال أخرى مبتكرة من الخضوع- به، بالدم، يجب أن ننجل قبل أن تتجبل الأرض بالمطر. صدّقوني، لا أريد أن أثق بما أقول، لا أريد للدم أن يجري على الأرض. فما زال قلبي يغادرنى تاركاً العسكر إلى كل عصفور يرفرف على مرأى من عيني. لكنّه الظلام. للدم لزوجة الواقع التي نهرب منها إلى الماء. لكنّ شيئاً دونه لا يتحقق! أعلم، أو هكذا يخيّل إليّ، أن الحبر- المجد للصين- خُلِق من أجل أن ينحسر الدم عن أماكن احتلّها حين كنا وحوشاً لا نزال.. أعرف، لكنّ معرفتي لا تقيدني في شيء. لا تجعل للدم حضوراً أقل، ولا للماء حضوراً أكبر. لم أعد واثقاً من طبيعة الحبر. أهي المشكلة في اللزوجة واللون، أم في شيء آخر؟ لا يحق لأحد أن يغادر الحبر إلى الدم بعد أن يكون قد استوطنه. أن ننقي دمنا من الحبر الذي فيه يعني أن نوقظ الوحوش التي خدّرها الحبر، أن نقول لها: قومي باسم الدم إلى الدم. ولا بد من الاعتراف بأن الحبر الذي يخالط دمنا تفسده رائحة البارود وصوت الرصاص. على أحد ما أن يخترع حبراً جديداً يصمّ أذاننا عن لغة العسكر، عن أغانيهم، عن مناجاتهم، عن صلواتهم وتوسلاتهم وعن الحمائم التي، كمثّل سحرة ماهرين، يجعلونها تفر من جيوبهم مألئة السماء ببياض خادع، سرعان ما يتكشف الأسود فيه. لعنة الدم تلاحقنا. كان على الإله أن يجعل في جسدنا ما نخالف به عن الوحوش، لا ما نشترك فيه ونصير إليه. الدم هو الوحش فينا وهو نسغ الحياة.

- لا تقل هذا في حضرة أبيك. فهو ما طاق يوماً الحديث عن الدم، الداخل منه والخارج، المسفوح باسم الله أو باسم الشيطان، الواصل بين الأرحام والقاطع بينها! جاعني صوت آت من أعماقي، معاتباً إياي. لم يعد ممكناً أن أطلق عليه صوت التردد، فهو أكثر منّي عزيمة وأشد بأساً، ومع ذلك سيخسر لأنّه لا ينتصر للدم بالدم. أليس يخلو لنا أن نخسر أحياناً، أليس يمتعنا ذلك أحياناً؟ متلبسين روح الضحية، متوسلين العطف، أم منتصرين للثقافة التي لتأكيد اختلافها عن الدم تنهزم أمامه، نفعل ذلك؟ لتأكيد أنّك وحش سنتركك تأكلنا! نقول للوحش. وفي مرحلة قادمة، سنجعلك تأكلنا، سندعوك لأن تأكلنا، سنرجوك أن تفعل، سنتوسّل إليك. هذا طريقنا الذي لا مفر منه ما دمنا نستمد قيمتنا من الوحش. وأمّا أبوك فقد انكفأ عن كل شيء متوهماً أنّه خارج اللعبة، وراح يصلي للمطر.

- لا علاقة للمطر بصلوات أبي، ولا أريد أن أرى في أبي قديساً. أبي أيضاً كان يخرج الدم إلى عينيه، صارخاً به أن اهزمهم وإلا هزموك!!- قلت له- وكان يعني بهزيمة الدم الموت. خروج أبي إلى الجبل لم يكن لامبالاة منه حيال ما يراه آت.. آت. متنبئاً باكتمال الدورة من الكهف إلى الكهف، راح أبي يوسّع كهفاً بدأ حفرة بانتظار ساعة تأتي فيها الصلوات بمطر أكثر

مما يستطيع. في البدء كان الخروج من الكهف، وإليه سيحشرنا البارود. البارود الذي ينسف الكهوف هو نفسه البارود الذي يعيد للكهوف جلالتها. وعلى الرسامين أن يعدّوا أدواتهم لرسم تاريخ الارتداد إليها، لرسم تاريخ اصطياح الحبر الهارب في بوادي الدم من البارود، لرسم غرنیکا جديدة قد يأتي من يُقرئها صرخةً حبرنا على جدار الكهف بعد ألف عام.

- لكنّك تعلم بأنك مهزوم، وأنّ أباك لم يفعل ذلك إلا لأنه مهزوم ومن جيل المهزومين. غسلتهم الكروم بقطرها فتاقوا إلى دم يصير ماءً يعيد خلق الأشياء. الدم لا يصير ماءً! يقولون مؤكّدين رابطة المخالب والأنياب. ما كان أجمله لو يصير. الدم الذي ينتصر على مائه وحبره هو وحده الذي ينتصر. تنتصر به وتنتصر له فتنتصر.

أخذت الحربة ورحت أحفر على صخرة تنتصب كجدار بين مقالع الحجر المهجورة وعشرة من أشجار الزيتون لم تعد لها علاقة بالزيت المقدّس ولم تصر إلى نار بعد.. رحّت أحفر تاريخ اليوم الذي نصبوا فيه خيامهم قاطعين علينا طريق البحر. وحفر ابن عمّي تاريخو تاريخ هذا المساء. وتوقّف حين انتهى من حفر الرقم الأخير، رافعا الحربة لا يدري إلى أين. فتناولها منه الشيخ وثّوس، جاعلا للتاريخ امتدادا أنهاه بعلامة استفهام، لا تزال محفورة إلى اليوم.

في البيّاضة، كنا جعلنا من الحفر التي خفّفها قاطعو الحجارة، ومن الكهوف الصغيرة التي انفتحت على فؤوسهم فأعملوها فيها مسترجعين سيرتهم الأولى، فإذا بهم ساكنيها في هروبهم من الحبر والدم معا إلى التراب.. جعلنا منها كمائن لأعداء مقترضين. كان على أحد منا كل مرّة أن يلعب دور العدو، أن يقيم شخصيته. وكان عليه أن ينهزم ولكن بعد أن يدمينا. لم يكن أعداء البيّاضة جنبا أغبياء ضعفاء البنية كما كانت تصوّرهم البيانات العملية التي كان يأتي ضباط من مكان ما لينفّذوها مع مقاتلي الجيش الشعبي في ضيعتنا. في تلك البيانات كان على عساكر العدو أن يتساقطوا كعصافير التوت التي يخترق صدرها الخردق الخارج من سبطانات بنادق صيد عتيقة عن بعد مترين لا أكثر. وكان على رجال ضيعتنا أن يلحقوا بمن لم يُقتل منهم ويأسروه. كان عساكر العدو جميعهم إمّا يُقتلون وإمّا يؤسرون. ثم كان القتلى يعودون إلى بيوتهم المتناثرة على أطراف الضيعة مشياً على أقدامهم التي أدمتها أقدام المنتصرين. لم يكن لدى مقاتلينا ومقاتلي العدو أبواب عسكرية يحتذونها. كنت تراهم بما اتفق من ملابس وجزم وصنادل وأخفاف. كانوا أشبه بمقاتلي طالبان، ولكن أقلّ منهم خبرة وجرأة وتصميما على القتل. كان لا بد من ركل العدو ورفسه.. كان المهزومون، في طريقهم إلى بيوتهم، يعانون شعورا مقبّتا مزدوجا وربّما مثلثا: أولا لأنهم اضطروا إلى أن يكونوا ولو لساعة إسرائيليين؛ وثانيا لأنهم هزموا فلا أحد يريد أن يُهزم حتى إسرائيلي الضرورة المؤقت بيننا، أو لنقل من يلعب دور الإسرائيلي، وغالبا ما يكون من أولئك الذين لا يحبّهم الضابط الذي يفرز الناس إلى أصدقاء وأعداء؛ وثالثا لأن أحدا

ما استغل الفرصة فركلهم أو بصق عليهم مستحضرا روح العداة إلى أقصاها. كان لاعبو الجيش الشعبي يتماهون مع الدور، يذوبون فيه.

لماذا لا يدرسون بريخت في الكليات العسكرية في بلداننا: يجب أن لا تنسى المسافة بينك وبين الشخصية، يجب أن لا يغيب عن بالك أنك تلعب الدور. يجب أن تلعب الدور لا أن يلعبك. هذا مهم للعسكر خاصة في حياة السلم، حيث تفصلهم مسافة أقل بكثير من المدى المجدي لبنادقهم عن أهليهم. العدو الافتراضي شيء والعدو الحقيقي شيء آخر. ولعب الدور هنا يجب أن يختلف عن لعب الدور هناك. وهنا وهناك يجب أن يعرف كل دوره فلا ينسى نفسه ويصير إلى روبات يحركه برنامج مزروع فيه، وتتحكم به إرادة غريبة عنه، متوهما أنها إرادته هو بالذات. في البياضة كنا أنفسنا وكان العدو كل من يخطر بباله أن يعتدي على ضيعتنا. أما في وادي الجراد فكنا فلسطينيين وكان أعداؤنا إسرائيليين. في البياضة حفرنا على صخرة مسطحة من الكلس الرخو مجسما لبيوت ضيعتنا جميعها. حفرنا الأزقة والزوايب والساحات. بدت بيوت الضيعة جميلة بلونها الأبيض المائل في بعض مواضعه إلى الاصفرار. فهنا في البياضة لم يكن للفرق بين لون بيت ولون بيت آخر أهمية، كما لا أهمية لأن يكون البيت صغيرا أو كبيرا، بيتا لعجائز أم مخدعا لجسدين ملتقين إلى اندماج، حتى بيوت الأندال لم يميزها الجسم الذي أعددناه عن سواها. هم كانوا أذنانا على أية حال، وحقهم علينا أن نحميمهم من أي خطر خارجي. لم نكن نعرف يومها أن حدود الضيعة لا تصلح معيارا للفصل بين الأعداء والأصدقاء، ناهيك بالحوار الذي لا يصلح إلا للكتابة القابلة للانمحاء. لم يكن بريخت ضروريا لنا في البياضة ولم نكن نعرف عنه شيئا. كنا نلعب ونعي أننا نلعب. لم يكن يترك واحدنا للآخر أن يستغرق في لعبته فينسى نفسه، وينسى أن الذي بين يديه حوار له طعم ورائحة غير طعم الأرض التي هناك وغير رائحتها التي فيها من البشر أكثر مما فيها من التراب. الحديث هنا ليس عن مخلفات البشر العضوية، إنما عن شيء آخر. علاقتنا بالأرض هي ما يولد طعمها ورائحتها. تمتص الأرض وتعالج أشياء كثيرة إلا كرهنا فيبقى في ترابها ويخرجه ثمراها وماؤها، كما هو عشق الأرض يضيف عليها ذلك السحر الخاص العصي على أفهام من لم يعانون مثل ذلك الشعور. جعلنا للضيعة أسوار كأسوار القلاع لم تكن لها، ورحنا نذبح الصخر من أجل أن تعلق فتعصى على المهاجمين. وجعلنا لها بوابات لها من العلو ما يدخل الجمال بما حملت. لم يكن في ضيعتنا جمال. كان الأهلون يكترونها من ضيع مجاورة يقطنها التركمان. لم يخطر ببالنا أن البوابات العالية تصلح لدخول حصان خشبي عملاق يسكن أحشاه خطر مميت. وما إن أعددناها حتى رحنا نتمثل البياضة موطننا لنا، جاعلين من الممرات بين صخورها شوارع لمقاتلينا، ومن الفوالق التي خلفتها فؤوس الأجداد بوابات يأتي منها الخطر. فما إن انتهينا من

حفر بيوت الضيعة وتحصينها على الصخر حتى باتت منيعة في أذهاننا، فغادرناها إلى الأرض لنؤكد مناعة ما رسمناه بحد السكين. في البياضة حين كان العدو يندفع في الفالق معرّضا صدره لنبالنا أو حجارتنا أو نارنا، كان المدافعون منّا عن الشارع يصرخون: (ما هيك يا جحش!) وكنا نرشد بعضنا إلى الطريقة الأصلح لاقتحام البوابة ولحماية أنفسنا في الوقت ذاته. كُنّا نعلّم أعداءنا المفترضين كيف يحمون حيواتهم وكيف يهاجمون بفاعلية أعلى. لم تكن نتوخي من لعبتنا نصرا سهلا، كالذي درّب الضباط جيشنا الشعبي عليه، على مثال ما تعلّموه في غير مكان. كانت لعبتنا تقتضي أن يكون العدو قويًا وخبيثًا، أن يأتينا من حيث لا نتوقّع. بعد جولة فاشلة من اللعب، وما أكثر الجولات الفاشلة التي خضناها، كنا نجلس جميعا لوضع خطة للعبة أقل فشلا. نفترض أنفسنا غرباء معتدين وليس أصحاب أرض مدافعين، نفكر بأفضل الطرق وأسلمها لاحتلال هذه الضيعة المحصنة كقلعة. كان يفوتنا كل مرة أن ضيعتنا ليست محصنة، وأنك يمكن أن تدخل إليها من ألف باب، وأن ثمة من سيموت مدافعا عن باب مقابل من سيفتح لك مَرَجبا الباب. وكان يفوتنا أيضا أن الخطر قد لا يأتي من الغرباء، فليس منهم وحدهم يأتي العدوان. في واحدة من جولات اللعب الأقل فشلا، والأكثر بعدا عن الواقع، وليس غريبا أن يقل الفشل مع الخيال ويزداد مع الواقع، في واحدة من هذه الجولات، تمنينا أن تكون بيوتنا أكثر علوًا، ولَمنا أهلنا لأنهم لم يجعلوها هكذا، ولأنهم لم يجعلوا على أسطحها صخورا كبيرة يمكن دحرجتها على رؤوس المعتدين.. وهذه المرة أيضا فاتنا أنهم يمكن أن يقصفوننا من الجو. لم يخطر ببالنا أن أسقفنا المتداعية يمكن أن تنهار تحت كتل الصخر. أرادتها غريزتنا قوّة فانصاع لها خيالنا. فأي سقف هذا الذي يمكن أن ينهار على أهله. لا علاقة للحديد والبارود هنا ولا لسوء البناء. فالسقف يجب أن يحمي أهله، وإلا فإنّه يفقد أسباب وجوده. هل لأننا نفترض وجود الله في الأعلى، وأن الخطر لكي يأتي من هناك عليه أولا أن يجتاز حدود الله؟ لم نفكر بذلك، بل لعلّ لرؤيتنا للحيوانات تدخل جورها، وللخطر يأتيها من أبواب هذه الجحور وليس من مكان آخر، علاقة بفهمنا هذا أكثر من حضور السماء المقدّسة. الغريزة هي ما يعمل أولا حين ينتبه المرء لخطر ثم تبدأ الأشياء الأخرى بالاستغلال. وعلى التجربة أن تستوعبها الغريزة، أن تعيد إنتاجها وتحولها إلى لغة قابلة للفهم من قبلها حتى تغدو مفيدة. على التجربة أن تتصاع للغريزة وعلى الفهم أن يمرّ عبر بواباتها وإلا تكون الخسارة في نزال الوجود، يكون العدم. ليس هناك مسافة بين بين، ليس هناك مسافة فاصلة وأشياء فاصلة، وحلول وسط بين الوجود والعدم بالنسبة للفرد الواحد. هناك خانتان فقط: حي- ميت. الميت لا يستفيد من التجربة ومن لم يمت حي بانتظار نزال آخر، ويمكن القول إنّه ما زال على قيد الحياة لأنّ ثمة قيّدا آخر. ومع ذلك ففي تجربة العدم إفادة يستقيها الأحياء المشاركون والمتفرّجون.

في لعبتنا كنا مشاركين ومتفجرين في أن. لم يكن ينقصنا الخيال ولم تكن تنقصنا الغريزة ولا دروس اللعبة لكي ننتصر ومع ذلك فهزائنا ما زالت تتدحرج علينا كالصخور التي تخيلناها على أسطح بيوتنا. هو السر في ما فوق التجربة. هو السر في فصام اللعبة والواقع. اللعبة تبقى لعبة ما لم يكن لها معادل واقعي، والحاضنة النفسية التي تنتج اللعبة وتلعبها يجب أن لا تنهار. وإلا فإنها ستكون لعبة أخرى في غير مكان وزمان وبنية نفسية. ولعلنا لا نجيد اللعب مع أعدائنا في الواقع لأن الجدار الذي بيننا يجعلنا نلاعب أنفسنا وليس أحداً آخر، يهزم العدو الذي تصوّرناه خارج واقعه فنهزم نحن. صحيح إنها لعبة حياة أو موت، ولكنّها لعبة نتبادل فيها الهزائم والانتصارات. المهم أن لا ننكفئ إلى منطقة اللالعب، أن لا نخرج من لعبة الوجود. وجود اللحم والدم وحدهما ليس وجوداً كافياً للعب. في اللعب رهان دائم يقتضي الاستعداد للخسارة بالدرجة نفسها التي يتم فيها الاستعداد للفوز. المهزوم هو من يُعرض عن خسارته، من يتعاضى عن رؤية أشنع ما فيها وأشدّه إيلاماً وإذلالاً. والمنتصر هو من يحتفل بخسارته بوصفها خطوة نحو النصر. ليس سهلاً أن نحتفل بالخسائر ولكنّه شيء لا بد منه. لم يكن أواننا، نحن أولاد سكيبا، قد آن للاحتفال بالخسارة، فلم نكن قد خسرنّا بعد، أو هكذا خيل إلينا، حين كانت البيّاضة موطننا لألعابنا لا تزال.

وأما حروبنا في وادي الجراد فلم تكن تحتاج إلى مجسمات. كان كل شيء هناك واقعي وواضح الحدود. كان السفح الملاصق للضيعة وطننا نحن الذين طالما أعجبنا أن نكون فلسطينيين وتكون لنا أرض ننازل عليها الإسرائيليين. كان مجرى الوادي المفتوح على البحر طريق الإسرائيليين إلينا. لحسن حظ أمهاتنا لم يأت الإسرائيليون الذين طالما انتظرنا خروجهم من البحر إلينا. لم نكن نحتاج لأكثر من بضعة أكياس طحين لنزال أعدائنا هناك. أكياس الطحين ليس من أجل إعداد خبز مسموم يأتي الأعداء فيجدونه طازجا شهيا بعد أن نكون قد هربنا إلى ما وراء المقابر فيأكلونه ويموتون، مكتشفين الخدعة بعد فوات الأوان. لسبب ما، لم يدخل الخبز في أي من حروبنا مع العدو. وليس للأمر علاقة بالمؤونة التي يجلبها معهم عسكريهم المرقهون. إنّما قد يعود السبب إلى علاقتنا القدسية بالخبز، ويطقس تناول الطعام: لا تأكل قبل أن تغسل يديك وتسمّي بالرحمن، ولا تقاطع طعام أحد ولا شرايه! كنا نصغي مطرقين إلى هذه التعاليم مع كل احتشاد حول صواني القش على وجبة طعام. لم نكن نحتاج إلى الطحين إنّما إلى أكياس الطحين الفارغة لنخيظ منها خياما لمعسكر الفدائيين الذين نحن نكون. وكما كانت نفوتنا الأشياء دائما، فانتنا أن الفدائيين الحقيقيين لا ينتظرون قدوم الإسرائيليين إليهم بل يذهبون بأنفسهم لنزالهم هناك في الأرض التي يقيمون فيها على زور وظلم. لو أدركنا ذلك حينها لفقدنا معنى اللعبة.

الواقع هو الذي خرب علينا لعبتنا وليس نقص الحيلة والخيال. كنا نرى معسكرات الفدائيين الفلسطينيين على مقربة من ضيعتنا، في موقع معمل إسمنت برج اسلام، وفي موقع جبل الشيخ خليل. كانوا هنا فصرنا كمثلهم هنا. قصفتهم الطائرات فحفظنا أن نقصفنا وألغينا فكرة المخيمات البيضاء. لم ننتبه إلى أن الأبيض في الحرب يعني الاستسلام. فيما بعد، وُجد من يستفيد من الخام الأبيض لكتابة يافطات ترحيب بالمعزّين الكرام وشكرهم على مواساتهم الكريمة، وعبارات مبايعة واحترافٍ وابتهاج بأعياد التصحيح، ووجد بين النساء من تخطيط لزوجها سراويل داخلية من يافطات مضى عليها زمن العيد. على سفح وادي الجراد لم نرشد أعداءنا إلى الطريقة الأفضل لاقتحام مواقعنا. كنا في وضعية دفاع محضة، على خلاف ما كان حالنا عليه في البيضة. هناك كنا نلعب لعبة الدفاع والهجوم، نقتحم القرية بوصفها قرية غريبة، وندافع عنها بوصفها وطننا، أمّا هنا فإننا ندافع فقط.

أن نهاجم، فكرة لم تدخل لعبتنا، فقد كنا ننتظر أن يهاجمنا الإسرائيليون دائما، أم أنه كان من الصعب علينا قبول فكرة أن تكون أرضنا محتلة فنأتي لتحريرها من مكان آخر. أعجبنا أن نكون فلسطينيين ولكن لم يعجبنا أن تكون أرضنا محتلة لكونهم. أن نكون نازحين أو لاجئين أمر لم يخطر ببالنا. اللعبة تبدأ قبل الهزيمة، وإلاّ فما معنى اللعبة إذا كانت نتيجتها محسومة مسبقا ومعروفة للجميع. التوقع، الانتظار، الإثارة هي ما يشد عادة إلى اللعب. كانت لعبتنا في وادي الجراد خاسرة على الرغم من أننا كنا ننازل أعداءنا هناك بجديّة بالغة، وربما بسبب من ذلك. كيف؟! اللعب بجديّة مبالغ فيها يفقد اللعبة قواعدها، يسمح حدودها، يجعلها شيئا آخر تصح فيه تسميات أخرى وله معان أخرى. المبالغة في الجد تعيد الأشياء إلى معادلة (وجود-عدم). ولما كان العدم مستحيلا خارج مفهومه الفردي فقدت اللعبة معناها. الحرب لعبة دامية ومؤلمة ومخزية وفظيعة ولكنها لعبة في جميع الأحوال طالما هي خارج معادلة (وجود-عدم). ومع أنّ كثيرا من الجد في الحرب يفسد اللعبة، إلاّ أن ذلك لا يعني أن الحرب ليست لعبة جدية إلى الحد الأقصى. المشكلة في اللاعبين وليست في اللعبة نفسها.

في وادي الجراد، خرجنا من جميع حروبنا دون فائدة ترتجى، بدليل أنّهم من هناك وليس من مكان آخر زحفوا إلينا اليوم. هنا كان الهدف من ألعابنا أن يلوذ العدو بالفرار بعد أن نكون قتلنا أكثر ما نستطيع قتله من جنوده. هنا، رحنا ندحرج الحجارة على الإسرائيليين القادمين من قعر الوادي. لم نفكر يوما بجعلهم يسلكون دروب الرعاة المحفورة على السفح. هنا، رحنا نعد لهم كمائن حقيقية. نحفر جورا خفية عمّن سيكونون أعداءنا غدا، ونموها بفروع الأشجار وبالعشب والتراب، نمّد حبالا ونشدّها لحظة مرورهم على حافة منزلق يصعب التوازن عليها.. هنا، كسرت أيدي وفجّت رؤوس وسحجت أذرع وجباه. وهنا، لم نكن نتبادل الأدوار. جدية العداة منعتنا من

ذلك. الأعداء هنا كانوا أعداء في جميع النزالات. لم يستطع الواحد منهم أن يخرج من ساحة العداوة إلى ساحة أخرى، على الرغم من أن شيئاً لم يكن يفصلنا. فقد كنا نأكل ونشرب ونلعب وننام معا. ومع ذلك كانوا أعداء أصحاب باطل وكنا مقاومين أصحاب حق. لم يكن مبدأ اللعبة يمنعهم من أن يتحوّلوا من خندق العداة إلى خندقنا. جدّيتنا هي التي منعتهم.

العدو هو من يخسر في نزال كرة القدم، لا أكثر ولا أقل. كلنا كنا معا في فريق التحنانية. كان لدينا فريق من الأقوياء وفريق بديل احتياطي من الضعفاء. وكان النزال لا يتم دائما بين الفريقين. لسبب لا يزال في رأس شمعون، لم يحوّل أحد من فريق الضعفاء إلى فريق الأقوياء، ولم يتم العكس إلا مرّة واحدة، وكان أن هجر من أنزلت به العقوبة الفريق إلى غير رجعة. لم يقبل أن يصبح إسرائيليا وكثيرا ما حاول تخريب حروبنا بأنّ دعا أمهات الإسرائيليين منّا إلى السفح فإذا بالحجارة تنهال علينا نحن الفدائيين المقاومين من أعلى فتؤدي إلى فرارنا وانتصارهم علينا. كانت أصواتنا تتعالى بأنّها مجرد لعبة!! حين كنا نخسر النزال، نخسره بسبب من طريد شمعون أو من أمهاتنا أو بسبب من مرور أب أحدنا بالصدفة من هناك فإذا به يجر المقاتل من إذنه إلى كتب المدرسة. وكنا نخسر أحيانا بسبب من أنّ من اخترناهم إسرائيليين بيننا، لإرواء تعطشنا إلى الانتقام وليس لتعلّم كيفية الانتصار، كانوا يحتدمون ويصرّون على إنزال الأذى بنا انتقاما لكراماتهم المهذورة من قبلنا نحن من احتكرنا لأنفسنا الذروة. دروس وادي الجراد التي لا تفيد في مقاومة الإسرائيليين ولم تفد، قد تنفع في مقاومتنا لأنفسنا، لعماء جدّيتنا، عماء اعتلاء الذرى، عماء البحث عن عدو يرفع عن النفس أوزار المسؤولية. في وادي الجراد لم نتعلم لا هذا ولا ذلك. واليوم جاءونا من هناك، اجتاحوا تلك المواقع نفسها التي كنا نكسر أيدي أبناء صفّنا ونفجّ رؤوسهم دفاعا عنها. لم يحصل ذلك لأننا أخلينا تلك المواقع قبل مجيئهم إنّما لسبب آخر.

جلسنا، نحن أولاد سكيبا، في البياضة نتأمّل تمثال امرأة نحتناه بعيدا عن الاتقان. كان تمثال امرأة طردها الفقر إلى منطقة لا لعب فيها ولا جد. هي سكيبا التي صار كل من جاء من نسلها يقال له (ابن سكيبا)، فإذا به ينتمي إلى الفقراء الذين منهم من يعرف كيف يستعيد لقمته المسروقة ومنهم من يجهل ذلك ومنهم من يقعد العجز عن حقّه باستخدام عينيه وقلبه ولسانه وشرايينه ومخالبه وأنيابه وكل ما يملك لاستعادة ما سلّب من أجداده قبل أن تحرم منه النطفة التي كان. جلسنا تدرأ عنا الصخور موجات الانفجارات الآتية من الضيعة في تناوب مع أزيز رصاص وصل إلينا أشبه بزعيق فارغ.. جلسنا نتأمّل صخرة - امرأة جعلنا لفرستناها الفانيلا أهميّة قصوى في معانقة الفولاذ لحوار مطواع. لم أر جدتي في غير ذلك الفستان. أو لعلّه كان لديها فستان آخر بمثل لونه وشكله وألوان رقعته وأشكالها. مئات المرّات مشيت معها رحلة الأمتار الخمسة عشر من فراش قطني رصّ تحت جسدها المشلول سبعة أعوام إلى التراب، عكّازا لها

كنت إلى جانب عكاز آخر من السنديان. لكنني اليوم لم أعد واثقا من منّا كان يتعكّز على الآخر. رأيتني أتعكّز على روحها في ألف ليلة من الألم والقهر. والآن حين يمنعني الألم من النوم، وحين يطبق الحزن على روحي وبعصاني الدمع، أصلي من أجل أن تراني روحها وتمسح على ألمي فإذا بي أستفيق بعد ساعتين من نوم عميق. ساعتان مسافة هائلة بين عالمين!

ورأيتنا نخرجها من جيبٍ كأنما كان أحدهم قد قدّه لأجلها في خاصرة الصخر، نخرج الصخرة التي صارتها، ننفذ عن فستانها الغبار، نتأمل عضلات القهر على وجهها الحزين: الحياة معه لا تطاق يامو! قالت لها ابنتها في حضرة الدمع: أحبيّه، تحلّو حياتك معه! أجابت الأم ابنتها. الحب والإرادة، علاقة معقدة لا أدري إن كانت سكبيا قد فكّرت بها. أم أنّ الأمر وما فيه أنّها أرادت لابنتها الخلاص من العذاب فرأته في الحب. لعلّها أرادت الإيمان بالقدرة على الحب حتى حين يبدو ذلك مستحيلا، وفي ظرف مستحيل. أحبّته المرأة فظل يسكر حتى مات. ولكنه أحرق ببادر الضيعة قبل أن يموت. حين ماتت سكبيا، أشعل ديناميته وألقى به إلى السماء. لم يصل الديناميت إلى الله. عاد صرخةً براقّةً من هناك أشعلت الزرع. قالوا: الشيخ علّوش حرق الزرع! لكنهم أشفقوا عليه حين قيل لهم عن الدمع الذي واكب انهمازه انشداد عروقه قاذفة إلى الأعلى بالنار. كانوا يعرفونه جيّدا. لم يؤاخذوه على وعده لهم بشتاء جوع دون مؤونتهم التي فحّمها اعتراضه على قهر القهّار، بل تمّنوا لو أعانته أيديهم على إيصال الديناميت إلى هناك.

وحين مات الشيخ علّوش رأيتهم يتحدّثون عن سكبيا أكثر من حديثهم عنه. يذكرونها فيكونها ويبيكون ذاكرة الديناميت. ورأيتنا بعدما تبادلنا نظرات صامتة، فيما الرصاص والانفجارات يتداخل صوتها القادم من بين البيوت، قاطعا حبل سرّتها عن بياذرها، رأيتنا نعيد المرأة الصخرة إلى مرقدها. كنا قبل ذلك نلحم بجرف صخري عملاق قرب مغارة واقعة أعلى السفح الشمالي من ترسلان، كنا نلحم بجعل ذلك الجرف إياها وجعلها إياه، وإلى حين تفتح الأرض للحلم ذراعيها، خاطبتنا تلك الصخرة الصغيرة البيضاء فأتيناها بحرية جدي جاعلين منها امرأة ستكبر ذات يوم، وستشغل قمة الجبل من جهة صعود الغيم. كان جدي قبل ذلك قدّ، لها من لحمها ودمها وأعصابها، حين هجرها رجلين لا حياة فيهما. بُصّت أعصابها بإعراض جدي عنها قبل أن تبضّ حريته عنق الصخرة باحثة في الأخيرة عن قوّة تقهر الشلل. شلّت جدتي سبعا عابقاتٍ برائحة العجز وفقدان الأمل بالسماء. ورأيتنا نبحث عن حجر مسطح يصلح لإغلاق باب مرقدها، ورأيتنا سرعان ما نجده. رأيت النار التي أشعلناها في عيدان الزيتون اليابسة تكفي لرؤية حد الحربة ينحت على الصخرة الباب: (ملعون من يرفع هذه الصخرة من مكانها، وملعونه ذريته، وكل يد تمتد إليها سيصيبها ألف بلاء، وستقطع ذرية من تُسوّل له نفسه تدنيس هذا المكان!).

كنا قد قرأنا شيئا مشابها لما كتبناه في مكان ما، ورأينا فيما يبعث عليه من خوف ما يكفي

لحمايتها وجعلها ترقد هناك إلى يوم نخرجها فيه. لم نكن نعي ما نفعل. كان طقسا سحريا تملكنا أكثر مما تملكناه، وكان يحتاج إلى التسليم بسحريته أكثر مما يحتاج إلى الفهم. ولم يفهم أي منا لماذا رحنا نخرجها من مرقدها. ولست أذكر من مآ نطق بكلمة البيّاضة أولاً، ومن مد يده قبل غيره لإخراجها من هناك. ورأيتنا بعد ذلك نتجه إلى أخدود ضيق طويل حفرناه يوماً في الصخر، مهداً لمقاتلين من كلس، أملاً بأن يستجيب الكلس لأمنيّاتنا فيحزّ في غده الزجاج وكل ما هو ألين من الزجاج الصلب، ناهيك بأعناق الأعداء. نمنا واستفقنا مرّات ومرّات على أمل أن يكبر مقاتلونا ويتألمس كلسهم وتقسو قلوبهم. كما حلمنا بأن تقسو قلوبنا، فلا نعود نخشى أحداً أو نخشى شيئاً.

الخوف الذي زرعه فينا المدرسة وزرعه فينا الأهل، جعلنا نبالغ في ادعاء الجرأة. لم تكن جرأتنا المدّعاة قد اختبرت قبل اليوم. كنا نختبر جرأتنا في مواجهة وحوش صغيرة لا يصلح في مثلها تعبير الوحش. نمسك بحرباء، بسحلية، نهاجم قطة، نهاجم كلباً حين يكون عددنا أكبر من أن يقدر علينا كلب شارد، نخرج جماعات للبحث عن ضبع، وأول ما تبرق عينان في الظلام، وقبل أن نتحقق منهما، نصيح: ها هو الضبع ويعلو صراخنا وقرعنا على صفائح التنك، وتنباهي بأننا أربنا الوحش، فيما نحن في طريق عودتنا من بين البساتين حيث لا ضباع ولا ثعالب ولا أبناء آوى، نتدافع إلى وسط الطريق، خوفاً من أن يهجم علينا وحش ما من وراء التخوم. وما كان أحوجنا إلى منازل الوحش الحقيقي، إلى منازل خوفنا! الوحش الذي ما نازلناه، راح يطلّ برأسه من هنا وهناك، راح يعيد تشكيلنا على هواه، فإذا بنا نطمّر أمانينا بالقوة والجرأة تحت التراب، بل قُلْ نزرعها أملاً بأن يكبر زرعنا، فإذا بأشعة شمس تين أو زيتون أو سنديان تفتح عيوننا بعد ليل ثقيل على هدير جبابرة يخرجون من تحت التراب، جبابرة صارت إليهم الحجارة والعيّدان التي شكّلناها فسويناها ففخنا فيها روح رغبتنا فوسدناها قش حنطة وشعير ولفناها بمزق من بقايا بدلات عمل رمادية وزرقاء ودثرناها بتراب مجبول بدم حمار مسكين ذبحناه. وللباحثين عن رموز فيما فعلناه نحن الصغار أولاد سكييا، أقول: لم نكن نفكر يومها بأننا نذبح الخنوع الآخذ شكل حمار. ذبحناه لأن شيئاً فيه أثار فينا رغبة الذبح، وشعرنا بأنفسنا أقوىاء.

اتجهنا إلى حيث طمر كلّ منا إثني عشر جندياً صغيراً منحوتة من الحوّار ومسلحة بحراب من عيصلان. ولست أدري إن كان للأمر علاقة بعيصلان مرآة بوغديدي، مرآة علي جاد أم لا. لماذا هذا العدد من الجنود دون سواه؟ لست أدري. لم يخطر ببالنا أن نتساءل يوماً عن عدد الجنود في السرية أو الفصيلة أو الكتيبة أو غيرها من التشكيلات العسكرية. ربما خطرت ببالنا الدزينة دون أي شيء آخر. للدزينة سطوة عظيمة وخاصة في الطفولة! نقول دزينة. للدزينة علاقة حتى بخصوبة الأمّهات. قيل عن أمّي امرأة كسولة لأنها لم تتجب سوى نصف دزينة من

الأولاد. وبعضهم رأى في اكتفائها بنصف الدزينة كفرا. وقيل عن امرأة أخرى إنَّها، ما شاء الله، أنجبت دزينة وما تزال قوية مثل فرس الطاحون، وقيل عن ثالثة لديها دزينة ونصف من الأحياء وقد دفنت المسكينة نصف دزينة. ما شاء الله! من يجروُ على النظر نحو بيتهم؟! دزينات من الجنود طمرنا تحت التراب، ورحنا ننتظر أن يعطي الواحد منها ألفاً، كمثّل حبة قمح لم تبخل عليها الأرض بدبالها والسماء بمائها. أتخيّلهم الآن كمثّل مقاتلي طالبان يخرجون من تحت الأرض بجلابيب وسراويل بيضاء بأيديهم رشاشاتهم وعلى أكتافهم مضادات الدروع، الله أكبر! يصيحون. لكنني لا أريد لمقاتلي أن يكونوا كمثّل مقاتلي طالبان. ولست متأكّداً من أننا سنكون على غير ما هم عليه، لو كنا في أفغانستان أو وزيرستان، وأنّ مقاتلينا سيكونون أقلّ علاقة بالله وبالتراب معاً.

طعم الموت، كما طعم الحياة، يختلف من مكان إلى مكان. كم يسهل الموت بعد معاناة وكم يصعب على رافل في نعيم الصّحة والوفرة والجمال! لكنّ في موت الجائعين والمعدّبين والمحرومين والمقهورين شيئاً آخر يختلف بالنوع وليس بالدرجة عن كل موت آخر. هنا يتكثّف القهر، هنا تتكثّف البشرية بوصفها مصدر القهر أو متواطئة معه أو مشاركة فيه، هنا يصبح للموت الفردي معنى القهر الإضافي والخنوع الإضافي، هنا يكتسب الزمن امتداداً آخر يتيح أن يكون هناك ما بعد وما بعد البعد، يتيح الانتقام أو التعويض عمّا فات. فلنذهب معاً! يقول الراحلون إلى الموت، يقولونها ليس فقط لأعدائهم. وهناك نكمل حديثنا، وهناك نريكم كيف نكون، هناك تتقلب الآية. هناك الفرجة وإلى هناك يجب أن يذهب معهم أقربون وأبعدون ليشهدوا على قوتهم. في أن تتسف جسدك وسط حشد ممن يحتقرونك أو يسكتون عن هوانك أو يشاركونك الذل أو لا يشعرون بوجودك ناهيك بمن يتلذذون باستغلالك واستعبادك.. أن تتسف جسدك وسط أجسادهم يعني أن تتقلهم إلى حلبة نزال أخرى. لكن، ويا لبؤس ما يفعل البارود! فلا حلبة أخرى ولا نزال آخر. فمن يمت، يموت هنا، ومن ينتصر ينتصر هنا وكل من سواه مهزومون.

وأخرجنا عساكرنا من أعشاشهم فإذا بهم لا يكبرون، وإذا بهم من طينة لا يقسو معدنها ولا تصلح للنزال. بدا عساكرنا الصغار مشوّهين، مكسورين الأنوف، محطّمي الأيدي والأرجل. ترددنا قليلاً بين أن نعيدهم إلى حاضنة التراب أو نتركهم للريح والشمس، فأثرنا الخيار الثاني. تركناهم كمثّل قتلى معركة، داهمهم القصف على عتبة خندقهم، فما استطاعوا قتالا ولا استطاعوا فرارا. هناك تركنا أشلاءهم، واتجهنا إلى الكاديك.

برعاية الأخضر

على عتبة المزار العتيق كدنا نسقط ضحايا خوفنا فأسقطناه. والهاء ليس إلى الخوف تعود. كأنما كان هناك من أرسله ليخرج إلينا من الظلام. الظلام الذي خرج منه إلينا صنعه دغل جاء من رحم خرنوبية عهيدة قصفتها الصاعقة مرتين وصخرة معلقة على خاصرة كهف المزار. من هناك، خرج إلينا مولداً في أجسادنا كهراء الرعب. قارب رعبنا الهلع. كأن كهراء الهلع جاءتنا من الأرض، فما أكثر ما أفرغت منها السماء في هذا المحشر الضيق، بين الجذع المحروق الذي ما عاد يقوى على النهوض فأخرج عشرات من فسائله الخضراء في لفتة احتجاج إلى السماء، والصخرة التي كأنما خرجت من المزار إلى الخرنوبية المفجوعة بتاجها المحروق. تعاطفت الصخرة مع الخرنوبية الفاقدة التاج، فصنعتنا معاً ظلاً في النهار وعمة في الليل. حين ترعد السماء وتبرق، لا يلجأ المؤمنون إلى أشجار الخرنوب خشية أن تضربهم صاعقة فيحسبهم أهلهم كافرين. أمّا في الصيف فيصعب التمييز بين مؤمن وكافر. في الصيف يلجؤون معاً إلى الظل ذاته، وهناك في قلوبهم يتحدثون عن أشياء أخرى غير الله. في المرّة الأولى ضربت الصاعقة رجلاً على عتبة الأربعين من عمره كان لا يزال. ومن يومها تحاول امرأته التحدّث بالفصحى دون جدوى. بقيت المرأة مع صبيين صغيرين في عيونهما غير قليل من تلك النار التي صرعت والدهما الملعون. وما إن أخبروها بتفحّم جسد زوجها حتى راحت المرأة تتفجّع، وهي الأمّية، بالفصحى. لكنّها فصّحت أنت عليها الصاعقة فما أبقت من قواعدها شيئاً على شيء. ولم يستطع أحد بعد ذلك اليوم أن يعيدها إلى لغة أهلها الذين أصروا على كفر زوجها واستحقاقه الموت، وليس أي موت، إنّما هذا الموت الجهنمي بصاعقة جاءت من حيث لا تغفل العين عن كافر وابن حرام. قال طبيب أخذها أهلها إليه: هي بحاجة إلى صدمة أخرى أقوى تعيدها إلى عامّيّتها. تناقل الأهلون ما قاله الطبيب ونشروه سرّاً محاطاً بالرهبة والقدسية كأنّما هو نبوءة جاءت من السماء، وراحوا ينتظرون صاعقة جديدة تلتهم نارها الماحقة أحد الولدين العجيين. حين أخبروها بالقبض على ابنها البكر العسكري وزجّه في السجن لم يغيّر الخبر في فصاحتها شيئاً. كان علي أثناء الاجتماع الصباحي قد رجا سيّده، بصوت وحشي يتوسّل قطع سيل الغضب المتنامي في داخله، رجاه أن يكفّ عن شتمه أمام رفاقه، فلم يفعل. اندفع إليه علي كثور عظيم هائج، وارتطم بصدرة. بعضهم قال: نطحه وسط صدره نطحة زنتها-

وراحوا يزيدون من زنة النطحة لتعادل غضبه- ألف رطل، فأوقعه أرضاً وحين لم ينهض ثانية ولم يتنفس عرفوا أنه مات. وآخرون قالوا: بل رفسه على صدره بعد أن سقط الأخير على الأرض فانغرزت أضلاعه في قلبه. لم يشرّح أحد جثة الضابط لكنهم أخذوا علي إلى السجن. لم يفد الخبر في إعادة لسان الأم إلى مستقره، فراحوا ينتظرون موت أخيه الأصغر بطريقة فظيعة شنيعة، لكنّه نكايه بهم لم يمت إلى ساعة كتابة هذه السطور، فيما ماتت المرأة ولقنها الشيخ ما يجب أن تقوله لمنكر ونكير بفصحى من طبيعة فصحاها، وكان ابنها السجين قد أطلق من سجنه محروماً من حقوقه المدنية والعسكرية، وراح يعمل في صناعة الفحم فلا يبقى على سنديانة خلا تلك التي في كنف المزارات.

لم نكن قد لجأنا إلى المزار طلباً للأمان من شر العسكر الذين ما زالت لعلعة الرصاص تخبر عن وجودهم في وسط الضيعة، ولا بغية إشعال البخور لطرده الأرواح الشريرة، أو لتبخير روح من تكون رصاصة طائشة قد أردته، ومع ذلك لم نكن قد أتيناها لغاية بعيدة عن هذه وتلك. كنا ننوي أخذ (خلعة) من الثوب القدسي الأخضر الذي لفّ به مقام الخضر مرّات ومرات. فما أكثر من يأتي بثوب أخضر هدية لوجهه المهيب، فإذا بالأثواب يعلو بعضها بعضاً وإذا بها جميعاً تعبق برائحة البخور. أتيناها لأخذ شريط أخضر طويل من أقرب الأثواب إليه، من ثوب تشبّع بطاقته السماوية العظيمة، فإذا به أقدر على المعتدين. كنّا ننوي قطع الطريق عليهم إلى معسكرهم بشريط مزدوج من طاقة المقام. وكنا نضمّر أملاً بأن تشلّ سياراتهم هناك، نعم كنا نرجو أن تشلّ كما يُشلّ البشر لا أن تتعطل فحسب.. بأن ترتعد فرائصهم فينهارون على عتبة الحاجز المقدّس غير المرئي في الليل. ينهارون، بينما يجتاح أرواحهم ذعر عظيم من شيء لا يعرفون أين يكون وكيف يكون، إلى أن تأتيهم رسالته في نومهم الذي تتنازعه الكوابيس: أنْ ابتعدوا عن هذا المكان ولا تدنّسوا ثوبي، ولا تقربوا خدامي، وإياكم أن تطأ أقدامكم نبتي وترابي وأن تبلغ أنفاسكم هوائي ورذاذ كلامكم مائي. كانت الألسنة تتناقل هنا أخبار جرّافات، بعضه قال ثلاثاً وبعضهم خمسا، تحطّم فولاذها على صخرة صغيرة مجاورة لمزار إن لم تُزل سيعوجّ الطريق. عجز المهندسون عن فهم الظاهرة وذهل الخبراء الآتون من وراء البحار. فما هي إلا صخرة من حوّار. زجّوا بالجرافة الثانية بعد انكسار الأولى، ثم بالثالثة بعد الثانية، وهكذا- يبدو أنني مذ كنت بين أولاد سكييا المرتعدين على عتبة الكاديك أميل إلى حكاية الجرّافات الخمس من الثلاث- إلى أن فرّ السائقون والميكانيكيون والمهندسون، ورفعت اليد عن المكان الذي بقي يدلّ على قدسيته اعوجاج الطريق. قلنا في أنفسنا: نحتاج إلى خمسين متراً من الثوب الأخضر للربط بين بطمة وزيتونة تحدّان الطريق قبيل المنعطف الحاد المتجه نزولاً إلى المعسكر، ورحنا نفكّر من ممّا سيرفع الأثواب، ومن سيقطع بحد الحربة الثوب ويدور حول المقام منتزعا الشريط إلى

حين بلوغ الطول المطلوب ومن سيلف الشريط المقطع في كرة. وأمّا صلاة الرجاء والاعتذار فسيؤدّيها كل منّا على طريقته، قبل لمس الثوب وبعد الانتهاء منه. لم تكن هي المرّة الأولى التي نتوسل فيها القوة في قماش أخضر لا يكاد يقوى على ضغطة يد صغير. سبق أن اقتطعنا منه لتفوز ثعابيننا على ثعابين غيرنا في سباقات للطيران لما تنته بعد. طائرات الورق أو ثعابين الهواء أو تنانينه.. كان منها ما يقودنا إلى العلا ومنها ما يقودنا إلى الوديان والجبال. والفرق بين الحاليين كالفرق بين أن تفوز أو أن ينقطع الخيط بينك وبين ثعبانك فتركض وراء ذيل الثعبان على السفح المقابل من وادي الجراد أو إلى القمّة أو ما يأتي بعدها. في لحظات السقوط كنّا نتمنى أن يكون السقوط سريعاً وخاطفاً كي لا نضطر إلى السير طويلاً وجرجرة ذيول خبيتنا قبل الوصول إلى ذيل الثعبان. ومن أجل أن لا يحصل ذلك، كنّا نقتطع من الثوب المقدس ما يكفي لشد أزر الخيط، وكان الأكثر كذاً وأقل إيماناً بيننا يصنعون من خيوط الثوب جديلة يغزلونها مع خيط الثعبان فإذا بها توثق اليد إليه في رباط أخضر متين. وكان الخيط ينقطع في كل الأحوال. لكن الكبار كانوا يسارعون إلى قطع طريق الشكّ علينا. كانوا يرجعون سبب انقطاعه إلى عدم ثقّتنا المطلقة بأنّه قادر على الصمود في وجه أعتى الرياح مهما كان ضعيفاً. كانوا يقولون لنا: قلّة إيمانكم هي السبب. جرّنا أن نكون أكثر إيماناً، لكننا لم نستطع التخلّص نهائياً من شكّنا بقدرة خيط واه على تقوية خيطاننا مقارنة مع خيطان أولاد صيادي السمك المصنوعة من الحرير. ولما لم يكن لدينا من خيطان شبّاك الحرير أو من الخيطان التي يصيدون بها أسماك البلميدة الكبيرة شيئاً، لم نجد بُدّاً من شد أزر ثعابيننا بما تبقى لدينا من إيمان. فحين لا تفيد الوسائل الأخرى يكون لا بد من الإيمان.

لم يعد لدينا نحن أولاد سكيبا، بعد انصراف شمعون إلى مكان ما نجهله، وانصراف أم علي إلى شأنها، ما نفعله سوى الانصراف إلى دواخلنا وسماع الأصوات التي تأتينا من هناك، الأصوات التي أردنا أن نصدّق بأنّها لا يمكن أن نخذلنا. فهي أصوات منقذة لنا في لحظات حيرتنا وترددنا. كان علي جاد كثيراً ما يتحدّث عن روعة الصمت، عن روعة أن تفعل ما تمليه عليك روحك بلغتها الخاصة. لم نكن قد تعلّمنا بعد كيف نصغي إلى أرواحنا. كنّا نستجيب لما تدفعنا إليه غريزة البقاء، طانين بأن أرواحنا التي تحدّث عنها علي جاد هي التي تخاطبنا. واليوم، حين تتشبّث الروح بالبقاء هنا تُرسل في طلب غريزة البقاء، فيختلط علينا النداء.

وعلى بعد خطوات قليلة من مدخل الكهف-المزار، فاجأنا خبط أقدام وخشخشة تأتي من ذلك الجيب المظلم. توقّفنا وأشهر الشيخ وتوس الحربة متعّثراً في تراجعته بقدمي علي خضيرة المرتبكتين الجانحتين نحوي أنا الذي تراجعت ثلاث خطوات مرتجفات عاجزا عن الركض. ومن هناك خرج كائن أسود كبير، خابطاً برأسه أغصان الخرنوب. كدنا نموت فزعا قبل أن نرى رأسه

الكبير و عنقه الممدود وأذنيه. رأيناها دفعة واحدة. وبدلاً من أن يهمد خوفنا ويتلاشى، تحوّل إلى غضب ورغبة في الانتقام. كان أحدهم قد ربط حماره وتركه هناك في حماية المزار. لم نفكر بالأمر الأخير، أو لعلنا أخذناه بعين الاعتبار دون أن نعي ذلك. فقد فككنا وثاق الحمار، وسقناه بين ركل ووخز وسوط بقضيب خرنوب ليّن اقتطعناه إلى الطريق حيث كانت تنتظرنا بطمة وزيتونة وإسفلت. في فورة غضبنا منه وحقدنا عليه، نسينا أمر الخلعة وأمر قطع الطريق. في الحقيقة كان غضبنا صورة أخرى لخلجانا من ضعفنا وجبننا. فحمارٌ هذا الذي كشف هشاشتنا وليس وحشاً آخر. لكنّ الوقت لم يكن مناسباً لتأمل ضعفنا. رأينا في الحمار عدواً يختبر جرأتنا وعزيمتنا ويسخر منا. لم ينهق الحمار. ربّما لو نهق لما قتلناه. كان يكفيه أن ينهق ليعيدنا ولو قليلاً إلى ألفتنا مع صوت طالما أحببنا سماعه قادماً من بعيد في الليالي المقمرات. لم ينهق الغبي فقتل نفسه. ولكن من يدري، فربما لو هو نهق لقطعنا لسانه. لم يكن الحمار يعلم أن الحرية التي تخذه في مؤخرته ستتغرّز في عنقه عمّا قريب، وإلا لرفسنا وهرب إلى أي مكان يبعده عن الموت. هكذا هي الحال، معرفة دنو الموت تشلّ صاحبها، كما أنّ جهله به يقعه عن فعل شيء يجنبه الموت القادم إليه.

وفي وسط إسفلت لم يبهت لمعان سواده بعد، قطعنا بحدّ الحرية ما يكفي من رسنه الطويل، وأوثقنا به قوائمه ثم قلبناه. وكما كنّا رأينا الشيخ الهدهد يفعل بذبائح الأهلين، حزننا عنقه ونحرناه، ووقفنا مذهولين أمام دفق الدم المندفِع إلينا. تلطّخت قمصاننا، فأعادتنا إلى أنفسنا. وجدنا أنفسنا أمام مشكلة جديدة، لم نكن قد حسبنا لها حساباً. سلكننا الطريق الذي سقنا عبره ضحيتنا عائدين باتجاه المزار دون أن ندري إن كنّا نقصده أو نقصد غير مكان.

خطر ببالي أثناء تقييد قوائمه أن نكتب على جثته عبارة ما تفهمهم أنهم هم المقصودون بهذا الذبح، لكنّ الفكرة تبخّرت مع انبجاس الدم من شرايينه. تخيلتهم يرتبون حين يرون جثته ملقاة وسط الطريق، ويدركون أنّ عملية الذبح تمّت للتو، وتخيلتهم يستنتجون أنّهم هم المقصودون بها، فأردت أن أوكد لهم ما تخيلت حدسهم يسوقهم إليه. لكن الدم كان أقوى من الأفكار.

وبعد، يا أصدقائي، وعلى الرغم من كل ما أسلفت، فما زلت لا تعلمون إلا القليل عنّا نحن ساكني الجبال المطلّة على البحر. وبعد أن ابتعدنا خمس زيتونات أو ست عن الطريق العام، وكنا فضلنا السير بين الأشجار في خط مواز للطريق الترابي الواصل إلى الكاديك، توقّفنا فجأة. خطر ببالنا أن نجعل جثة الحمار بين صقّين من الحجارة يقطعان الطريق. أردناهم أن يتوقّفوا هناك أطول الدقائق الممكنات في طريق عودتهم إلى المعسكر، أن يتفحصوا الجثة، أن يفكروا لماذا الذبح هنا والآن، وأن يتدبّروا أمرها وأمر أفكارهم قبل أن تتحول إلى جيفة. ولكننا ما إن بلغنا الإسفلت حتى اهترت فكرة حاجز الحجارة في أذهاننا. رأينا أن نضع دائرة من الحجارة

البيضاء التي ستعكس عليها أضواء سيارات الجند من بعيد، أن نحيط الجثة بها. ثم عدّلنا الفكرة جاعلين من الدائرة دائرتين، فبدت الجثة في مركز دريئة للتصويب. أتينا بالحجارة من بين أشجار التين. كان الطريق الواصل إلى المعسكر قد شُق بين التين والزيتون. وبمجرد أن أغلقنا دوائر الهدف، وجدنا أنفسنا نلتقط المزيد من الحجارة ونرتّب دائرة أخرى على الإسفلت من الجهة القريبة من المعسكر. لم نترك الدائرة فارغة، مع أننا إيذانا بالانتهاء، بدأنا ننفذ أيدينا مما علق بها من تراب. بدت الدائرة فارغة، ناقصة، بحاجة إلى شيء ما يملأ ساحتها. كان لا بد من حجارة أخرى. اتجهنا إلى التين وعدنا مسرعين. وفي وسط الدائرة رسمنا علامة استفهام. شعرنا بالرضى عن أنفسنا فقلنا راجعين، مشيعين جذوع الزيتون، واحدا واحدا في صف طويل ينتهي إلى مفترق طرق ما بعد المزار. كانت المسافة الفاصلة بين الكاديك ومفترق الطرق التي ترسم صليباً عموده يمتد من المدينة إلى ضيعتنا وذراعه ضيعتان أخريان لم يئن أوان اجتياحهما بعد.. كانت تلك المسافة السفح مسكونة بأشجار غار لم يزرعها أحد، وكان يفصلها عن الضيعة سفح أجرد إلا من شجيرات الشوك.

عاد الدم على قمصاننا ليذكرنا بنفسه. كان بئر الصليب غير بعيد عن مفترق الطرق، وقد رُكبت عليه مضخة لتزويد القرى الثلاث بالماء. كان البئر يعلوه خزّان ماء كبير، ويحيط به سور من أسلاك غير شائكة وبحرسه رجل عجوز. يوم دقّت أوتاد السور زيد من ارتفاعها من أجل أن لا يتمكن الجنود الإسرائيليون من القفز فوقها وتسميم الماء. يومها بنيت غرفة الحارس بالعبد بين أعمدة (الحاووظ). بات على من يرغب في الصعود إلى سطح الحاووظ أن يدخل غرفة الحارس أولاً. ومن إحدى زواياها يصعد سلّم الحديد عبر فتحة في السقف إلى الماء. كان ذلك يعني أن يمرّ الإسرائيلي عبر جثة بوالعبد الذي لا يتجاوز وزنه حياً ستين كيلوغراماً، مضافاً إليها جاكيت سميك لا يخلعه الرجل صيف شتاء. فالبرد كان يسكنه قرب الماء وبعيدا عن الماء. حين اتجهنا إلى هناك لم يخطر ببالنا أن نرى سيارة عسكرية تحول بيننا وبين السبيل. كان أول ما تبادر إلى ذهننا هو أنهم جاؤوا إلى هنا ليقطعوا الماء عن الضيعة. كان الماء يأتينا ساعتين فجراً وساعتين مساءً، كل ثالث يوم. كنّا نتناوب الأيام مع ذراعي الصليب. كان لزمن الضخ علاقة بالمازوت أكثر من علاقته بالماء. فكثيراً ما كان بو العبد يكتشف نفاذ المازوت في البرميل، وكان يشكو لابنه تباطؤهم في سد حاجات الضخ. وكثيراً ما كانت النسوة المرابطات عند سبيل هنا أو هناك يفتحن الصنابير في موعد خروجه فتخرج الريح دون الماء. كان الماء يخرج إلى صنابير مثبتة على ما يشبه أضرحة من إسمنت أسود في كل فسحة تتسع لعراك النساء الناهلات: بيدر الشيخ علي، وساحة شحود، وساحة حمدان، وساحة حسينة، وباحة المدرسة. كانت الجرار تتناطح هنا فيكسر بعضها بعضاً. كلهن كانت تسرع لإعداد أولادها قبل جرس

المدرسة، وتدبر أمر اغتسال زوجها قبل خروجه إلى العمل. كان الرجال يضاجعون زوجاتهم في ساعة متأخرة من الليل بعد أن يغفو الأولاد. يضاجعوهن وسرعان ما يغطّون في النوم. وأمّا الاغتسال فيتم في ساعة مبكرة من الصباح. كان على النسوة إشعال النار وجلب الماء وتلييف جسد الزوج بصابونٍ طُبّخ في البيوت من زيت الزيتون، تلييف الأزواج وفقا لأداء الليل. ولم يكن لذلك علاقة بحمام الأسبوع، حيث تغسل النسوة أطفالهن بشيء من القسوة كما تُغسل طناجر الألومنيوم التي علقت بها بقايا الطعام. كما لم يكن لذلك علاقة بما كان يجري في بعض البيوت التي اكتشفت الدفء الذي تبعته الكهرباء في الماء.

حين اندفع الجان في الأسلاك الممدودة من بيت إلى بيت وراحوا يصعقون من تمتد يده إليهم، كثيرون لعنوا الكهرباء. قلّة من الكسالى رأوا فيها نفعا في البدء. فهؤلاء لم يكن لصياح الديكة ولا لضوء الشمس الساطع ولا لتنادي الصيادين ولا لصياح النسوة أن يوقظهم. هؤلاء كانت الأرض تستيقظ دونهم فتلعنهم وتجذب. لكنهم كانوا من أوائل من اكتشفوا روعة التلفاز الذي يقرب الليل نهارا والنهار ليلا، ويزرع في العيون شيئا آخر غير الأرض وينشر روائح أخرى غير رائحة المطر الأول، ورائحة روث طازج يتسابق الأولاد لالتقاطه من وراء الأبقار. لكن الكهرباء كانت، في أعوامها الأولى، كمثل الماء تبعث فيها الحياة مولدة تهدر في مكان غير بعيد في الكروم. كانت كهرباء يصنعها الأهلون من المازوت.

وأمّا بعد، فرأيتهم يتحلّقون حول شاشات صغيرة تأتي إليهم بنصري شمس الدين، وبفيروز وصباح وبنجاح سلام وسميرة توفيق وبأم كلثوم وفريد الأطرش وفايزة أحمد وأسمهان، وتأتي إليهم بمصارعين عراة مرّة كل أسبوع.. ثم تأتي إليهم بعراة. ورأيتها من حيث هي تأتي إليهم بالضوء تقعدهم عن الضوء. ولا يخدعتكم أنّ اللغة تضعني خارج ما هم فيه، فأنا كنت معهم أمام تلك الشاشات، وكنت أرى ما لم يتعر بعد من الأجساد.

ورأيتنا نكتشف، بعد انكفاءٍ ولجوءٍ قصير الأجل إلى ظلمةٍ صفّ من شجيرات رمان عرفت كيف تستفيد من ماء السبيل المهدور، أن السيارة المركونة عند البئر هي سيارة العبد. كان العبد يأتي، بين حين وآخر، لأبيه ببرميل مازوت. كان يأتي به من وحدته العسكرية المرابطة في مكان ما من خاصرة البلاد. عرف العبد كيف يرأف بأبيه، وكيف يأخذ بشكواه ويخفف عنه وطأة بلواه، وكيف ينال رضى الأهلين ويكسب دعواتهم له بطول البقاء، وبذرية لا تعد ولا تحصى وهو وحيد أمّه المتوقّاة وأبيه العليل. جاء العبد ببرميل خاص من لده. ورأيتنا، كالعادة، نساعد في إسقاط البرميل من الشاحنة على إطارات من الكاوتشوك، ثم ندخره إلى الداخل وسط تهليل الرجل الذي راح يسعل سعالا شديدا غطى على صدى أواخر الانفجارات الباحثة عنّا، كمثل قلوب أمهاتنا، في الوديان. ورأيت الرجل يقلقه سعال أبيه الذي لاحظ ازدياده جيئة بعد أخرى، فينصرف

وإياه إلى الداخل أملاً بأن يهدأ هناك. ورأيت أحدا منهما لا يلتفت إلى بقع الدم على قمصاننا، في زحمة العتمة والسعال ورائحة المازوت. ورأيتنا نلجأ إلى صنوبر السبيل وندعك كل بقعة تقع عليها أعيننا بالماء البارد. بالماء البارد يُغسل الدم، وبعد ذلك إن شئت فعالج ثوبك بماء دافئ وصابون. غير قليل من المرّات رأينا أمهاتنا يفعلن ذلك. غير قليل من المرّات كان عليهن أن يغسلن بقايا دمنا عن قمصان وسراويل تمزّقت موضع الجرح، ويرفأنها قبل أن يرقين جراح قلوبهن بالدعاء. ورأيت العبد يعود إلينا دون أبيه ويسألنا عما إذا كنا نعرف كيف نشغل مضخة الماء. ورأيت، قطعا للشك، واختصارا للوقت، يضع الذراع في العجلة الحديد ويديرها بقوة وسرعة فيعلو شخير محرك الديزل ثم ينتظم نبضه. ورأيتنا يرينا كيف ندير ذراع تحويل الماء. رأيتنا يديره باتجاه ضيعتنا، ثم رأيتنا نعرب له عن فهمنا وعدم الحاجة إلى المزيد. ورأيتنا يرجونا بأن لا ننسى أمانة أننا هنا سنكون مسؤولين عن الماء الذي خلق منه الله كل شيء حي. رأيت العبد في حضرة حزنه وقلقه على أبيه يتحوّل إلى شيخ يبيّن لنا معنى الأمانة ومعاني الماء. ورأيتنا نطمئنّه إلى أننا لن نغادر هذا المكان قبل عودته، مع أبيه سالمًا، إن شاء الله. كان العبد قد قرر أخذ أبيه إلى المشفى العسكري دون إبطاء. هناك سيصوّررون صدره وسيعرفون سبب هذا السعال اللعين. راح العبد يتخيّل ما سيراه الطبيب وما سيقوله. رجا العبد أباه أن يسعل في أحد المناديل التي جاء أباه بدزينة منها صنعت في الصين. رجاه فعل ذلك، مبتهلا في سرّه أن يخرج الدم مع السعال. راح العبد يصليّ من أجل أن يكون ما يدفع أباه على السعال هو السل وليس شيئا آخر. فالسل، على أيّة حال، بات مرضا قابلا للعلاج. لكن الدم لم يخرج. سأل العبد أباه إن كان قد لاحظ دما أو شيئا ما من هذا القبيل، سأله، مصطنعا ابتساما تشجيع، متهريا من نظرة عينيه الحزينتين. طمأن الرجل ابنه بأنّه ليس مسلولا. قال له: البرد، البرد سبب كل علة يا عبد! ورأيت الرجل الخفيف الوزن إلى درجة اللامعقول يصعد سيارة ابنه الشاحنة بصعوبة، ورأيت السيارة تغادرنا عبر الضيعة التي علينا إرواءها فجر الغد. ورأيتنا نتوافق، دون كلام، على أن نهب ضيعتنا من الماء ما تغتسل به بعد ليل من النار والبارود. ورأيتنا نتفحص عقدة تحويل الماء جيّدا ونكتشف ما لم يكن بحاجة إلى اكتشاف - إمكانية أن نضخ الماء إلى ضيعتنا مباشرة من البئر، وتحويل ماء الحاووظ إلى الضيعة التي انحدر إليها العبد وأبوه في الوقت نفسه. رأيتنا نرتاح للحيلة التي حسبنا أننا توصلنا إليها أيّما ارتياح، فقد راودتنا في البداية فكرة أن نحول الماء إلى أهلنا، غير عابئين بحاجة الآخرين إليه. وما دفعنا إلى تفحص عقدة التحويل لم يكن رأفتنا بجيراننا، إنّما خوفنا من أن يأتي الغاضبون منهم ويحطّموا رؤوسنا. فنحن أنفسنا كثيرا ما كنا شهودا على انحدار أهلنا إلى البئر لمعرفة سبب انقطاع الماء.

عمّ الهدوء. تسلّقنا السلم إلى سطح الحاووظ وهناك نشرنا قمصاننا وجلسنا نملأ أعيننا بليلة لا تشبه غيرها من الليالي. ضيعتنا كانت الوحيدة التي يضحّ إليها الماء من البئر مباشرة لوقوعها أعلى من مستوى الحاووظ. كان الماء يضحّ إلى حاووظ ضيعتنا الذي لم يكن الأهلون ينتظرون امتلاءه لفتح سكر الماء إلى المناهل. ومن على سطح الحاووظ بدا لنا طريق الإسفلت المنسلّ إلى المعسكر أشبه بثعبان رمادي يتلوّى في طريقه نزولاً إلى شاطئ البحر. لم نكن ننتظر أن نرى المكان الذي تركنا فيه جثة الحمار الذبيح. لكننا رأينا وعرفناه. لم يترك الدرب الترابي الأبيض المتفرع من هناك إلى الكاديك مجالاً للخطأ. وعلى سطح الحاووظ، مكثنا نراقب ظهور العسكر على الطريق. لم يكن ضوء القمر كافياً لرؤية ما قد يحصل حين يصطدم العسكر بجثة الحمار. أسفنا لأننا لم نشعل ناراً هناك ونتركها متقدة إلى حين وصولهم. كان يمكن إحضار كمية كبيرة من بقايا تقليم الزيتون المقدّسة على التخوم وتكويمها في وسط الطريق وإشعال النار فيها. كان هناك من القرم ما يكفي للظى لا يخبو عدّة ساعات. لكن ذلك لم يخطر لنا في بال. رحنا نلوم أنفسنا، ونتخيّل كيف أنّ النار كانت ستزيدهم ارتباكاً. فما معنى أن تكون هناك نار وجثة ودائرة تتوسطها علامة استفهام؟ كان من شأن النار أن تخيفهم. أحد ما، كان سيأمرهم بالبحث عن مشعلها الذي لا بد أن يكون قد اختبأ في مكان ما قريب من هنا. لكنّ الذي قتل الحمار قد اختبئ في عمة جذع عتيق، ومن هناك تمتد يده الغاضبة الواثقة لتلفّ الأنشطة حول عنق من يجرؤ على النظر في عينيه، ومن الظلام قد تأتي طعنة في القلب، أو يخرج نصل حاد يذبح العدو من الوريد إلى الوريد... رحنا نتخيّل ما يمكن أن يفعله فرسان أعدوا العدة جيّداً لملاقاة عدوهم بين أشجار زيتون عتيقة يخيل إليك أنّ على جذع كلّ واحدة منها يلتصق خمسة رجال. وتخيّلنا الغربان تأتي لتفقأ عيون القتلى الذين فرّ دونهم الجنود المندحرون. ثم تخيلنا كبيرهم هناك سكران يلمّ فلولهم ويأمرهم بقطع أشجار الزيتون، بقلعها، بشلعها، بفعل أي شيء لا يبقى منها شيئاً على شيء.. رأيناها ترفع جذورها، مستغيثة، إلى السماء، ورأينا أخوات لها بضت أعناقها، ثم رأينا الجثث الخضراء تُكّدس حول بيوت الضيعة ورأيناهم يدلّقون عليها صفائح البنزين، ويضرمون فيها النار. ورأيناهم يجهلون كم من نار في قلب كل شجرة زيتون. رأيناهم لا يلقون بالاً إلى ما خُصّت به من ذكر وما ينطوي عليه فرعها وثمرها من نور، ورأينا الذي يشفي من سبعين علّة أعجز من أن يُطفئ في قلبه النار. أم أنّ نار الزيتون المقدّسة هي نارنا، وأن انطفائها يعني انطفأنا! ولكن أي اشتعال هذا الذي نراه؟ ورأينا أنفسنا عراة لا نستطيع الهرب إلى أي مكان فلا أشجار في البساتين، ورأينا الماء الذي بين أيدينا لا يكفي لإطفاء اللهب، ورأينا الله لا يفعل شيئاً سوى طلب المزيد من الصلاة والرجاء، ورأينا الأهلين يتشظّون بين الزيت والماء، فلا هذا يغيبهم ولا ذاك يرقى الجراح. وما إن ينتهي العسكر من قطع البساتين

وحرق الدور حتى يعودوا إلى الجثة فلا يجدونها. الدم لا يشير إلى الطريق الذي سلكته، لكن هاجسا يقول لهم إنهم قد يجدونها هناك بين الخيام التي نصبوها ذات ليلٍ من أجل نوم لا يعكّر صفوه حتى نباح الكلاب.

ومن على برجنا رأينا ناقلتي جند يجتاح ضوء كشافاتهما الكروم عند كل انعطاف، ورأينا حزم ضوء تتجه صوبنا عند المنعطف الأخير قبلما يستقيم الطريق إلى دائرة السؤال. ورأيتنا ننبطح على سطح الحاووظ. ثم رأيناهم يتوقفون على عتبة القتل. لم تكن بنا حاجة، إذن، إلى إشعال النار!! رأينا الجند يترجلون من الشاحنتين، ولم نعد نرى الجثة ولا الدائرة، فقد اكتظّ المكان بالمقاتلين العائدين من معركتهم الأولى في هذه البقاع. ورأينا الوقت يطول بهم وبنا فلا يغادرون المكان ولا يغادر انبطاحنا إلى الوقوف. وبعد زمن خيل إلينا أنه مديد، رأينا سيارة جيب كشف ضوءها أرتالَ جندي انحدروا على جانبي الطريق. خمّنا أنها سيارة قائدهم جاء لمعاينة المكان. أفرحنا أن نكون قد قطعنا عشاءه من حيث لم ندر. لم نكن نعلم شيئا مما خلفه اجتياح العسكر للضيعة، وكنا نسينا أم علي وعودتنا التي وعدنا إلى البيت. وأمّا علي بن مروان فلم نكن ندري شيئا عن خروجه على أبيه.

وكما ينبغي لحراس نبع على تخوم معركة لم تتبدد رائحة بارودها بعد، بقي ثالثنا يراقب، من على برج الماء، ذلك الثعبان الرمادي المنسل بين الكروم. فإذا كان لخطر أن يأتي فإمّا سيسلك ذلك الطريق. وبعد انقضاء ما يلزم من وقت لإقناع المحرك العجوز بالدوران، سرت القشعريرة في جسد الحديد الممتد إلى حاووظ الضيعة التي خرج الأهلون بحذر إلى دورها لتفقدتها بعد ساعة من الجحيم بدت لهم أطول من قرن. كنا على ثقة من أنّ أحدا ما سيكتشف رسالة الماء فيفضّها إيدانا باغتسال ممكن مع انبثاق الفجر. لم تكن آذان قاطني حارة المشايخ حيث الحاووظ لتغفل عن صوت الماء المتدفّق فيه. وكما كنّا نحسب، يوماً، أنّ ذلك الصوت المصمّ للآذان يأتي من خبط أقدام راقصي الدبكة في أعراس الضيعة بالأرض وليس من جلد طبول تمعن في شدّه نارٌ تتوسط ساحة الرقص، حسبنا أنّ أنفاسنا التي راحت تنتظم مع دوران محرّك المضخة وتعلو حتى تكاد تطغى على ضجيجها هي التي تضخّ الماء وتزيده غزارة.

وحين صعدا إليه، كان حارسنا قد غطّ في النوم. لكننا ما إن أدركناه حتى تناهت إلينا أصوات نواح. بات بإمكان أنين النسوة أن ينتشر في البساتين بعد أن صمت الرصاص. أيقظناه وأقفلنا باب البئر واتجهنا إلى مصدر الأنين.

قتيل

حين توجّه علي الشرطي، مغادرا القبور، إلى ذلك الباب الذي زيت قفله ومفصلاته جيدا استعدادا لدخول صامتٍ لا يشعر به أحد سواه، كان فاته أن زوجته أيضا تتفحص الأبواب وتراقب عيني زوجها وأصابعه وأنفاسه متحفزة كمثّل قطة متوحّشة للانقضاض على الشر الآتي منه وتمزيقه. لنترك الهاء معلّقة بين الشر وبينه! لم يكن ليفت المرأة الخطر الذي يمكن أن يأتي من ذلك الباب الذي عالج الشرطي فيه بعناية ثغرة لرؤية ما ليس بحاجة إلى وصف. ومع أنّها أوصدت هذا الباب من جهتها، وأدارت المفتاح في قفله، مغلقة الثقب أمام مفتاح الشرطي، إلّا أنّها ترددت حين رأت الزاوية المقصوفة من ورقة النايلون اللاصقة بين أن تنصب ستارة من جهتها تحجب الرؤية الموعودة عن العين الجائعة، أو أن تلصق ورقة مقابل النافذة التي تنتظر عين الشرطي، وبين أن تتركها كما هي وتكتفي بإغلاق باب غرفة النوم.. وأمّا الخيار الذي استقرّت عليه فكان شيئا آخر غير الذي تردد في ذهنها وأتينا على ذكر ما خطر ببالنا منه. قرّرت المرأة التي سبق أن لاحظت صمت الرجل على ما تشير تلميحاته إلى أنّه يعرفه.. قرّرت أن تمعن في اختبار رجولته، فإمّا تكسر شوكته وتجعل منه عبدا مخصيا على باب مخدعها، وإمّا يطلقها مداريا هزيمته فتتال حرّيتها والبيت الذي ينص عليه عقد القران. لكن الأشياء تسير غالبا وفق منطقها الخاص وليس وفق ما نريد! سنرى على أية حال ما سيحصل بعد قليل.

كانت المرأة تراهن على صمت الرجل وقبوله بالأمر الواقع، وحتى حين راح يساورها الشك بوفرة غضب قد لا يتمالك نفسه حيالها، رأت أنّه سيكون الخاسر في نزال بين رجولة ناقصة وأنوثة صارخة تقيض عن حدود الجسد الذي ما عاد يطبق الصمت. فالجميع هنا يعرفون رجولته الناقصة ويتعاطفون معها في سرهم حتى لو أدانوها علنا. وأمّا إذا صمدت وهزمتها في فضيحة مجلجلة، إذا خرجت لتفعل ما لم تفعله أي منهن من قبل مطلقة ما يعتمل في صدرها: نعم أنا بحاجة إلى رجل، أنا لست من خشب أو حجر، اثبت أنّك رجل مرّة واحدة ولديك عصا الرجال وافعسني بعدها مثل الحشرة، دس على عنقي أمام جميع الخلق، أريدك رجلا، نعم! ولكن ليس بالصراخ في وجهي وحبسي دون حاجاتي، كن رجلا معي ومع غيري أقبل بك وحدك وأكن لك وحدك، وأمّا إذا كنت عاجزا عن أن تكون رجلا فليس من حقك أن تحرمني من أن أكون أنثى.. الرجل الذي يلعن الأنثى رغم كل شيء رجل ضعيف، الرجل الذي يريد لها تابعة خاضعة رجل

ضعيف.. الرجل القوي رجل حرّ ويريد أنثاه امرأة حرّة! وإذا كانت الأنوثة تخدع أحيانا فالرجولة لا يمكن أن تخدع أحداً، أعني نقص الرجولة أعجز من أن يخدع عين امرأة حقيقية أو عين رجل حقيقي. لا يا علي، لن أكون كما تشاء، بل سأكون كما خلقتني الطبيعة، كما أرادني الله، فإذا كان قد خلق لي هذه الحواس والرغبات فليس لكي أمحقها أمام ضعفك. أنا واثقة من أنه لا يريدني أن أفعل ذلك. أنا أشعر به أكثر حين أكون مع جسدي، ويبعد عني كلما قمعت نفسي فلا أسمع أو أراه. أريد إلهي إلى جانبي. إلهي لا يحتقر ما صنعت يده، ومن يحتقرني على نداء الله في جسدي لا يمكن أن يكون مؤمناً. الله هنا أيضاً، وفي لحظات الحب يكون كلّ هنا!..

مسدت المرأة على جسدها، شاعرة بأن الله معها، وأنها الآن أقوى، وأقدر على مواجهة خصومها. وأمّا عدوها اليوم فهو رجل لم تحبه يوماً، رجل أعد لها الفخ بدرابة يد شرطي فذرة: إذا لم يكن بيننا حبّ فلماذا يكون بيننا الله. ما بيننا هو الشيطان وأمّا الله فبيني وبين حميروش، هو من يجمعنا ويفرح لفرحنا المسروق. شعرت المرأة بالنصر، شعرت بقوة وثقة لم تشعر بهما من قبل في مواجهة علي الشرطي، فقررت أن تفلت القطة البرية المتوحشة الكامنة فيها في وجه رجل عينين يريد لها أكثر ضعفاً منه، أن تشوّه وجهه وتترك عليه ندوباً لا تتدمل، كلما رآها الناس تذكروا تلك الواقعة، واقعة عينين، هُزم حتى في صراخه وعنفه التعويضي فاستسلم أخيراً مؤثراً الحياة الذليلة على الانتحار الكريم، رجل استسلم للجرّ من إحليله كما تجرّ دابة عجوز عاجزة عن المشي من رسنها أو كما تجرّ بقرة نافقة من ذيلها لتلقى في الوادي. وإذا ما ذكرت تلك الواقعة في حضرة القوم لعن الرجال صاحبها في علنهم وابتسموا لها وحيّوها في سرهم، وتقعد العنينون منهم ما في سراويلهم، وغبطتها النسوة على قوتها وجرأتها. العنة ليست دائماً في السروال وليست فقط في السروال، لكنّه المكان، وربما الوحيد، الذي لا يحتمل التأويل.

تركت المرأة كل شيء على حاله: الثغرة التي أعدت لعين جائعة بانتظار أن ترى فتنبت ما ليس بحاجة إلى إثبات، وباب الغرفة المفتوح على السرير والضوء الخافت الذي تشعله عادة في لياليها مع حميروش. استسلمت المرأة الخارجة إلى نفسها من ابتسامة إلهها المستحسنة المباركة لدفق طاقة سحرية تأتيها من مكان ما، مكان أغضت عينها عنه نحو غواية مرعية بإرادة السماء، وقررت أن تكون نفسها حتى النهاية بين يدي رحمته المؤنسة لجسدها الذي كادت تأتي عليه الوحشة. الجسد المهجور يستوحش كمثّل شجرة مهجورة في بستان. وليس للوحشة علاقة بالله، إنّما هي أقرب إلى غول الطبيعة منها إليه. وأمّا الله فهو طبيعة في الطبيعة تخرجها عن فطرتها، نحو رفعة تكون من الأشياء وفوق الأشياء في أن.

من أجل أن ترى نفسها ومن أجل عينين عليين ترى ضوءهما، قرّرت المرأة أن تُري الشرطي أية امرأة هي تكون حين يستسلم صلصالها ليدي رجل حقيقي. قررت أن تترك باب غرفة النوم مفتوحاً ليراها بأمر عينيه في أحضان حبيبها حميروش. ألم تخطئ المرأة في ثقها المطلقة بهزيمة علي؟ ألا يمكن للضعف أن يجعل الرجل أكثر عنفاً ووحشية؟ أليس في كل عنف وقسوة جذر عنّة، فلماذا لم تأخذ المرأة ذلك بعين الاعتبار؟! كثيراً ما تدخ التجربة صاحبها. لم تتوقف المرأة كثيراً عند هواجس شوشت عليها إرادتها. خطر ببالها أن يكسر عليّ الباب ويفرغ رصاصات مسدسه في صدرها وفي رأس حميروش الذي لم يبد أنه كان يفهم شيئاً من الاضطراب البادي على امرأته، فلا شيء تغيّر في استعداده لاحتضانها، لكنّها سرعان ما ابتسمت لهذا الهاجس. ليفعل! قالت في نفسها. ليقْتلنا، سنموت معاً ونرحل معاً إلى السماء. لم تكن تلك المرّة الأولى التي فكّرت فيها المرأة بالموت. فقد خطر ببالها الانتحار غير مرّة. لكنّ ذلك كان قبل أن تبتدر بنار حميروش. وليست المسألة، كما قد يتبادر إلى الذهن، في الجسد، فهي أحبّت حميروش كما لا يخطر ببال عاقل.. أحبّته، وكثيراً ما التصق وجهها بالنافذة بانتظار أن تراه، حتى حين لم تشعر في جسدها بنأمة انتظار لجسده. أحبّته وبكت. بكت كل يوم.. بكت عجزه عن الكلام، وراحت تصلّي في سرّها من أجل أن تتحقق معجزة وينطق حبيبها فجأة، ويعبّر لها بلسانه وليس فقط بعينه الدامعتين عن حبّه لها. كانت أم عليّ قد كفّت منذ أمد طويل عن ارتياد المزارات. لم تعد تجد في الله وملائكته ورسله ومقامات أوليائه أي رجاء. غادرت أم عليّ الله عبّر حميروشها، فيما دخلته العاشقة البائسة عبر هذا الحميروش نفسه. راحت المرأة تتردد على المزارات. تحشر هناك رأسها الباكي في طيّات الأخضر راجية أصحاب القدرة على إعادة النطق إلى لسان حبيبها.

كانت حين يخطر زوجها ببالها لحظة توحدّها مع روح المقام، ترجو الأخيرة أن تتدبر أمرها مع الزوج، أن تفعل به ما تشاء، فالمهم أن يعيش حميروش مائة عام، أن تشبع عينيه من رؤيته بين الناس يبادلهم التحيّات والأحاديث في كل شأن.. راحت ترجو ذلك مؤكّدة لصاحب الحضرة أنّها لا تتوسل ما تتوسل من أجل نفسها إنّما من أجل حبيبها حميروش، وليذهب بعد ذلك مع من يشاء، ليتزوّج المرأة التي يريد، سيكفيها أن تنظر إليه من بعيد، أن تشمّ مزقاً من قميصه خبأتها في درج مع (خلعة) وبخور من المزار. وحين كان يثقل عليها الانتظار، حين كان خيالها يعجز عن تلمّس أية استجابة لدى الأخضر، كانت تلجأ إلى الأحمر، تلجأ إلى عروقها وتتمسّ المكان الذي سنقطع فيه أوردتها. كانت قد رأت ذلك في فيلم. أحد ما قال إن وضع اليد المذبوحة في حوض ماء يخفف الآلام. ومع اصطباغ الماء بالأحمر يشعر المرء بالنعاس، ثم يغطّ في نوم أبدي. لم يكن الأهلون هنا يعرفون طريقة للانتحار إلاّ تفجير أجسادهم بالديناميت. فمادة الموت

هذه متوافرة في كل مكان. وطريقة الموت هذه مدوية، وعلى درجة كبيرة من التأثير فيمن يتم الانتحار نكاية بهم. كثيرون ينتحرون نكاية بأحد ما، والبعض ينتحرن نكاية بالحياة نفسها، أو نكاية بالله أو بالطبيعة التي أوجدته دون سؤاله عن رغبته في الحياة.. لكن ما كان يدفع المرأة إلى تلمس الأوردة في رسغها كان شيئاً آخر، كان حزناً عميقاً، وشعوراً أسود بظلم يهبط من السماء متواطئاً مع ظلم يصعد من الأرض.. ومع ذلك فقد كان هناك ما يجعلها تعيد الشفرة القاطعة إلى علبتها في هكذا لحظات: وماذا به- كانت تقول في نفسها، وتعني حميروش!- وما أهمية اللسان إذا كنت عاجزاً عن قول شيء مما تريد. لم يعد حميروش كما كان، لم يعد يستعرض قضيبه أمام العابرين.. خفت كثيراً تلك الحركات العصبية المفاجئة التي كانت تدفعه إلى الركض فجأة أو إلى الضحك أو الصراخ المؤلمين.. لم يعد يعصّ يده إلا ما ندر. يفعل ذلك في الحالات النادرة التي يعجز فيها عن فعل ما يريد ويعجز عن التعبير عن حاجته: ما به حميروش! ألسنا نتحدث عن كل شيء تقريباً، أليس يفهمني وأفهمه، ألسنا نضحك معا بسعادة؟!- راحت المرأة تقنع نفسها بحميروش زوجاً تواجه به الناس- وسأنجب منه صبياً وسيكون طبيعياً، فعلة حميروش ليست وراثية، بل سيكون صبياً قويا وذكياً وجميلاً.. بل سأنجب ثلاثة صبيان وبنات. في هذه اللحظة فكرت المرأة بإلقاء حبوب منع الحمل التي سئمت ابتلاعها، وكانت تخفيها في علبه البرغل، إلى الجحيم. راحت المرأة تهرب من عروقها إلى الحلم، وهذا ما أبعد عنها الموت. راحت تستعرض حسنات حميروش، تبتسم لتحوّله على يديها من وحش يخنق أنفاسها على السرير إلى رفيق ناعم يعرف كيف يوصلها برقعة وهدوء إلى النشوة، تتخيل بيتاً سيكون لهما، وداراً واسعة، وحظيرة صغيرة ملحقة به، فيها دجاجات مزركشة الألوان وديك ذو عرف جميل وعنفوان، وبقرة نظيفة ستطلق عليها اسم كحلا، وكلب حراسة ستطلق عليه اسم بازو، وأولاد يلعبون تحت شجرة توت كبيرة في صحن الدار.

ما الذي يمنع زواجي من حميروش! - فكرت حين ارتدت آخر مرة عن عروقها- زواجي من هذا التعيس.. نعم هذا التعيس هو وحده سبب مصائبي. لكنّها توقفت عن الاسترسال في تحمّل زوجها أسباب بؤسها. فالرجل أثار عطفها فجأة. تذكّرت أي رجل بائس هو، تذكّرت ذلك المزيج الرهيب من الخجل والضعف والتوسّل والحزن والرغبة والذعر في عينيه ساعة ينكفئ عنها. حضوره في مخيلتها لم يكن هذه المرة كباقي المرّات. لم تكن قد امتلأت بحميروش وقبلت به كلّها زوجاً من قبل، ولم تكن وضعت زوجها البائس كلّه قبّالته من قبل. كان الأمر بالنسبة إليها في البداية، لعبة تواطأت عليها مع أم علي، ثم وبعد أن ارتوت بمائه، انبنى في روحها مكان آخر لأم علي، راحت المرأة تقترب في مخيلتها، مع انتقال أنس اللقاءات ودفنّها من جسدها إلى روحها، من امرأة عادية إلى قديسة لا يرى البشر قصيرو النظر أسباب قدسيّتها، وراحت توطّر

هذه القدسية وتحيطها بالزهر وتشبعها بالبحر. وكثيرا ما كانت، حين يغفو حميروش بين ذراعيها، تبتسم في سرّها شاكرة المرأة التي أنجبته والتي شعرت بمحنتها وفهمتها كما لم يفهمها أحد على سطح هذه الأرض.. كانت تصلّي لحياة أم علي وصحتها وسعادتها ومجدها وخلود اسمها طيّبا كل صباح ومساء. راحت تشعر بها أمّا حقيقية لها أيضا وليس فقط لحميروش. وكانت أمّ علي بدورها ترى في احتضان المرأة لحميروش أمومة وليس مجرد نزوة جسد. ومرة، وفيما كانت تتلمى وجه حميروش وجسده الغافيين على سريرها، صدحت بالروح الكليم الآتي من أعماق الحسرة، ممزّرة رؤوس أصابعها على عنقه وكتفيه نزولا إلى ما بدا من ظهره، راحت تغنّي إلى أن ضبطت نفسها على أمر لم تتوقعه. فقد استوقفها أنّها تشكر القدر الذي جعله على ما هو عليه. فلولا تلك الواقعة لما كان لها به نصيب. هالها أن تنزلق إلى شكر اليد التي أصمته وزرعت فيه هذه العلة. لكنّها توقفت. لم تفعل حتى في ذروة انفعالها العاطفي. فقد أنبت المرأة نفسها حتى على مجرد التفكير بذلك. شعرت بأنانية بغیضة تنزلق في خاطرها كمثّل أفعى على وشك أن تبتلع بيضة طائر. كان قلبها ذلك الطائر المهدد بالخطر: لا، ليس لي أن أشكر أحدا على علة يعانيتها حبيبي حتى لو كانت هذه العلة التي لا شفاء منها تجمعني به. ليكن سليما وليكن لغيري. عافاك الله يا حبيبي! قالت في نفسها وبكت، فاستفاق حميروش على قطرات دمع هطلت على صدره وراحت تتحدر عبر غابة الشعر الكثيف الأشقر. ضمّها حميروش وراح يحدّق في عينيها خائفا من شيء يجعله. عندئذ استسلمت للدمع وراحت تتشج وتجهش بين ذراعي حميروش. ولولا أنّه شدّها إلى صدره بقوة أعاققتها عن التنفس لما توقفت عن البكاء. فقد اضطرت إلى ذلك مجاهدة في الإفلات من عناقه المتعاطف الحميم

يا لي من بائسة، أبكي منه وأبكي عليه! قالت متذكّرة عطفها على زوجها الذي ما عادت تطيق صبورا على البقاء معه، بقاءً يرتكز على العطف وحده، دون أي سند آخر. وأمّا التجمل أمام مجتمع يمارس النفاق والرياء في كل لحظة وكل شبر فقد كفرت به. بصقت على مجتمع يتباهى بالنفاق منذ اليوم الذي اجتاز فيه حميروش عتبتها. عندئذ اجتازت المرأة عتبة نفسية لا تقاس بالسنتمترات ولا بكلمات الإطراء أو الشتيمة واللعن. ومع ذلك فحين حضر زوجها ذلك الحضور المحزن في مخيلتها، بكت لأجله، وراحت تفكّر بطريقة تخفف عنه البؤس. أفرحها خاطر أنّ بقاءهما معا سيسبب له المزيد من الشقاء، لكنّها سرعان ما استفاقت على ذاكرة أحاديث كثيرة دارت بينهما. لم يكن ينقصها الذكاء لتعرف أنّ به حاجة شديدة للانتصار عليها. وأنّ انصرافه عنها مهزوما سيجعله أكثر بؤسا، وسيدفعه إلى الانتقام منها قبل أن ينتقم من نفسه. كان الرجل قد أسرّ إليها غير مرّة بتفكير يراوده أقرب إلى الحلم منه إلى الواقع، تفكير بتركها تعيش حياة تستحقها وليس كحياتها معه، والسفر إلى مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد. كان

يقول ما يقول، منتظرا منها أن تعلن له حبّها، أن تقسم له بأنّها تحبه على الرغم من كل شيء، وأن شيئا لا يعوّضها عن غيابه، وأن بإمكانه أن يكون كما يشاء، فهي تحبّه وستحبّه دائما، لكنّه كان يتلقّى بدلا من ذلك صمّتا ينتظر المزيد من إعلان الخلاص. كان ينظر إليها فيفهم أنّها تنتظر أن يقول لها: سأفعل ذلك غدا، سأطلقك وأترك لك كل شيء وأخفي عن عيون الناس. هي فعلا كانت تنتظر ذلك مرتبة الكلمات التي ستقولها لو نطق بحكمه. ستقول له: وأنا سأذكرك بخير طوال عمري، ولن أسمح لأحد بالإساءة إليك. تنتظر المرأة فلا يكمل الرجل القول، وينتظر الرجل فلا يرى في عينيها إلا انتظار المزيد من الهزيمة فيجئ جنونه، وينقض عليها وحشه الذي أقعده أمل خادع إلى حين. فإذا بنوية من العدوانية ما زالت آثارها واضحة في مواضع مختلفة من جسدها العدو تعقب نوبة الأنا والأيثار تلك، كما أعقت سابقاتها من قبل. وهكذا كانت الحال التي لم تكن المرأة تحتاج إلا إلى أثر من دهائها لمعرفة مواضع الخطر وفرجات الأمل فيها. لذلك فما إن كان يبدأ شكواه وادعا حتى يتنبّه جسدها إلى ما سيأتي تحت ستار الوداعة الخادعة، فتأهب يداها لحماية وجهها من الكدمات. كانت تداري وجهها مدارية من خلال ذلك أسباب بقائها معه تحت سقف واحد. لكنّها هذه المرّة، وعلى الرغم من ذاكرة الألم والإحباط، استحضرت الرجل الذي رقصت الضيعة ثلاثة أيام في زفافها إليه، وسكب من عرق التين ما كان سيكفي لإسكار جميع هؤلاء العسكر الذين يسكرهم صوت الرصاص اليوم، ويجعلهم ينامون ليلهم ونهارهم دون حراك.. استحضرت عريسها الذي بدا بين جمهرة من شباب الضيعة لا يعييه شيء، بل بدا أكثر وسامة منهم وأكثر ثقة بنفسه.. استحضرت بشيء من الحب ودون خوف، وربما هي استحضرت بعين الأمومة، فقد راحت تصلّي كما لم تفعل من قبل من أجل أن يهديهما الله إلى طريقة للخلاص تفصلهما على محبة ووفاق، متمنيّة له امرأة توظف فحولته وتعوّضه عمّا سببت له من خيبة وحزن. بل راح عطفها على زوجها يتصاعد مع اشتداد تعلّقها بحميروش. وراح شعور جديد يتصاعد مع تأصّل حبّها لحميروش شعور بالنفور من أن يكون الجنس أساس كل لقاء، راحت تنتظر لقاء به لا يكون على السرير أو يكون دون سرير. شعور يثبت لها أنّها محبوبة وليست مشتتة فقط. لكن نداء جسدها وقلة المتاح واندفاع حميروش إلى ما يعنيه له دخول بيتها لم يترك لحلمها أن يتحقق. لم يخل لقاء من تداخل الجسدين. وأمّا في تلك الأيام حين طبيعة الجسد لا تسمح بلقاء فكانت تنغلق على نفسها وتتهرب من لقاء حميروش الذي لم يكن يبدو عليه أنّه يفهم أعضارها. كانت تكتفي بالنظر إليه من وراء الزجاج. كانت أمّ علي، مخمّنة أسباب انكفاء جارتها عدّة أيام في الشهر وامتناعها حتى عن زيارة خاطفة إلى دارهم، تتكفل برعاية حميروش الحزين. ومن وراء زجاجها، كانت المرأة تعاني شعورا لم تعرف له وجودا من قبل. كان دفق من الحنين الجارف يسري في صدرها، وكانت مقاومة الرغبة

في الخروج تسبب لها شعورا من اللذة ليس لمن لم يعانيتها أن يعرفها بالوصف. ألم الرغبة وألم مقاومتها، ومن هسيس الرغبة ونشيش الكي تتولد تلك اللذة التي طالما تذوّقتها المرأة خلف الزجاج، بانتظار رؤية حميروش يدور كمثّل حيوان متوحش ضجر حول وجاره فلا يجد لدخوله سبيلا. وأمّا اليوم فكانت أشبه بزهرة تفتحت بتلاتها واضعة رحيقها على كف الريح تذهب به أتى تشاء، وكان حميروش قد عاد من وحشه إلى أنسيته. إنّما كان هناك وحش آخر بيده المفتاح ينتظر اللحظة المناسبة للدخول.

وبانتظار الوحش، خيل للمرأة أنّها انتصرت على خوفها وترددها، وطردت إلى غير رجعة عينيه المفتوحتين على ذلك المزيج الرهيب المثير للشفقة والخوف في آن، خيل إليها، وربما بتأثير من حضور العسكر وانتظارها لمجيء زوجها بعد كشفها لحيلته وبالتالي رغبتها في إفشال خطته الأمر الذي أدخلها تلقائيا في حالة تحدّد معه، خيل إليها أنّها حسمت لحظة المواجهة، وأنّها ليست مسؤولة عن مصير رجل ضعيف لا يعرف كيف يصير رجلا. لم تعن بالرجولة التي استحضرتها استعدادها للمواجهة ذلك الذي ينتصب أو لا ينتصب، إنّما رجولة ناقصة أقلّ ما فيها شأنًا ذلك العضو الصغير. لم تكن المرأة تحتاج إلى حشد أسباب تؤكّد خيبة أملها برجلته. ففي لحظة الحسم ينتقي المرء من الأسباب ما يخدم إرادة المواجهة وأهدافها ويقصل كل الأشياء الأخرى بلا رحمة. ودائما، هناك من الأسباب ما يجعلنا على يقين من حقنا بفعل الشيء وضده في الوقت نفسه. لكنّ التردد قاتل، والحكمة التي تكون بالنظر في الأسباب جميعها على ما فيها من تناقض واضح للعيان، هكذا حكمة تكون صنوا للحماقة في لحظة المواجهة. وهكذا، فتحت المرأة باب غرفة النوم بعنف جعله يرتد إلى الانغلاق، مما اضطرها للعودة إليه وتثبيتته في حالة انفتاح، ونظرت نظرة تحدّد نحو ذلك المثلث المرسوم لعين تتحداها الآن قبل أن تتكبّ على جسد حميروش فتلتهمه بنهم أجفله وزادها شراسة ورغبة.

واتجه عليّ، مغادرا القبور، نحو باب بيته، وكان ما رأيته وما سأرويه لكم الآن، من لحظة خروجه إلى لحظة الموت: رأيت علي يخرج من وراء القبور قبيل وصول العسكر إلى ساحة الضيعة التي كان يفصلها عن بيته ثلاثة وثلاثون انفجارا أحصاها الكبار ولموا صداها، وألف وسبعماية وخمسة وثلاثون خرطوشة كلاشينكوف فارغة لَمّها الصغار في الصباح. رأيت الأولاد قبل ذلك يجمعون لبّ المشمش الملقى في الشوارع ويبيعونه لتجار متجولين يأتون من مكان ما، رأيتهم يجمعون الزجاجات الفارغة، والشحاحيط العتيقة، ورأيت بنات الهدهد يجمعن روث الأبقار، يلاحقن مؤخرات الأبقار العائدة من المراعي ويتسابقن لالتقاط تلك الأقراص الرخوة الدافئة.. رأيت الأولاد يجمعون أشياء كثيرة ويبيعونها أو يبادلونها بالحلوى.. أمّا أن يجمع الأولاد بيوت النار، أن يجمعوا تلك المواسير المعدنية الصغيرة اللامعة، فأمر لم أر مثله من قبل. رأيت علي يرتعد من

صوت الانفجارات، إلى درجة أنّ من يراه في تلك اللحظة على تلك الحال تختلط عليه أسباب لجوئه إلى بيته على هذه الهيئة. كان يمكن لمن يراه أن يظنّه هاربا من العسكر إلى حضان امرأته، بحثا عن الأمان، كما يندفع طفل خائف إلى ذراعي أمّه. رأيتّه يحشر المسدس الذي سبق أن أخرجه من بيته لتفقد جاهزيته للقتل، يحشره بيد مضطربة وراء سير الجلد الذي تمنطق به، فيما تظّل جعبة المسدس فارغة تتأرجح كزائدة لا لزوم لها مدلاة أسفل البطن. رأيتّه ينبطح في الزاوية التي صنعها الفراغ بين الدرجات الأربع المفضية إلى مدخل غرفة الضيوف وجدار البيت، رأيتّه ينبطح هلعا عند رؤيته نورا متوهجا تتفتق عنه قبة السماء. رأيت صوت دوي انفجار قوي يتزامن مع شعلة وهاجة لقنبلة مضيئة أطلقها العسكر بدت له متجهة نحو عنقه الناضح بالعرق البارد، ورأيتّه ينكبّ على وجهه في تلك الزاوية. وفي ذلك الركن رأيت اندماج صراخ الهلع. كان صوت كائن نصفه كلب متوحش أطلق صرخته الأخيرة على عتبة موت وحشي ونصفه إنسان اندفع وحش مذعور من أحشائه إلى حنجرته.. هو عواء عجيب رأيتّه يخرج من ذلك الركن. رأيت كلبا يندفع مذعورا نحو الحواكير من تحت جسد علي المذعور. كان علي قد انكب منبطحا على جسد الكلب الزلق المختبئ في ذلك الركن المعتم، وانتفض كما لو أنّ صرخة الذعر التي أطلقها والكلب، انفجاراً قذف به إلى أعلى، ثم سرعان ما رأيتّه يرتد إلى الأرض. ورأيت علي ينهض ثانية، رأيتّه ينتفض على أربع مطلقا عواءً وحشيا غطّى على صوت الانفجارات.

كانت الشعلة قد انحدرت إلى الوادي حين شعر علي بضغط لا يطاق في مئنته. لم تطاوعه أصابعه المرتجفة بفك أزرار السروال الخاكي، وحين شعر بذلك الانسياب الدافئ على فخذة الأيسر أسدل يديه وبكى. بكى علي وتكوّر على نفسه في ذلك المكان نفسه الذي غادره الكلب منذ قليل. كانت رائحة دعر الكلب لا تزال تملأ المكان. وربما لولاها لاستسلم علي للنوم. فقد شعر بانهداد حيله، وعجزه حتى النظر إلى أعلى. تفقد علي مسدسه فلم يجده في الجعبة، مرّر يده على الزنار بحثا عنه، فلم يعثر على أثر له. كان المسدس قد انزلق، دون أن يشعر به، عبر فردة السروال وتبلل في طريقه إلى أسفل بالبول قبل أن يستقر قرب القدم التي أخرجه من شلل الخوف خوف آخر من أن يكون صاحبها قد فقد سلاحه. في اللحظة الأولى التي تفقد فيها علي سلاحه كان قد همّ بإطلاق النار على نفسه، فقد كان شعر بقدر من الذل يصعب تحمّله، لكنّ يد القدر دفعت المسدس إلى أسفل، فلم يحن موت علي بعد.

أبطل ارتباك علي وخوفه من أن يكون قد فقد المسدس في مكان ما، خوفه الأول، وأخرجه من مغطس الشعور بالذل، فقرر أن يطلق عليهما النار دون تردد. ونهض من حاله إلى الباب. في هذه الأثناء كان جسد امرأته يأتي على جنون جسد حميروش فيكاد يهزمه. فكأنما الجسد كلّه اجتاحتها كيمياء التحدي فتبادل كلّ الانسياب والتلوي والانتفاض والتشجج والاسترخاء.. إلى أن

علا ذلك الصراخ العواء مغطيا على صوت الرصاص فأبطل كيمياء الاندماج نحو كيمياء الانفكاك. قفزت المرأة وراحت ترتدي ثيابها بسرعة، كما لو أنّها لم تستعد لهذه اللحظة من قبل، وتعثّر حميروش بسرواله فيما راحت تساعده على ارتدائه وتدفع به نحو الباب الخلفي، متلقّنة بخوف نحو باب غرفة الضيوف، متوقّعة انقراض الوحش من هناك في كل لحظة. صعد علي وقد استعاد شيئا من أنفاسه الدرجات الأربع. وضع المسدس تحت إبطه وأخرج حمالة المفاتيح المشدودة بسلسلة إلى حلقة في سرواله، أخرجها من جيب السروال. كانت هناك مفاتيح لباب المخفر ولغرفة المناوبة ومفاتيح لخزانة ولدرج طاولة مكتب، إضافة إلى مفاتيح البيت. راحت أصابع اليد المستعجلة المضطربة الغاضبة تحشر، بعصبية، مفتاحا بعد آخر في ثقب الباب، وتديره محاولة فتح الباب دون جدوى. كان صوت إطلاق الرصاص قد اقترب كثيرا وظهر الجند في أول الشارع الضيق الذي تفتتح نوافذ بيت علي على بعد خمسة أمتار منه. نظر علي نحو العسكر، بدا له أنّهم يقتربون منه بسرعة البرق، وأنّهم يتجهون نحوه بالذات، وأنّهم بعد قليل سيوجهون بنادقهم صوبه.

ورأيت علي يشدّ المفتاح محاولا انتزاعه من القفل تسابقه قدماه إلى الحاكورة حيث يمكن للظلمة المتوارية خلف البيت أن تحجبه عن عيونهم، ورأيت المفتاح اللعين لا يطاوعه مؤثرا البقاء مع الحديد على العودة إلى اللحم المتعرق المرتجف. شعر عليّ بأن الوقت لديه أضيق من أن يقوم بمحاولة أخرى. كان الذي يفكر ويملي شروطه هنا القدمان وليس الرأس. رأيت عليّ يندفع بعيدا عن الباب فتشعل سلسلة المفاتيح من سرواله وتبقى معلقة بالباب. لم يكن أحد من العسكر قد رآه ولم يخطر ببال أحد منهم أن يتحصّص الدور التي على مقربة منها يسيرون منتشين، فقد كان الجند هنا أقرب إلى عازفين في فرقة سيمفونية لا يرون أحدا من أولئك الذين إنّما هم لأجلهم يعزفون، أولئك الذين يصغون إلى ما يصدر عنهم من أصوات على بعد خطوات منهم في قاعة الاستماع بانتظار التصفيق. كان الجند في معزوفة نار، وكانوا، بانسجام كليّ وانتشاء، يتبادلون جمل زخات الرصاص المتباطئ مع المتسارع مع الإطلاقات الإفرادية مع الانفجارات لتبدو أقرب إلى مقطوعة موسيقية تدرّبوا جيّدا على أدائها. وكانوا، كعازفين مهرة، قلّما يحتاجون إلى متابعة إشارات المايسترو. لكنّ عليّ رآهم بأمر عينه يتجهون صوبه، وسيكون من الصعب على أكثر الناس حنكة وقدرة على المماحكة إقناعه بأنهم لم يكن يعينهم وجوده في شيء أو أنّهم لم يروه حين اتجهوا نحو بيته. سيقول لهم: رأيتهم بعيني هذه التي سيأكلها الدود يصوبون بنادقهم نحوي، ولو لم أكن مدرّبا جيّدا على المناورة لكنتم الآن تقرؤون الفاتحة على قبري. أنسيتم أنني شرطي وحياتي كلّها مع رصاص الغدر والإجرام، وأنني أشم رائحة المسدس عن بعد مائة متر وأعرف إلى أين سيصوّب؟! فهل يعقل أن أغفل عن كل هؤلاء العسكر.. ثم

إنني لا أخاف حتى أخط الأمور! لا بد من أنّ الخوف هو ما غبّش المشهد أمامكم وجعلكم لا ترون الحقيقة.. أنا أعرف جيّداً بأن الخوف يعمي صاحبه. وأمّا أنا فلا أشعر بالخوف. فلو أنّني خفت لسقطت أرضاً، ولما تمكّنت من المناورة والالتفاف من وراء البيت!! كان يمكن لعلّي أن يقول أي شيء يعيد الاعتبار إلى شخصيته، لكنّه لم يحتج إلى الدفاع عن شجاعته وإقدامه. فما حدث لاحقاً كان يحتاج إلى إنكار وجوده هنا برمّته، ناهيك بنطق حرف واحد يخص الالتفاف حول البيت. ولولا بقاء المفاتيح في الباب، والطلقات الثلاث المفقودة من مشط المسدس وآثار الإطلاق الحديثة في سبطانته لأمكنه نكران فعل أي شيء. ولو أنّ حميروش لم يُقتل، لكان عليّ تباهي بإطلاقه النار على العسكر، كان سيفش ريشه أمام الأهلين وسيدعي أنّه أوّل المقاومين هنا. صحيح أنّ أحداً في العن لا يجرؤ على ادعاء مقاومة العسكر المحليين، إنّما كان سيقول ذلك رداً على تباهي الآخرين في خلواتهم بمنازلة هؤلاء العسكر الذين احتلوا أراضيهم وسدّوا أمامهم المنافذ إلى البحر. كان عليّ علم بما يدور في البيوت من أحاديث منذ نصب العسكر هنا أولى خيامهم إلى اليوم. لكنّه مع مقتل حميروش بات أحوج إلى إثبات العكس، إثبات أنّه لا يجرؤ على قتل نملة، وأنّه لم يطلق النار على أحد ولا حتى على قطة في يوم من الأيام. وأنّه اليوم بالذات لم يطلق النار من مسدسه أبداً، وأنّه لا يعرف كيف خرجت هذه الرصاصات الثلاث التي يتحدّثون عنها، وأنّ عليهم أن يشرّحوا جثة القتل ويتأكّدوا من عيار الرصاصات التي اخترقت جسده، فلا يعقل أن تكون رصاصاته هو، لأنّه لم يطلقها أصلاً. لكنّ أحداً لم يصغ إليه.

حين التف عليّ إلى الجهة الأخرى، هربا من الجنود المندفعين في الشارع صوب بيته، انفتح الباب الخلفي واندفع حميروش خارجاً بسرعة من هناك. وفي وسط الطريق سقط حميروش. رآه علي يسقط فتمنّى لو يكون قد صرّع على يد العسكر، فكّر محتضناً أمنيته: لا بد أنّها مشيئة الله، أراحني منه، دون أن أوسخ يدي به.. فكّر بذلك مندفعاً نحو الباب المفتوح. رآته امرأته يندفع نحو الباب ويده مسدسه فأوصدت الباب دونه مذعورة، وأسرعت إلى النافذة المطلّة على الدرب الضيق الذي كان عليّ حميروش أن يعبره ليعود إلى أمّه عبر الحاكورة كما أليف العودة. كان الشارع هنا سينتهي لو لم ينعطف نحو باحة المدرسة، بحواكير، أقرب إلى حدائق خلفية للبيوت، فيها دروب رصفتها أقدام الساكنين هنا. أحد هذه الدروب الضيقة كان طريق حميروش في تردده بين بيت أمّه وبيت حبيبته. لم تر المرأة حبيبها يسقط، لكنها لم تره أيضاً، كما ألفت، يجتاز الفرجة بين الأشجار نحو بيت أمّه. رأت الجند يتجمّعون عند زاوية الشارع وثلاثة منهم يدخلون الحاكورة ويتوقّفون. ومع توقّف إطلاق النار، راحت النار تأكل قلب المرأة. أدركت بقلبها العاشق أنهم يتجمّعون حول حبيبها. لم تترك لخاطرة أنّ حبيبها بات جثة أن تستقر في ذهنها. طردتها

بيديها، بعينيها، بلسانها، فلم تغادرها. راحت تقفز في مكانها كي تسقط عنها الفكرة، شعرت بدبيبها، بمخالبتها الحادة اللاسعة هنا على الجلد. شعرت بفحيحها المتوعد. أحست كأنما تلك الفكرة اللعينة حرياء تعلقت بثيابها، بشعرها. راحت تنتفض وتنفض جسدها وكل شيء معلق به، لكنّ الفكرة لم تسقط. لم تسقط الفكرة وأسفاها، فاندفعت صاحبته كالمجنونة خارجة من هناك. حاول زوجها الإمساك بها لحظة خروجها، فدفعته عنها حين رأته ورأت المسدس في يده وعلى وجهه علامات فرح مخبول. دخل عليّ بيته كالمصعوق، تاركا الباب ينغلق من تلقاء نفسه، مشدوها من وقاحتها، ظانًا أنّ امرأته لحقت بعشيقها، وأنّ شيئًا لن يعيدها إلى بيت الزوجية بعد الآن. تحوّلت المرأة إلى جسد تندفع منه أسنة الفجيرة حارقة من يقف في طريقها. أفسح لها العسكر طريقًا نحو جثة حميروش، فانكبت على جسده المدمى وهي تصيح باكية: قتله الكلب الجبان، قتل حبيبي، امسكوه، هو في البيت، أرجوكم اقبضوا على هالجبان قبل ما يهرب.

نظر قائد الجند إلى مساعده مبتسما، فقد هبط عليه حل من السماء. كان الضابط في خشيته من ردود فعل الأهلين على قتل ابنهم على وشك أن يأمر عسكره بمغادرة المكان إلى المعسكر في اللحظة والحال، قبل أن يكشف أحد الجثة. وإذا بالمرأة تظهر فجأة، وإذا بظهورها يصيبه بالذعر، قبل أن يدخل إلى قلبه السكينة. ومع أنّه كان يعلم أنّ تدبّر أمر القتل ممكن بطريقة ما، وأنّ هذه الحادثة ستصبّ في مصلحتهم في نهاية المطاف، من حيث هي ستجعل الجميع هنا يرهبونهم، إلا أنّه لم يكن على استعداد لوقوع ذلك. لم يرسم حلولا للخروج من الحادثة لحظة وقوعها، إذا ما وقعت. كان يعلم أن غضب أهل القتل وأقربائه وجيرانه قد يدفعهم إلى مهاجمة جنوده، وعندئذ قد تقع مجزرة لا يمكنه تحمّل نتائجها. قتل واحد بالصدفة، نعم، ويمكن القول إن رصاصة طائشة أو رصاصة مرتدة أصابته، والأفضل من ذلك اتهامه بمهاجمتهم. ليس من الصعب وضع سكين في يده. وأمّا مقتل عدد كبير من الأهلين فهذا ما لا يستطيع تخمين نتائجه، فقد ينقلب الأمر ويضحيّ به لتبريد نار الانتقام ولتطبيب القلوب المفجوعة. وإذا بامرأة يرسلها الله لتدلّهم على القاتل. لم يستطع الضابط إخفاء ابتسامته. جثا الضابط قرب المرأة المفجوعة، وأحاطها بذراعه، وراح يطيب خاطرها بما خطر على باله من عبارات العزاء، واعداد إياها بالانتقام للشاب القتيل. لم يكن الضابط يعرف من يكون القتل بالنسبة لها. عانقها وراح يتشمع عنقها، محاولا إبعادها عن الجثة، فيما هي راحت تتشج على صدره، غارقة في مأساتها لا ترى أحدا ولا تسمع شيئا، وأمر جنوده بالقبض على القاتل فورا، قبل أن يتمكن من الفرار. فكّر الضابط، دون أن يرفع رأسه عن أسفل عنقها بالعشاء الذي كان ينتظره في بيت بوعلي مروان ولم يعد ممكنا أن يتم، وقرر البقاء إلى جانب المرأة المفجوعة. لكنّ قراره سرعان ما تعرّض لاختبار جدّي، فقد دفعته المرأة عنها بعنف وعادت إلى حبيبها لاعنة جميع من حولها صارخة

في وجوههم أن يذهبوا من هنا جميعا ويتركوها مع حبييها وإلا نهشتهم بأسنانها: اتركوني وحدي أنا وحبيبي يا أولاد القحبة! وراحت تتمرغ بالتراب وتقذفهم بما يقع في يدها من حجارة. أمر الضابط جنوده بالانصراف والتجمّع في المكان المتفق عليه، ثم أشعل لفاة تبغ ووقف جانبا يتملّى المرأة وقد استأقت إلى جانب حبييها القتيل، وراحت تصدر نشيجا جعل الضابط ينظر إليها بعطف قبل أن يغادرها نحو البيت مستجيبا لصوت آت من هناك: قبضنا عليه سيدي! وفي طريقه إلى هناك رأى امرأة لا تقوى على المشي تسير بها الفجيعة، تلحق بها نساء أخريات ثم رجال وأولاد. لم يدر الضابط أنّها أم علي، وأن القتيل ابنها. لم يكن الضابط يعرف شيئا عن أم علي، ولم يكن يعنيه من تكون في شيء. كل ما كان يشغله في تلك اللحظات، وكان لتوّه قد أفلت مضطرا ذبول الدفء التي خلفها جسد امرأة مفجوع في جسده، تدبير لا يترك مجالاً للشك بأنّ الرجل الذي قبضوا عليه هو القاتل.

مدّ الضابط يده لاستلام مسدّس علي الذي ركع ممثلا لأمر جندي وضع سبطانة بندقيته الرشاشة في عنقه، نظر عليّ إلى يد الضابط تمتد لالتقاط المسدس وكان صاحبه قد أسقطه لحظة انفتح الباب عن فوهات بنادق وصرخات: إرم سلاحك، استسلم! بدا على عليّ أنّه لا يفهم شيئا مما يدور حوله. تفحص الضابط المسدس. أخرج مشط الرصاص، فرأى أنّ أية رصاصة لم تخرج منه. فكّر بأنّ عليه أن يطلق رصاصتين أو ثلاث باتجاه ما، قبل أن يسلم الجاني إلى مصيره. لكنّ الرصاصات نفسها يجب أن تخترق الجثة أو تستقر فيها! فكّر الضابط، والمسدس لا يزال في يده، ونظر عبر الباب إلى الجثة. لم يرها. رأى كتلة بشرية يلقها سواد الليل تئن هناك. عشرات الأجساد شكّلتها وعشرات أخرى في طريقها إليها. ومن سفح وادي الجراد الشمالي، الوادي الذي تسلّق العسكر أول المساء سفحه الجنوبي، ارتد صوت انفجار كتلة ديناميت كبيرة مما يطبخه الأهلون، معلنة، لمن لم يسمع بعد، موت حميروش.

-انتهى-

اللاذقية، في الثاني من كانون الثاني/نوفمبر 2009

(صدرت عن الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، 2009)